# أنيس منصور





أنيس منصور

الحائز على جائزة مبارك فى الآداب






اسم الكتاب: شباب شباب.

المؤلف: أنيس منصور.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة يناير 2005م.

رقم الإيداع: 2003 / 20287

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2530-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



# كلمـــة أولـــى

ليس فى الدنيا أتعس من أغنى رجل فى العالم - قالها أغنى أغنياء العالم: هوارد هيوز.

وهو لا يريد أن يثير شفقة أحد عليه. فليس هذا ممكناً. فالقلوب التى اهتزت بالحقد عليه لن تلين بالعطف عليه. ولكنه يريد أن يجعل العالم كله شاهداً على عجزه عن إنقاذه من مرض خطير اسمه: الثراء الفاحش..

فهذا الرجل لا يجد شيئاً.. لأن كل شىء موجود. فالذى يجد هو الذى يبحث، هو الذى يطلب، هو الذى يأمل ويشتاق ويحن. وكل هذه الكلمات لا معنى لها. لأنه يملك كل ما يريد. ولأنه ليس فى حاجة إلى أن يقول أو يشير. فرغباته معطلة وأطرافه مقطوعة، أو كأنها مقطوعة لأنها بلا ضرورة.

وهو لا يجد الصدق ولا يجد الكذب ولا يجد الحب ولا يجد الكراهية. فكل شىء رهن إشارته.. أو أنه ليس فى حاجة إلى إشارة..

ولم يكن كاذباً هوارد هيوز عندما قال فى إحدى المرات: إن كلماتى التى لها معنى هى التى أوجهها لكلبى فى الصباح.. إنه فى بعض الأحيان يحتاج إلى أن أشرح له !

وكما فى الدنيا درجات من الثراء والفقر، فهناك درجات من هذا الشعور بالوحدة أو الوحشة، أو العزلة أو الانقطاع عن العالم حولنا..

وقد أطلقنا على عصرنا هذا عشرات الأسماء. ولكن من بين أصدق هذه الأسماء نقول: إنه عصر الإنسان الوحيد.. أى الإنسان الذى يجد نفسه وحده بعيداً عن كل أحد.. أو أنه مع الناس، ولكن الناس فى ناحية وهو فى الناحية الأخرى. ولكن لماذا؟ لأن الناس كثيرون. ولأن هموم الناس كثيرة.. ولأن كل واحد يستطيع أن يحمل إناءه على رأسه وأن ينشغل بمتى ينكسر الإناء أو يطير من فوق رأسه.. أو يطير رأسه أيضاً..

انظر إلى الناس عند محطة الأتوبيس.. كثيرون.. وهدفهم واضح. ولكن وضوح الهدف، لم يعطهم شيئاً من الارتياح. ورغبتهم الموحدة لم تجعل ملامحهم واحدة. ولا التعبير عنها واحداً .. انظر إلى هذه التعاسة على وجوه الناس الواقفين معاً. الجالسين معاً. المنتظرين معاً. كأنهم عندما يصعدون الأتوبيس يتنقلون من رصيف منخفض إلى رصيف مرتفع. وكأنهم عندما حققوا رغبة الركوب، لم يصدقوا ما حدث، فلا شىء من الارتياح على وجه أحد. وكأنهم وهم فى داخل الأتوبيس ينتظرون أتوبيساً آخر!

كأن كل واحد يشعر بالوحدة ويريد أن يكون مع أحد من الناس أو.. آحاد من الناس. ولا يدرى أنه ليس وحده. وأنه مع غيره. ولكن هذا «الوجود مع» الغير لم يسحب منه شيئاً من القلق..

انظر إلى الناس وقد جلسوا أمام التليفزيون.. إلى الأسرة الواحدة.. لا كلام. لا علاقة. كأنهم يجلسون متجاورين وبينهم جدران من الزجاج تفصل إحساسهم ومشاعرهم.. ولذلك لا يسمع أحدهم الآخر. أو لا يريد. ولا يشعر به. أو يزهد فى ذلك..

وعندما كتب أديب فرنسا يونسكو يقول: إن الناس يفضلون أن يظهروا على المسرح حيث الناس كثيرون ويرفضون الجلوس فى

الصالة حيث لا أحد.. هذه العبارة كان يعنى بها أن الناس على المسرح معاً، لأنهم فى حوار مترابط ويشعر بعضهم ببعض.. أما المتفرجون وهم كثيرون فلا يشعر أحدهم بالآخر، إنهم معاً فى المكان.. ولكن كل واحد فى حاله.. كل واحد مثل «بيضة امتلأت واكتفت بذاتها».

وعندما يبلغ الإنسان أقصى درجات العلم الحديث، ما الذى فعله؟ إنه أطلق الصواريخ والسفن إلى الفضاء. ولكن من الذين أطلقهم؟ إنه أطلق عدداً من الرجال. هؤلاء الرجال ينطلقون وحدهم.. ويندفعون بسرعة هائلة نحو الظلام والصمت والموت.. إنها أقسى أنواع الوحدة والوحشة التى عرفها الإنسان.. ويكفى أن تتصور أن رائد الفضاء هذا ليس إلا جنيناً وضعوه فى بطن أم من المعادن.. هذا الجنين لا حول له ولا قوة.. وإنما هو يستمد طعامه وشرابه وسمعه وبصره من الأرض.. إن سفينة الفضاء هى هذا السجن الأنيق.. هى هذا «الرحم الإليكترونى».. وعلى رائد الفضاء أن يقطع الليل والنهار وحده تماماً.. وحده يطلع ووحده يهبط إلى المحيط.. ووحده يهبط إلى القمر. إن على الأرض مائة ألف من العلماء يعملون من أجل أن يكون إنسان واحد وحيداً وحدة مطلقة.. إنهم يعملون من أجل تجريده من الإنسانية والحياة الاجتماعية.. فهم يضعونه فى الماء البارد والساخن والضغوط العالية والمنخفضة.. وفى مجالات جاذبية وفى مجالات بلا جاذبية.. ويسلطون على عقله وقلبه ومعدته وأحشائه آلاف العيون.. فإذا أصبح حيواناً آليًا تماماً، أطلقوه لخدمة الإنسان، ككل حيوانات المعامل مثل الكلاب والقطط والفئران.. وأكثر رواد الفضاء مات قتيلاً.. أو انسحب أو أصيب بالجنون. لأن هناك درجات لاحتمال الوحدة الموحشة. ولكن رواد الفضاء تجاوزوا قدرات الإنسان، الذى هو «حيوان اجتماعى بطبعه»- كما قال الفيلسوف أرسطو من ألوف السنين!

ويوصف هذا العصر الذى نعيش فيه بأنه عصر الطفل اليتيم

أو الابن اللقيط. أي الذى لا يجد والديه عندما يحتاج إليهما. أو إذا وجدهما فإنهما مشغولان عنه. فليس اليتيم هو الذى مات أبوه. ولا اللقيط هو الذى عرف أمه، ولم يعرف أباه.. أو الذى احتضنه أحد الملاجئ، فقامت المدرسات والمدرسون بدور الأب، وأعطوه اسماً طبيعياً. وحذفوا من شهادة ميلاده أنه بلا أب ولا أم. وإنما اللقيط هو الذى يشعر أنه غريب فى بيته. وأنه غريب بين أخوته. وأنه غريب بين غرباء.

ففى العصر الذى يعمل فيه الرجل والمرأة، وفى لحظات الحظ يولد الأطفال، ليس هناك وقت كثير لتربية الأطفال. وقد يظهر فى البيت أكثر من خادم وخادمة، ولكن الأب ليس هناك، والأم مشغولة بالبحث عن الأب أو عن بديل عن الأب.. أو شعور بالقرف من كل شيء اشتركت فى إنتاجه مع الأب. والمجتمع الأمريكى أحسن نموذج لذلك، فالأطفال يفتقدون الأبوة والأمومة. ولذلك يهربون من البيت. وينشغلون مع الأولاد والبنات من سن واحدة لتكوين أسر جديدة. يقوم فيها الابن بدور الأب فيعطى لابنه الصغير ما افتقده أو يقوم فيها الزوج الشاب بدور الأب لزوجته الشابة، وتقوم هى بدور الأم له.. إنهم يحاولون أن يعوضوا هذا النقص الهائل فى الموارد الطبيعية لقلبى الأب والأم معاً.. وليست أساليب الهروب المختلفة فى أوروبا إلا محاولة للعثور على الحنان خارج البيت.. وليست هذه المخدرات إلا وسائل كيميائية لابتكار جنات مزيفة. فالولد الذى لم يجد الجنة فى بيته، فإنه يبحث عنها خارج البيت. وإذا لم يجدها فى زوجته، فإنه لا يكف بحثاً عنها.. حتى يجدها أو يموت وهو يحلم بها..

والذى يقرأ شعراء شباب الهيبيز أو الأدباء الصاخبين فى أمريكا، والأدباء الساخطين فى أوربا فإنه يجد طريقاً واحداً وهدفاً واحداً: أين الجنة وأين بابها؟

ولن تعود المرأة إلى البيت. ولذلك سوف تحاول أن تكون أماً. وفى نفس الوقت سوف تعجز عن القيام بدور الحضانة أو بدور الحنان..

والحنان هو الحرارة الطبيعية التى ينضج فيها الطفل. ولا يغنى الطفل عن أمه ألف مربية وألف زجاجة لبن وألف لعبة ومليون قبلة من مئات الشفاه..

ولذلك سوف تكون هناك أمهات دائماً، وسوف تكون الأمهات محرومات من الأمومة ومحرومات من الطفل..

فنحن فى عصر هذا الطفل الذى يولد من أبوين لا يجدهما. وإذا وجدهما فليس عندهما وقت كثير له.. وعلى الطفل أن يقفز من الطفولة إلى الرجولة بسرعة. أى يجب أن ينمو، ويظل طفلاً فى أعماق أعماقه.

إن أحد علماء النفس عندما درس تاريخ هتلر- وهو ابن غير شرعى - قال إنه لو عرف اللعب وهو صغير، ما كانت لعبته ملايين الأجساد البشرية !

إن عدداً كبيراً من المجرمين العاديين قد حرموا الأب والأم، ولذلك كان عدوانهم على كل أب وكل أم، أو كل طفل له أب وأم..

صحيح أن عدداً كبيراً من اليتامى واللقطاء والأبناء غير الشرعيين قد تفوقوا على غيرهم من الملايين. ولكن الشعور الطبيعى عند الطفل المحروم أن يخطف ما فى يد الآخرين، إلا إذا أدركته المبادئ الأخلاقية والدينية فمنعته من أن يكون مجرماً..

وعدد قليل من الممتازين أحسوا بهذا الحرمان فارتفعوا فوقه. وكأنهم أرادوا أن يكون ملايين المعجبين بهم، هم ملايين الآباء والأمهات والأخوة. ولا يمكن حصر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين الذين لمعوا فى تاريخ الإنسانية ففى عالم الأدب والفن: الكسندر ديماس الصغير ويوكاتشيو وأبولونير ولوى أراجون وجان جينيه والموسيقار فاجنر وزوجته ابنة الموسيقار ليست ودافنتشى وساره برنان وصوفيا لورين وفرنسواز هاردى. وفى السياسة: هتلر وفيلى برانت وأرنست بيفن وإيفا براون.. وكثيرون غيرهم فى الطب والفلك والهندسة..

إنهم جميعاً أحسوا بهذا الشيء الأليم: إنهم وحدهم. وإنه لا أحد إلى جوارهم. ولا حق لهم فى أب أو أم. وإنهم «دون» الناس جميعاً. فليست لهم بيوت وحرمات. وأبواب ونوافذ. ولا يستطيع الواحد منهم أن يقول: عمى وخالى وخالتى.. ولكنهم بعيدون عن الناس وحرموا من أن تكون لهم قرابة أو شجرة أنساب.. أو بيت العائلة..

ولكن غريزة حب البقاء تحولت إلى ينبوع عبقرى ارتفع بهم من مجرد البقاء إلى التفوق على الآخرين.. أى إلى البقاء أطول وأعرض وأعلى من الآخرين..

وفى العصر الحديث لم يعد المجتمع الأوروبى يستنكر الابن الذى جاء من غير زواج.. فلا فرق بين ابن الحلال وابن الحرام فكليهما ابن. ولذلك له نفس الحقوق. ثم لا فرق بين الذى له أبوان، وبين الذى له أم وليس يعرف أباه.. فنحن جميعاً نعيش فى عصر لا يجد فيه أحد أباً أو أماً.. أو إذا وجدهما فهما غائبان بالروح حاضران بالجسد.. فكل الناس سواء: يتامى أو لقطاء.. وهذه هى الحياة الحديثة، ولا رجوع عنها !.

وفى هذا العصر الذى تقدم فيه العلم النظرى والتطبيقى انتشرت على أطراف الصحارى الرملية فى أمريكا والجليدية فى روسيا وعلى قمم الجبال الأوروبية وفى كهوفها تلك الصوامع البيضاء المكيفة الهواء.. تلك المعامل التى يعيش فيها العلماء يبحثون. إن هذه المعامل أشبه بصوامع وأديرة الرهبان والمتصوفين. إن هؤلاء الممتازين من أبناء العصر الحديث يعيشون فى رهبانية علمية.. أو يعيشون فى هذه السجون المكيفة الهواء والضوء والضغط. وتحرسهم الدول كأشد الناس شراسة فى الإجرام.. أو كأنهم أعداء الدولة !

فنحن فى عصر الصوامع الإليكترونية.. وفى العالم مئات الألوف.. بل ملايين الممتازين يعيشون فى هذه السجون الانفرادية من أجل البحث عن الحقيقة.. إنهم يعيشون فى أقفاص من حديد تشبه أقفاص الأسود

والنمور فى حديقة الحيوان.. ولهم أرقام ولهم علامات مميزة. وممنوع الاقتراب منهم والذى يقترب منهم تراقبه الدولة، وتحسب حركاته..

ولكن هذه العزلة إرادية..

أى أن الإنسان أرادها لكى يصبح قادراً على العمل أفضل. ولن يتمكن من ذلك إلا إذا انعزل عن الناس.. وهو أشد ما يكون شوقاً إليهم. ولكن المعادلة صعبة: الكثير من الناس يساوى القليل من العلم، والقليل من الناس يساوى الكثير من العلم. وقد اختار هؤلاء «السجناء الممتازون» العلم الكثير. ولذلك عاشوا بعيداً عن متناول الناس.. ليس الواحد منهم مطروداً، ولكنه كالمطرود. ليس منفياً ولكنه كالمنفى..

ثم إن هذه العزلة هى الشرط الوحيد لضمان استمرار البحث واستمرار الحياة.. ففى عالم الحيوان تجد الأنثى تنعزل تماماً عن بقية القطيع لكى تلد.. فإذا ولدت ظلت إلى جوار وليدها حتى يكبر.. ثم عاودت حياة القطيع.. فالعزلة مقدمة الولادة وشرط لبقاء المولود.

والذى يفعله العلماء، يفعله الفنانون أيضاً. إنهم ينزلون إلى بحر الحياة الصاخب يغتسلون وتمتلئ عقولهم وقلوبهم.. فإذا جاءت لحظات الإبداع انزووا وانعزلوا.. وأقفلوا الأبواب والنوافذ.. وباعدوا بينهم وبين الناس.. إنهم يختارون عذاب الوحدة، لأنه شرط الولادة.. مع أنهم فى نفس الوقت يحبون الآخرين ويحنون إلى الناس.. فهم اجتماعيون وهم أزواج وآباء وأبناء وأسرة واحدة.. ولكن لابد من الصومعة.. لابد من الحياة عند أطراف الصمت وكهوف الهدوء..

إن المثل الأعلى هو حيوان اللؤلؤ. ذلك الكائن الضعيف جداً الذى احتمى تحت شفتين من المحار أى من الكالسيوم اللامع.. إن هذا الحيوان عندما يتفتح ليتغذى.. تدخل بعض الأشياء الصغيرة جداً العالقة فى الماء إلى جسمه الناعم الرقيق فى داخل هذه القوقعة.. وهو لا يقوى عليها.. فترتفع درجة حرارته ويمرض.. وينطوى على ألمه.. ويظل يبكى- نعم يبكى.. فهو يفرز مادة اللؤلؤ البيضاء

اللامعة حول هذا الجسم الصغير الغريب الذى دخل إليه من البحر. ثم يبعد عن الشاطئ.. وعن سطح الماء.. ويظل معلقاً هادئاً كأنه مشنوق.. وتمضى الأيام والشهور والسنوات وهو يفرز ألمه الأبيض الشفاف.. وبعد ذلك تمتد إليه يد إنسان تفتح شفتيه وتستخرج من أحشائه حبة اللؤلؤ..

هذه الحبة الجميلة، التى قال عنها أجدادنا إنها دموع الملائكة، تحسده عليها كل حيوانات البحر.. تحسده على حبة اللؤلؤ، وتنسى مرضه ووحدته ووحشته فى الماء.. وعجزه عن أن يعيش مثل سمكة أو ينطلق مثل حوت..

وكلنا هذا الحيوان المسكين، الذى لا ينظر الناس إلا إلى الحبة اللامعة التى تخرج من أحشائه وأحشائنا.. أما كيف تكونت ومن أى شىء تكونت، وإنها نهاية حيوان أفرزها ليموت بعدها، فليس هذا مما يشغل الناس !

.. كل هذا العذاب من أجل أن يموت محسوداً من الجميع، دون شفقة من أحد.

ولو خيروه - وخيرونى - بين أن أكون مثيراً للشفقة أو مثيراً للحقد لمددت يدى وأرجلى استدفئ على أحقاد الآخرين !



القاهرة ١٩٨٨

# أذنى على الأرض وعينى فى السماء!

عندما يقول لك شخص: أنا عندى فكرة !

فمعنى ذلك أنه يريد أن يعرض أسلوباً فى التغيير. فى تغيير أفكارك أو أفكار غيرك. وأنه يريدك أن تقف إلى جواره.. أنت أو ألوف غيرك. فإذا استطاع فهو صاحب رسالة أو مذهب أو دين.. والتاريخ يروى لنا ما الذى فعله أصحاب الفكرة الواحدة القوية. إنهم الذين غيروا التاريخ!..

وقد اندهش الناس فى لندن منذ سنوات عندما وقف أحد أبطال مسرحية «كله فى وقت واحد» وأعلن قبل نهاية المسرحية بدقيقة واحدة قائلاً: ولكن أنا عندى فكرة !

وفى هذه اللحظة قفز أحد الممثلين من صفوف المتفرجين وهو يقول: إنه شخص عنده فكرة.. هذا شىء خطير شخص عنده فكرة ويظل ساكناً طول هذه المسرحية لا ينطق بكلمة.. ثم يجىء الآن ليقول أن لديه فكرة.. إن هذا الموقف الخطير لا يمكن السكوت عليه.. ولذلك باسم المؤلف وباسمكم جميعاً أطالب بإسدال الستار – وينزل الستار !

ولكن هذا الموقف يدهشني بضع لحظات. ولكنه بعد ذلك طبيعي جداً فصاحب الفكرة يريد أن يقنع الناس بشيء آخر.. المتفرجين والممثلين. وهذا في حاجة إلى مسرحية أخرى.. أو إلى أن ينتقل الناس من المسرح إلى مكان آخر..

وإذا دخلنا دماغ الكاتب أو الفنان أو السياسي أو الفيلسوف أو المصلح الديني فإننا أمام طراز واحد من الناس عندهم أمل واحد: هو أن ينقلوا الجبال من مكانها إلى مكان آخر..

وفن التفكير والإقناع بالفكرة هو فن تحريك الجبال. والعبارة الشهيرة تقول: إذا لم يأت الجبل إلى محمد ذهب محمد إلى الجبل..

وما من صاحب فكرة إلا يريد أن ينتقل إليه الجبل.. ولكن الجبل في حاجة إلى قوة لتهده وتجعله وادياً ثم يتحرك هذا الوادي ليقف على «حيله» جبلاً من جديد.. إن أصحاب الرسالات الكبرى حاولوا أن تنتقل إليهم الجبال. ولكن الجبال لم تتحرك فتحركوا هم وانتقلوا من مكان إلى مكان وهاجروا.. موسى هاجر إلى سيناء وعيسى هاجر إلى مصر ومحمد هاجر إلى المدينة.. وبعد ذلك سارت وراءهم الجبال !

وليست الفكرة هي التي تنقل جبلاً ولكن صاحب الفكرة وطريقة عرض الفكرة واقتناع الناس بها والصمود معها ولها وحولها وانتقال عدواها إلى الملايين عاماً بعد عام ..

إلا إذا كان الإنسان إلهاً إغريقياً .

فهو قادر على أن يحول الجبل إلى نهر. والنهر إلى جبل.. والوديان إلى مزارع والمزارع إلى حيوانات.. فقط هذا الطراز من

الكائنات ليست عندها مشاكل.. بل ليست عندها أفكار.. فالمسافة بين الفكرة والعمل أو بين الرغبة وتحقيق الرغبة لا وجود لها. فالذى تريده يكون. ولكن الإنسان يقطع هذه المسافة الطويلة بين الذى يريده وبين الذى يستطيعه. أو بين الذى يدور فى رأسه وبين الذى يدير رءوس الآخرين فى سنوات مريرة.

ويقول الكاتب الأمريكى فانس باكار: إنها ليست السلعة فقط هى التى تروق المشترى، ولكن طريقة لفها فى الورق، وهذا هو الفن الذى تقدم فيه اليابانيون على كل الناس !

وما يقال على السلعة يقال على الفكرة أيضاً ..

وليست أفكار الإنسان شيئاً صعباً وإنما الإنسان هو أصعب وأعقد من كل الأفكار والمذاهب والأديان التى يدعو لها.. ولذلك كانت الأفكار واضحة، ولكن عرض الأفكار ونقلها والإقناع بها – عبر الناس أو عبر حقول الألغام العقلية – هى أصعب ما يواجه المفكر والفنان والسياسى ورجل الدين.. ولذلك ضاق أكثر الأنبياء بشعوبهم..

فنوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فهو يطلب من الله أن يحرق الأرض ومن عليها.. وقد غرقت الأرض ومن عليها.. وجاء البحر يحمل سفينة نوح بركابها القليلين جداً!

وأكثر الأفكار وضوحاً، ليست واضحة عند كل الناس. ولذلك لا يمكن أن يكون هناك اتفاق على معنى واحد، أو فهم واحد، أو أسلوب واحد.. ولذلك فالتفاهم صعب. والاتفاق أصعب !

مثلاً منذ سنوات ذهب مئات الألوف من الناس إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك لمشاهدة لوحة للفنان الهولندى رمبرانت اسمها «الفيلسوف أرسطو يتأمل الشاعر هوميروس». هذه اللوحة اشتراها المتحف بمليونى دولار وجاء الناس بالطائرات والسيارات والسفن لمشاهدة هذا العمل الفنى العظيم.. وجاء عشرات الألوف من طلبة المدارس والجمعيات الخيرية. كلهم جاءوا ليروا: هذه اللوحة.. وليتساءلوا: ولكن لماذا ينظر الفيلسوف إلى الشاعر؟ ولماذا اختار الفنان للفيلسوف ملابس رجل هولندى غنى؟ وما هو المعنى؟ وما هو الهدف؟ وما هى الفائدة؟ وهل تساوى هذا المبلغ؟

هذه اللوحة الرائعة التى هزت الحياة التجارية فى أمريكا قد استقرت الآن فى الدور الثانى بين عشرات اللوحات لنفس الفنان ولم يعد أحد يلتفت إليها بهذا الجنون. ولكن الناس ذهبوا ليروا، وليتحدثوا بعد ذلك.. وليقضوا على الملل والقرف والضيق اليومى فى حياتهم.. ولكن هذه اللوحة ليست إلا فكرة فنان عاش ومات من ثلاثة قرون يروى فيها كيف أن فيلسوفاً عاش ومات من ثلاثة وعشرين قرناً يتأمل شاعراً عظيماً مات قبله بخمسة قرون.. إنها فكرة رجل عن رجلين ورآها مئات الألوف وكل واحد خرج بالمعنى الذى يريده أو يريحه..

وأهم من ذلك أن رجلاً فى هذا المتحف استطاع أن يثير الناس بفكرة له هو. هذه الفكرة لا علاقة لها بالفن أو الشعر أو الفلسفة.. إنها فكرة تجارية سياحية من الدرجة الأولى !

وليس بعيداً معرض توت عنخ آمون فى لندن.

فهذا الملك الذى حكم مصر ست سنوات ومات فى الثامنة عشرة من عمره كان حلم الملايين. كل واحد يريد أن يرى شيئاً.. أو يرى نفس الشىء ليخرج بمعنى آخر.. وتوت عنخ آمون ليس شخصية مهمة فى تاريخ مصر. فهو ملك لا قيمة له. ولكن قيمته جاءت من أنه صاحب مقبرة سليمة وتابوت لم تمسسه أيدى اللصوص.. فهو «عمل فنى» لحانوتى مجهول.. أو هو صورة باقية رائعة لفن النحت والنجارة والتحنيط عند الفراعنة.. وهو فى نفس الوقت يدخل تاريخ الحضارة البريطانية التى تعاونت صحافتها مع علمائها على كشف هذا الأثر التاريخى الرائع.

والناس عندما ذهبوا لرؤية توت عنخ آمون لم يذهبوا للفرجة على الشخص، وإنما على الفكرة الفنية.. على عكس الذين يذهبون للفرجة على جثمان لينين.. فهم ينسون صناعة التحنيط السوفيتى لرجل مات سنة ١٩٢٤، ولا يذكر الناس إلا الشخص لأنهم يعشقون أفكاره الفلسفية السياسية الاقتصادية.

وفى أحدث كتاب عن «رمبرانت» للكاتب الفرنسى روبير تاتويزر جاءت هذه العبارة: ولما سئل رجل يقف فى نهاية الطابور وقد حمل طعامه وعلبة صفيح بها كوكا باردة: وأنت لماذا جئت؟ فقال: عندى سبع دقائق.. فقد تعطلت سيارتى وسوف تحضر ابنتى لانتشالى..

ويقول الكاتب: ولم أشأ أن أسأله عن رأيه فى الفنان رمبرانت

أو فى لوحة الفيلسوف أرسطو وهو يتأمل الشاعر الأعمى الخالد هوميروس!

أعود إلى مسرحية «كله فى وقت واحد».. ففى الدقيقة الأولى من الفصل الأول يقول أحد الأبطال: «الذى يريح عينى هو الذى يريح عقلى.. الذى أراه بألوانه ومسافاته.. وألمسه بيدى.. أو الذى أحاول أن ألمسه بلسانى كالطفل هو الشىء الصحيح.. لا أحب أن أسمع أحداً يقاطعنى فيقول إن الفيلسوف الفلانى قال كذا.. والعالم العلانى قال كذا.. مع احترامى للجميع.. هذا رأيهم.. ولكن رأيى هو ما أراه.. فرؤيتى هى رأيى.. الرؤية هى الرأى.. قولوا: جاهل قولوا: ساذج.. ولكنى هكذا.. وليس من شأنى أن أوجع رأسى.. فليس عندى سوى رأس واحد.. ولكن هناك أناساً لديهم هذه القدرة الهائلة على أن يغيروا رءوسهم بنفس السرعة التى يغيرون بها الباروكة أو الحذاء.. إن المفكرين والفلاسفة والساسة لهم رءوس الأخطبوط كلما حطمنا واحداً من هذه الرءوس نبت رأس آخر.. وهكذا.. ولا أحسدهم على ذلك.. فرأس واحد قد أوجع قلبى.. ويكفينى هذا إلى نهاية الحياة أو نهاية هذه المسرحية»..

ولو استعرضت ما الذى قاله علماء الفلك عن هذه الأرض التى نعيش عليها لدارت رءوسنا كالأرض نفسها.. لقد جعلوها طبقاً يسبح فى الهواء.. وجعلوها نصف كرة.. وكرة.. وبيضة.. واستقر رأيهم على أنها فى شكل الكمثرى أو الجوافة.. ومهما قال الفلكيون كوبرنيكوس البولندى وبراهه الدانمركى وكبلر الألمانى وجاليليو الإيطالى ونيوتين الإنجليزى فإنه أجمل

وألطف وأريح للعين والعقل أن يقال لك: الشمس طلعت. نامت وصحيت.. الشمس طلعت.. ومع الغناء والموسيقى لا تتساءل ولا تفكر إن كانت الشمس تطلع حقيقة أو أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وأمامها؟

عندما سئل العالم اليوغوسلافى الأصل بوبين: وأنت كيف فكرت فى تطوير التليفون والراديو ؟

روى أنه عاش فى منطقة الصرب.. وأنه كان يرعى الغنم. وأنه لاحظ أن كل واحد من رعاة الغنم قد تسلح بسكين كبير له يد من خشب. وأن الراعى إذا أراد أن يتحدث إلى راع آخر، فإنه يغمد السكين فى الأرض ويظل يدق بقطعة من الحجر على المقبض الخشبى.. وفى هذه اللحظة يكون راع آخر، وعلى مسافة بعيدة، فعل نفس الشىء.. ويتلقى هذه الطرقات التى انتقلت فى الأرض إلى السكين الآخر.. وهكذا يتخاطب الرعاة فى الجبال.. ويقول بوبين: من هنا عرفت كيف يتصل الصوت.. وكيف أن «الملف الكهربى» من الممكن أن يضخم الصوت.. وفهمت معنى الدائرة الكهربية المغلقة !

ويقول بوبين: لقد كان شعارى كواحد من العلماء هو أن أضع أذنى على الأرض وعينى فى السماء.. أسمع وأفكر وأتخيل.. أرى وأفكر وأتخيل.. أتذوق وأفكر وأتخيل.. فالذى ليس على الأرض أراه فوق فى السماء !

ويقول: أصعب شىء هو الفكرة الأولى.. الفكرة الأولى الواضحة وبعد ذلك يمكن نقلها عبر الكلمات والرموز والإشارات إلى الآخرين!

.. ولو لم يسألنى طفل صغير: قل لى يا أونكل ما هى السماء؟ ما أغرقتنى هذه الحيرة كلها. وما تشككت فى قدرتى على أن أقول شيئاً أو حتى أشير إلى أى شىء آخر.ولكن هذا الطفل الصغير هو الذى انتشلنى عندما سألنى ورد على السؤال فقال: طيب يا أونكل من هو اللّه؟ أنا أقول لك.. إنه هو الذى خلق السماء !

ولو كان يمكن ضغط السماء فى جملة مفيدة أو فى برشامة.. أو فى حقنة لسارعت فأعطيتها لهذا الطفل أو لأى إنسان آخر.. ولكن المشكلة قديمة: كيف يدخل الجمل فى عين الإبرة؟ والجواب: يدخل الجمل إذا سخطنا الجمل فأصبح نملة.. أو إذا فتحنا عين الإبرة لتتسع للجمل !

وليس هذا ممكناً فى تعريف السماء أو اللّه وخلق اللّه للسماء فى عقل طفل صغير.. ولا عذر للكاتب أو المفكر أو الفنان إذا لم يستطع ذلك. أليست هذه صناعة؟ طبعاً صناعة. ولكن أحداً لا يسأل: ولكن أين حدود قدرته؟

ولا تزال عبارة الأديب الفرنسى موباسان صادقة- مع الأسف - إنه يقول: إن القارئ يقول للكاتب دائماً: أرحنى.. أسعدنى.. هزنى أنمنى.. أيقظنى.. اجعلنى أحلم أضحكنى.. ابكنى.. جفف دمعى ودمى وعرقى.. افعل شيئاً.. إنك قادر على كل شىء!

ولكن الكاتب والفنان والسياسى وصاحب الرسالة الدينية ليس قادراً إلا على أشياء صغيرة.. فهو يبكى وهو يحلم بأن يحرك الجبال وأن يجعلها كالجمال تدخل فى عين الإبرة !

# زمن تصبح فيه الدجاجة أعلى من الديك!

أحد علماء النفس كان يزور مدينة تريستا، ولاحظ أن عدداً كبيراً من الأطفال قد وضعوا الضمادات على جباههم وأنوفهم شيء غريب. نزل من السيارة، ولم يشأ أن يسأل أحداً، وعلى الحدود القديمة بين تريستا ويوغوسلافيا وجد علامات بيضاء على الأرض. وقال: هذا هو السبب !..

أما السبب الذى اهتدى إليه فهو أن الخلافات بين الإيطاليين واليوغوسلاف على ضم مدينة تريستا قد انتقلت إلى الأطفال. فخناقات الأطفال فوق هذه الحدود البيضاء المرسومة على الأرض انتقلت إلى نفوسهم.. فهناك حدود كانت بيضاء وأصبحت سوداء أو دموية فى لعب الأطفال.. فقد مزقتهم هذه البقع البيضاء. وأصبح من مفاخر الأطفال أن يبدو الواحد وقد أصيب فى وجهه أو فى أنفه.. تماماً كما يتباهى المحاربون القدماء بأنهم فقدوا أيديهم أو أرجلهم فى الحرب.. ولما أزيلت العلامات البيضاء من الأرض لم يعد هناك مجال للمفاخرة فقد انحسم الخلاف وزالت الفواصل على الأرض وبين الرجال وبين الأطفال !

ومن عشر سنوات أرسلت إحدى المستعمرات الإسرائيلية شكوى غريبة: إن عدداً من الأطفال يبللون الفراش رغم أن سنهم قد تجاوزت العاشرة. وتكررت هذه الشكوى أيضا، وجاء عالم كبير اسمه برونو بتلهايم يبحث هذه المشكلة النفسية والتربوية أيضاً. واكتشف أن طفل المستعمرات اليهودية ليس إلا حيواناً قد جردوه من أبويه. فليس من حقه أن يكون له أب أو أم.. فإسرائيل هى أمه وأبوه. وأيقن أن هذه المعاملة الجافة سوف تؤدى إلى ظهور نوع من الوحوش الآدمية المعقدة.. وأن الحل هو أن يعاد الأطفال إلى أحضان أمهاتهم. وأن هذا التبول أثناء النوم ليس إلا نوعاً من إثارة الشفقة.. وإلا إنذاراً بانحرافات أخرى دموية عندما يكبرون. وإن أول هذه الانحرافات أن يهرب الأطفال إذا كبروا من هذه الحظائر البشرية إلى الحياة فى المدن.. أو الهرب نهائياً من إسرائيل!

وفى سنة ١٩٤٨ اكتشف العالم التربوى الألمانى أوتو فوجل أن إحدى القرى المجاورة لمدينة اسن بحوض الرور تحترق فيها سلال القمامة لسبب غير واضح. فليس من عادة هذه المنطقة إحراق المهملات دون رعاية من أحد وسأل. ولم يجد إجابة مقنعة. وإنما قيل له: بعض الأطفال الأشقياء. ولكنه كعالم اجتماعى لا يريحه هذا الجواب. بل إن هذا الجواب إعلان صريح عن مشكلة من الممكن أن تكون أكبر. أو أنه أحد أعراض مشكلة من الممكن أن تكون أعمق. ويقول د. أوتو فوجل فى كتاب «الأخطاء الصغيرة فى الحياة اليومية – بحث نفسى اجتماعى ميدانى»: لقد وجدت أن الذين يفعلون ذلك أربعة أطفال من أسرة واحدة. وبالدراسة

القريبة جداً وجدت أن أحد أخوتهم قد سقط فى إحدى المداخن فمات. ومنذ ذلك الحين وهؤلاء الأطفال يريدون أن يحولوا القرية كلها إلى مدخنة لعل الناس جميعاً أن يموتوا فيها.. وعثرت أيضاً على طفل يقول إنه سمع هذه العبارة من أمه.. وطفل آخر يقول إنه سمع مثل هذا المعنى من والده وكان مخموراً !

وفى أحدث دراسة عن هتلر للكاتب الألمانى فريد لاندر يقول: لو استطاع هتلر أن يضع أصابع قدميه فى فمه وهو صغير، لأنقذت البشرية من الحرب العالمية الثانية!

وهو يقصد بذلك فى كتابه «أعماق أعماق هتلر وآخرين» أن هتلر الطفل قد حرم من رعاية أمه.. وكان يجد كل شىء بعيداً. ولكى يجعله قريباً كان لابد أن يكون عنيفاً. ولو أدرك هتلر أصابع قدميه، ما احتاج إلى عنف ليجعل أفواه الناس عند أصابع قدميه بالنار والحديد..

أى أن هذه الأشياء الصغيرة الضارة للأطفال يجب أن نبحث عنها فى البيت.. عند الأم. ولا أقول عند الأب. فالأب بعيد عن الطفل. عن تربيته وعن حضانته. صحيح أن الأب ضرورى للأم والابن. ولكن أثر الأم فى الطفل أعمق. فإذا كانت الأم هى التى ولدت الطفل، فالأم أيضاً هى التى تقدم العالم كله للطفل.. تقدمه قطرة قطرة من ثديها.. تقدمه ابتسامة ابتسامة وهى ترضعه وهى تحتضنه.. وكل تجارب الأطفال تبدأ فى حضن الأم. فالطفل الذى يعض ثدى الأم، ولا يجدها تمنعه أو تحذره يمضى فى العض والضرب والشتم والاعتداء عليها.. وعلى الآخرين أيضاً !

ولا أعرف إن كان أحد من علماء النفس عندنا قد لفت نظره بعنف طوية جاءته من طفل فى الشارع أثناء مروره.. أو سقط فوق دماغه قرطاس من قشر اللب أو السودانى أو البطيخ.. أو فردة شبشب.. أو تساءل: ولماذا يكسر الأطفال زجاج البيوت والسيارات.. ويخربشون الأبواب والنوافذ.. ويحملون معهم أمواس الحلاقة ويفتحون بها بطون المقاعد فى دور السينما.. لماذا يدوسون على الأشجار.. لماذا يقطفون الأزهار ويعد ذلك يسحقونها بأقدامهم.. لماذا ؟

هى نزعات عدوانية. والإنسان هو أكثر الكائنات شاعرية. فهو محب ولهان، وهو كاره مخترع. فهو الذى اخترع الشعر والغناء وهو الذى اخترع القنابل والمدافع.. هو الذى ابتدع مشاهد الغرام، وهو الذى اخترع الحروب.

والطفل فى سلوكه أقرب إلى الحيوانات..

ففى عالم الحيوانات نجد هذه النزعات العدوانية على أشدها. لأنها غريزية. فالطيور تزقزق إذا اقترب منها حيوان غريب.. والقردة تصيح.. والذئاب تعوى. فما الذى تدافع عنه؟ إنها تدافع عن «منطقة» لها.. أو أرضها. وتكون هذه الأصوات العدائية إنذاراً للجميع بأن خطراً يقترب..

بعض الحيوانات تصنع لنفسها حدوداً.. الكلاب تفعل ذلك عندما تتبول فى الشارع.. إنها تتبول فى المناطق التى اعتادت عليها أو التى تعيش فيها. وتجىء كلاب أخرى وتفعل نفس الشىء. أى أن هناك اتفاقاً واضحاً بارزاً على أن هذه الحيوانات

تسكن منطقة واحدة. وهذه هى الطريقة العملية لإرساء حدود لها روائح نافذة إلى أنوف الكلاب- فى الريف يصنعون الحواجز والفواصل من مخلفات البهائم أيضاً !

وهناك أنواع من الطيور عندما تشعر بالخطر فإنها تنقض على الغريب أو الأجنبى، وتسقط عليه برازها !

وربما كان هذا الدفاع الإقليمى من الطيور والحيوانات هو الذى يعطيها فرصة للتكاثر. فهى عندما تدفع الأعداء عن أرضها وأوكارها وأعشاشها توفر لنفسها الطعام والمأوى.. أى الجو المناسب للتكاثر والاستمرار.

ويحدث بين الحيوانات ما يحدث بين الإنسان أيضاً: فهى تتجاور ولا تتقارب، والإنسان حريص على أن يكون مع الآخرين.. وألا يعيش بمفرده، بشرط أن يبقى الجار بعيداً.. أى بشرط أن تكون له حياته الخاصة وألا «يجرحه» الجار.. فاقتراب الجار من الجار «جرح» لا علاج له إلا بالابتعاد.. أى بأن تكون هناك مسافة بين الاثنين !

والحيوانات عندما تتشاجر على الطعام أو الجنس فإنها تختلف عن الإنسان.. فبعض هذه الحيوانات ينكش شعر جلده.. أو ينكش ريشه أو يكشر عن أنيابه.. وبعد ذلك يبتعد دون أن يكون هناك عراك دموى.. أو يستسلم وفى هذا الاستسلام حسم للنزاع القائم. فبين القردة نجد أن الذكر أو الأنثى إذا استسلم لمن هو أقوى أدار له ظهره. وبسرعة نجد أن القوى يعلو الضعيف. وينتهى الخلاف عند هذا الوضع وبهذه الصورة. دون أن يموت

الصغار أو الإناث فى هذه المعارك الدموية دفاعاً عن الأرض أو البقعة من الأرض..

ويعض الغزلان عندما تتعارك تتلاصق كتفاً إلى كتف.. تماماً كما يفعل المصارعون اليابانيون. وتظل الغزلان كذلك.. وفجأة يهرب أحدهما.. أو يشتبك أحدهما بالآخر. ويعض الغزلان لها قرون شديدة الالتفاف فإذا تشابكت القرون ظل المتصارعان حتى تجىء الوحوش المفترسة وتأكل الاثنين معاً.. لأنهما لم يفلحا فى فك القرون بعضها من بعض ! هناك بعض أنواع الغزلان تنقض على الذكر المتصارع وتقتله. وتظل إلى جوار الأنثى التى مات الذكر وهو مشبوك بقرنيه مع قرنيها.. ويجىء بعض الوحوش وتأكل الذكر الميت.. دون مساس بالأنثى !

والذئب عندما يستسلم لذئب آخر فإنه يدير له عنقه.. أى يدير له جانباً ضعيفاً منه.. وفى هذه الحالة يهجم عليه الذئب الآخر.. أو يتركه مكتفياً بهذا النصر..

وسوف أمضى بعض الوقت فى الحديث عن معارك الحيوانات تمهيداً للكلام عن الأطفال الصغار. وهم حيوانات ضالة فى العصر الحديث، لأن الأمهات يعملن شيئاً آخر غير الأمومة، ويقدمن شيئاً آخر غير الحنان. صحيح أنه حنان بلا مقابل مباشر ولكن لا تستطيع الأم إلا أن تكون حنوناً حتى لو أرادت غير ذلك.. ولا تستطيع إلا أن ترضع طفلها والا احتبس اللبن فى صدرها وأشعل النار فيها .

ويسرعة أضرب مثلاً بالفئران أن فأراً غريباً لو دخل جحراً به فئران أخرى لا نقضت عليه وقتلته فوراً. إنه غريب.. إنه دخيل..

وكما أن «الحياة معاً» بين الناس ليست دليلاً على الحب ولا دليلاً على نجاح العلاقات التى تربط الرجل بالمرأة، وإنما على استمرارها وعلى الحرص على ذلك والصبر عليها فكذلك بين الطيور شيء من هذا. بل إننا نجد ذكراً وأنثى فى غاية النشاط فى جمع أوراق الشجر والأزهار الجافة وبعض نسيج القطن لتكوين العش.. ثم تبيض الأنثى.. وينام الذكر فوق البيض. وتظهر الصغار. ويحميانها. وليس بين الأب والأم أية عاطفة ولا حب.. ولو غاب أحدهما ما افتقده الآخر.. ولو جاءت أنثى أخرى لرعاية الصغار ما اعترض الذكر. ولو جاء ذكر آخر لمشاركة الأم فى رعاية الصغار ما اعترضت الأم.. إنهما متجاوران متعايشان. وكما كان الأب والأم يكون الصغار أيضاً. تكبر ولا تعرف الأب والأم، هذه غريزة بعض الطيور التى يفعلها الكثير من أبناء العصر الحديث - مما يحزن كل أب وكل أم. وعلى الأباء أن يتعلموا من الطيور!

وفى عالم الأوز نجد شيئاً مختلفاً. فذكر الأوز أقرب إلى الإنسان فهو بطبعه مخلص لأنثاه. ولكن هذا الإخلاص أو هذا الحب لا يتولد إلا من كراهية.. فالذكر كراهية منه لذكر آخر يعانق أنثاه ويلف عنقه حول عنقها. وبعد ذلك ينطلق نحو ذكر آخر وينقض عليه بشراسة. ثم يعود بسرعة إلى أنثاه.. ففى عالم الأوز: لا عداوة إلا بعد حب!

وعند الإنسان نجد أن العدوان له أشكال كثيرة تبدأ من إلقاء طوبة إلى إلقاء قنبلة. ومن كسر زجاج إلى كسر عنق.. ومن مجرد

الشتم إلى التآمر.. ومن إطلاق الشائعات إلى القتل.. ومن الممكن أن يكره الإنسان من لا يعرف.. ولكن الإنسان أيضاً يستطيع أن يتجاور وأن يشد بعضه إلى بعض، سداً مانعاً ضد الأجنبى وضد الغريب وضد الدخيل.. سداً من الأخوة ضد ابن العم ومن أبناء العم ضد الغريب. وكذلك تفعل بعض الأسماك أنها من الممكن أن تسير معاً فى اتجاه واحد، دون أن تعرف بعضها البعض أو تكون من فصيلة واحدة. ولكن الوجود معاً هو صيانة وأمان لها. ووسط هذا الزحام الذى يجهل أفراده بعضها البعض نجد الأسماك من فصيلة واحدة تتجاور.. ومن أحجام واحدة تتجاور.. ومن أعمار واحدة تتجاور.. وتتباعد عن الأكبر سناً وحجماً والأبعد فصيلة.. والجميع مشى معاً خوفاً من أن تكون وحدها فتنفرد بها أسماك متوحشة !

والإنسان هو الحيوان الذى له أطول طفولة. فالطفل يحتاج من أبويه عشرين عاماً ليكون قادراً على أن يعتمد على نفسه. ومن مظاهر الاعتماد على النفس أن ينفصل بحياته وعواطفه عن والديه وأن ينشغل بأن يكون أباً له أولاد يرعاهم لينفصلوا عنه وهكذا.

وكل هموم الدنيا تبدأ فى الشهور الأولى لحياة الطفل. بعض علماء النفس يقولون فى النصف الأول من السنة الأولى. وبعضهم يقول فى النصف الثانى. وأنا من المؤمنين بأن هذه المشاكل تبدأ قبل ذلك بسنوات.. تبدأ بطفولة الأب وطفولة الأم. وبعد ذلك تبدأ بزواج الأب والأم: إنسانان غريبان التقيا فى

ظروف غير عادية وفى درجات حرارة عالية وقررا أن يعيشا بعد ذلك معاً ويكون لهما أولاد.. ثم لا يتسع وقت الأب للأم ولا يتسع وقت الأم للأطفال.. الذين يطلقون الطوب على النوافذ وعلى الأزهار والطيور ويمزقون المقاعد والأوراق ويهربون من الأب والأم فى أسرع وقت ممكن وينسون كلمة الشكر لكل من الأب والأم على ما قدماه لهم من تعب وحب وسهر ورعاية وعناية ومال وصحة !

يقول د. أسبوك أحسن من كتب عن أطفال العصر الحديث: إن مشكلة فيتنام نفسها تبدأ من الطفل الصغير الذى ألقى السم لكلب ووقف يتفرج عليه ما الذى يمكن أن يحدث له .

ويقول د. أسبوك: إن جونسون نفسه قال لى فى التليفون إنه لن يكون هناك تصعيد لحرب فيتنام. وصدقته.. ولكن كأى طفل أمريكى فعل بالضبط ما توقعته وكرهته !.

.. إلى آخر ما جاء فى كتابه الممتع وعنوانه «يليق ولا يليق»..

فما هى حكاية الأطفال فى هذا العصر.. إنها حكاية الآباء الذين كانوا أطفالاً.. إنها حكاية هتلر الذى لم تمكنه أمه من أن يمسك أصابع قدميه.. إنها مشكلة العلامات البيضاء على الأرض.. التى انتقلت مثل كريات الدم البيضاء لتفصل بين القلوب أيضاً. إنها الشهور الأولى من حياة الطفل عندما يعض الثدى الذى يرضعه فلا تعترض الأم .. فيضغط الطفل بفكيه ثم بأسنانه.. ثم يعض الأم.. ويعض اليد التى تطعمه.. وينتقد الأب والأم.. فإذا حذراه قال: ولكن لم أطلب إلى أحد أن يلدنى.. وما

دمت قد ولدت فلى نفس حقوق المواطن الحر.. فنحن نعيش فى عصر الديمقراطية.. وليست للأب إلا حقوق الاحترام المسموح به قانوناً.. والأم أيضاً !

وعندما يتعلم الطفل أن يذهب إلى دورة المياه – يقول د. أسبوك– فإنه يتلاعب بأعصاب أمه.. ويهددها بأن يلوث كل شيء، إذا لم تجبه إلى مطالبه. وتقف الأم تجيبه إلى مطالبه وإلا.. لوث نفسه وملابسه والبيت ولا يزال الصغار والكبار يستخدمون الكلمات التى تصف ما يفعله الطفل فى دورة المياه فى شتائمهم.. ويستخدمون نفس الأعضاء للدلالة على إهانة الآخرين !.

وعندما عاد الخطيب الإغريقى ديموستين إلى بيت أحد أقاربه وجد طفلاً ينهال ضرباً على أبيه.. وكان الأب مريضاً.. فقال عبارته المشهورة: ويل للبيت إذا علت فيه أصوات الدجاج على صياح الديوك – ولم يكن صاحب الصوت العالى ديكاً ولا دجاجة وإنما هو كتكوت ترك البيضة من وقت قصير !

ويقال أن ديموستين ذهب بعيداً بعيداً.. وأمسك إناء من السم. وراح يغمس فيه قلمه. ثم يضع القلم فى فمه ويقول: ذهب كل ما قلته للكبار والصغار.. إن الفم الذى ينصح الناس، ولم تنفع النصيحة يجب أن يتجرع السم !

حتى مات ديموستين !

وليس فى استطاعة أحد الآن أن يقوم بدور «الزمار» المشهور الذى ظهر فى مدينة هاملن بألمانيا فى العصور الوسطى.. فيمسك مزماره ويمشى وراءه ألوف الأطفال.. ثم ينزل بهم إلى

البحر فيغرقون جميعاً.. وليس فى استطاعة الأطفال الأشرار أنفسهم أن يفعلوا ما تقوم به الفئران فى السويد عندما تنتحر معاً بالملايين وتلقى بنفسها فى البحر كل سنة.. وتحطم المزارع وكأنها تقول: لا حياة بعدنا.. أو يا نفس ما بعدك نفس !

وإذا قررنا أن نهلك الأطفال، فمن هم هؤلاء الأطفال: هل هم الآباء الذين كانوا أطفالاً، أو الأبناء الذين سوف يصبحون آباء ؟!

إن العصر كله يأكل نفسه، ويهدم قيمه، ويقتل الآباء بيد الأبناء، وبيد الأبناء يقضى على الجميع- إلا إذا ظهر من يفسر لنا: ولماذا يعض الأطفال الأثداء التى يرضعونها.. ولا تقول الأمهات شيئاً ؟!

# النواة التى تسند الزير تكسره أيضًا !

طفل صغير استطاع أن يضع أصبعه فى قاع سفينة فمنعها من الغرق – هكذا تقول الأسطورة، للدلالة على بطولة طفل. وفى نفس الوقت على أن أصبعاً صغيرة تستطيع أن تنقذ سفينة كبيرة. فلا شىء يستهان به !..

ويقال إن طفلاً آخر استطاع أن ينقذ بأصبعه أيضاً إحدى المدن الهولندية عندما وضع أصبعه فى فتحة لأحد السدود التى تحمى هذه المدينة الهولندية من أمواج البحر. ومات الطفل فوق أصابعه وعاشت هولندا.. ولسبب ما – غير معروف – جاء طفل آخر وسحب جثة هذا الطفل واندفعت من ورائه المياه، وغرقت المدينة وهذا الطفل !

فالأصابع التى تنقذ مدينة، هى نفسها التى تغرقها. والمثل الذى يقول: إن النواة تسند الزير معناه أن سحب النواة من تحت الزير يوقع الزير أيضاً !

وكم من عمارات سقطت بسبب نقص فى خلطة الأسمنت.. أو بسبب أن الخوازيق عندما دقوها فى الأرض لم تبلغ الطبقة

الصلبة.. ولكى تبلغ الطبقة الصلبة من الأرض كانت الخوازيق فى حاجة إلى أن ندقها بضعة سنتيمترات.. ولكن «واحدًا» من الناس اكتفى بهذا القدر– إهمالاً أو جهلاً أو عمداً !

كم من مصانع انهدت عليها السقوف.. كم من أفران للحرارة العالية قد تشققت وتكلف إنشاؤها من جديد ملايين الجنيهات.. كم من قطار اصطدم بقطار آخر من أجل قروش يدفعها راكب للكمسارى.. كم من قروش دفعها سائق تحت التمرين «لواحد» آخر لكى يشهد أنه أصبح قادرًا على قيادة أى أتوبيس، ثم نزل بالأتوبيس وركابه فى النيل..

وفى السنوات الأخيرة سحبت شركات للسيارات العالمية ألوف السيارات التى عرضتها فى الأسواق لأنها اكتشفت بعد ذلك خللاً فيها. وكان هذا الخلّل فى الفرامل.. أو فى المعادن التى صنعت منها الفرامل. وسبب ذلك أن «واحداً» تهاون فى نسبة خلط الحديد والصلب والنحاس والمعادن الأخرى !

وهناك صواريخ حاملة سفن الفضاء قد احترقت على الأرض بروادها.. وكم مرة تسرب الغاز فى سفن الفضاء وكاد يهلك رواد الفضاء وتفشل الرحلات التى تكلفت ملايين الدولارات لأن «واحداً» فى قاعدة إطلاق السفن الفضائية قد نسى ربط مسمار، أو نسى أن يراجع المسامير والمصابيح.. وعلى الرغم من استخدام العقول الالكترونية فلابد من العقل الإنسانى لكى يصوب أخطاء العقول الإلكترونية. وربما كان السبب هو التعب أو هو الملل أو الإهمال.. فهناك مئات الألوف من التوصيلات

الكهربية في سفينة الفضاء ولابد من مراجعتها واحدة واحدة.. ولكن «واحداً» من الخبراء قد أهمل أو نسى أو تعمد ذلك ..

وفى كل مكان فى الدنيا يوجد واحد على الأقل من هذا الطراز.. إذن هناك مئات الألوف أو ملايين يعملون بإهمال أو باستخفاف على خراب الهيئات والمنظمات والمصانع وتبديد الطاقة الإنسانية..

والمثل الشعبى يقول: من أجل مليم ملح يفسدون الطبخة. أى أن أشياء صغيرة جداً وتافهة جداً من الممكن أن تؤدى إلى فساد أعمال مهمة وجليلة. ولكن بعض الناس يستهينون بالأشياء الصغيرة وأثرها على الأشياء الكبيرة.

وفى حياتنا اليومية الخاصة نجد عشرات الأمثلة على ذلك. إن موظفاً واحداً قادر على أن يريك جهازاً كاملاً.. إن الرجل الذى يجىء إليك فى البيت ليصلح النور يفسده.. ويجىء غيره ويفسده أيضاً.. والذى يصلح لك التليفزيون والتليفون والسيفون.. كل هؤلاء يجيئون واحداً وراء واحد. وفى كل مرة تندهش إن كان أحد منهم قد رأى هذه الأشياء من قبل. وإذا كان قد رآها فما الذى صنعه فيها..

وأصحاب السيارات عندهم مغامرات مع الأسطوات فى كل شارع وعلى كل رصيف.. والذين يسافرون فى الطريق الزراعى والصحراوى كم من مرة يتوقف فجأة لأن دخاناً يتصاعد من الموتور.. ماذا حدث؟ إن السيارة ليست بها قطرة ماء ! كيف؟ إن العامل فى محطة البنزين قد قال إنها لا تحتاج إلى ماء.. أى أنه

كشف عليها فوجدها قد امتلأت بالماء. والحقيقة أنه لم يفعل ذلك.. وإنما هو الكسل أو الإهمال أو الحقد أو الضيق بأصحاب السيارات وأصحاب محطات البنزين وبكل من يملك شيئاً آخر لا يملكه هو.. وكم من مرة انفجرت عجلات السيارة، لأن صاحب السيارة قد ظل جالساً فى مقعده عندما تولى نفخها أحد موظفى محطة البنزين.. فنفخ العجل أكثر مما يجب.. أو طلمبات الهواء غير مضبوطة وأن عاملاً آخر قد تهاون فى ضبطها وهى بذلك تملأ العجل بأضعاف ما يحتاج إليه.. والنتيجة يعرفها الكثيرون.. إلى ما لا نهاية. فهناك «واحد ما» فى كل مكان يؤدى إلى هذه الحوادث والمصائب والكوارث !

أما الذى يحدث فى الحروب وفى أزمنة المحن الكبرى فشيء مروع..

ففى سنة ١٦٤٨ كتب المفكر السياسى الإنجليزى ماكولى يصف البحرية البريطانية فقال: إن إدارتها نموذج للفساد والجهل والضياع والتبديد.. فلا ضوابط لشيء أو على شيء.. لا متابعة.. والبحارة يتقاضون أجورهم فى أوقات غير منتظمة.. ومعظم السفن العائمة، كان يجب أن تغرق من زمن طويل.. فكلما تلفت حولى وجدت على الأقل شخصاً واحداً من بين كل ثلاثة يجب إطلاق الرصاص عليه لأنه مصدر هذا الفساد كله!. ثم من هذا الذى اختار هذه الحيوانات البرية لتعيش فى البحر، إن «واحداً» مجرماً قد اختارهم واستراح وأقلق الجميع !

والقائد الكبير ولنجتون عندما استعرض فى آخر لحظة ضباط

أركـان حـربـه قـبـل حـمـلـتـه عـلـى الـبـرتـغـال سـنـة ١٨١٠ انـدهـش، وانـزعـج ولـكـن الـوقـت قـد فـات. وقـال عـبـارتـه الـمـشـهـورة: أمـلـى الـوحـيـد أن يـرتـجـف الأعـداء مـن هـؤلاء الـضـبـاط كـمـا ارتـجـفـت أنـا عندما قرأت أسماءهم وعرفت تاريخهم العسكرى.. أريد أن التقى بهذا المجرم الحقيقى الذى جمع هؤلاء فى سفينة واحدة !

ويعد معركة البرتغال اكتشف ولنجتون أن الصدفة وحدها هى التى جمعت هؤلاء الضباط فى قيادته.. وإن خطأ وقع فى عملية نقل بعضهم من سلاح إلى سلاح.. وأن هذه الغلطة التى ارتكبها أحد الإداريين قد كلفته الكثير من العتاد فى معارك البرتغال !

وفى الحرب الأهلية الأمريكية كتب الجنرال ريتشارد تايلور فى مذكراته عن حرب «السبعة أيام»: كانت مفاجأة عجيبة، إن جنودى لا يعرفون الطريق إلى أقرب مدينة إلا كمعرفتهم لغابات وسط إفريقيا.. منتهى التوفيق فى اختيار ما يؤدى إلى الهزيمة !

ولكنه أحد ضباط القيادة العامة هو الذى اختار هؤلاء الجنود الغرباء عن المنطقة ليقوموا بغزوها !

وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف الإنجليز أن قنابل الألمان أشد إحراقاً وتوهجاً. ولم يعرفوا السبب الحقيقى ولكن فى سنة ١٩٤٠ اهتدى العلماء الإنجليز إلى أن استخدام مزيد من مسحوق الألومنيوم يؤدى إلى أن تصبح القنابل البريطانية فى قوة قنابل ألمانيا.. وفى سنة ١٩٤٣ اكتشف البريطانيون أن أحد مديرى المصانع الحربية هو الذى أمر بإنقاص كمية الألومنيوم المسحوق.. فجاءت القنابل أقل وهجاً وأقل تدميراً !

وفى محاكمات نورمبرج سئل الجنرال اشتومبناجل عن حقيقة القنابل التى استخدمها الألمان. فقال أن تغييراً طرأ عليها أثناء الحرب. فقد استولى الألمان على بعض القنابل البريطانية.. وبتحليل هذه القنابل عرف الألمان أنهم لو ضاعفوا نسبة مسحوق الألومنيوم، فسوف تكون ذات فعالية أكبر !!

وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف القائد الاسترالى دزموند باترسون قائد إحدى السفن التى استخدمت لعلاج الجرحى أن خزان الماء بها قد طلى بالرصاص الأحمر. وأن الجنود لو شربوا من هذا الخزان يوماً آخر لماتوا جميعاً. ولما سأل القائد الاسترالى عن ذلك عرف أن أحد عمال السفينة لم يجد أمامه غير هذا الطلاء. وإنه لم يشأ أن يسأل أحداً من كبار الضباط أو المهندسين أو الأطباء!

وفى محاكمات نورمبرج اتهامات لا عدد لها لكبار الضباط الذين ماتوا وانتحروا.. مثلاً من ضمن التهم أن القائد العسكرى فون باولوس فوجئ فى أحد الأيام أثناء زحفه على روسيا أن أمراً مباشراً من هتلر يقول ما نصه: إذا وصلت إلى الموقع كذا.. فعليك أن تزحف من ناحيتين.. وأن يكون جناحك الأيمن بالمدرعات.. وأن يكون جناحك الأيسر بالطائرات.. المدفعية اجعلها متأخرة عند الموقع رقم كذا.. والإمضاء هتلر».

وعندما قرأ فون باولوس هذا الأمر وجد أن تنفيذه مستحيل. وأن هذا بالضبط ما لايجب القيام به. وأن الخطة معكوسة تماماً. وأنه من الأفضل أن تكون المدرعات فى الجناح الأيسر نظراً لمواقع المدن.. ولم يكن عنده متسع من الوقت ليراجع

هتلر- إن كان في استطاعة أحد أن يفعل ذلك.. وبدأت المعركة وعرف متأخراً جداً أن السكرتير الخاص الذى تلقى أمر هتلر قد أخطأ فى كتابته.. ولم يتمكن فون باولوس من تغيير هذا الأمر.. أو تعديله.. وقد هلك بسبب ذلك عشرات الألوف من الجنود.. والسبب هو أن «واحداً فوق جداً» هو الذى أصدر الأمر، وواحداً آخر قد أخطأ !

ومن المؤكد أن الأخطاء العسكرية فادحة التكاليف. ولكن الأخطاء الصناعية والمعمارية والصحية غالية الثمن..

ومنذ سنوات حدث فى إحدى البلاد العربية أن مات ألوف المواطنين والسبب أن جوالات القمح قد وزعت عليهم فطحنوها وعجنوها وأكلوها. مع أن هذه الجوالات كانت للبذور فقط – أى لبذرها فى الحقول. وكان هذا القمح قد أرسل إلى البلد العربى تنفيذاً لاتفاقية المساعدة فى رفع مستوى محصول القمح.

وهذا النوع من القمح يغطى عادة بمادة سامة لصيانته من التسوس ومن الآفات الزراعية. والذى يبعث على الدهشة حقيقة أن كل هذه الجوالات مكتوب عليها تحذير باللغة الإسبانية- لأنها واردة من المكسيك – والتحذير يقول بوضوح تام: هذه العبوات مسمومة !

راح ضحيتها مئات المشوهين وألوف الموتى. ولكن صحيفة «التايمس» البريطانية قد نشرت هذه المأساة بالتفصيل فى الأسبوع الماضى. أما السبب فهو أن «واحداً» تطوع بترجمة التحذير عند ميناء الوصول. وجاءت ترجمته مختلفة تماماً عن

المعنى المقصود. ولم يراجعه أحد فى ذلك.. ومات من مات فى صمت أليم!

وفى حياتنا اليومية ومعاركنا القومية كثير من الأخطاء القاتلة.. ولكن الأخطاء لا تظهر عادة إلا بعد وقت طويل.. أى بعد أن يكون الفاعل الحقيقى قد مات وشبع موتاً..

ولكن عندما تكون الأخطاء حادة دموية فإننا بسرعة نعرف الفاعل الحقيقى.. تماماً كما ينسى الطبيب، تعباً أو إهمالاً، أدوات الجراحة فى بطن المريض.. وبعد أن يتم إقفال بطن المريض فإنه يصرخ.. وهنا فقط يجب أن يعاود فتح بطن المريض لإنقاذه من أخطاء السهو والنسيان.. وليس من السهل أن نجد مثل هذا المريض الذى يصرخ.. فليست كل العمارات ولا المصانع ولا السيارات ولا الطيارات ولا الصواريخ ولا الجيوش لها هذه القدرة على الصراخ لإنقاذها قبل أن تنهار على الجميع .

إنها حكمة الحياة المريرة: حيث يوجد إنسان يضع إصبعه لإنقاذ الآخرين، يتقدم إنسان آخر ليرفع هذه الأصبع ليموت هو والآخرون !

# واحدة تريد أن تسعد الناس !

ما الذى عطل مسيرة المرأة لتكون إلى جوار الرجل أو أمامه؟ الجواب مظاهرات الرجال واللافتات التى يحملونها فى طول التاريخ الإنسانى وعرضه وعمقه. مثل هذه اللافتات انطبعت عليها عبارات تجعلك تحس أنها إرادة اللّه.. مثلاً يقول الفيلسوف اليونانى فيثاغورس: هناك قانون أدى إلى خلق النظام والنور والرجل، ولا يوجد قانون لخلق الفوضى والظلام والمرأة.. فالرجل قانون والمرأة خروج على القانون. الرجل يضع القانون ويطيعه والمرأة لا قانون ولا هى تطيعه أو تطيقه إن وجد !

يقول القديس بولس: المسيح سيد الرجال، والرجل سيد المرأة. الرجل لم يخرج من ضلع المرأة ولكنها هى التى خرجت من ضلع الرجل، الرجل لم يخلقه اللّه للمرأة. المرأة خلقها اللّه للرجل..

يقول القديس أوغسطين: الرجل سيد والمرأة عبد. إنها إرادة اللّه التى جعلت سارة تطيع إبراهيم وجعلته سيدها.. فزوجاتكم عبيد لكم، وأنتم سادة لهن!

يقول الكاتب الفرنسى العظيم بلزاك: تحرير المرأة إفساد لها.

ويقول أيضاً: الدعارة والسرقة احتجاج من المرأة والرجل على المجتمع! ويقول: إذا أردت أن تعرف مدى قسوة المرأة، هذا الكائن الجميل الذى نحبه، فانظر إليها وقد جلست مع بنات جنسها – وحشية !

ويقول: المرأة كالصحف لا تتألق إلا إذا كذبت ولا تهدأ إلا إذا جعلتك تصدق أكاذيبها. والمجتمع كالرجل لأنه سوف يستسلم فى النهاية !

يقول بلزاك: من السهل على المرأة أن تكون زوجة صالحة على أن تكون أما صالحة.. ويقول: الأرملة لها واجبان متعارضان: أن تكون أماً وأباً.. قليلات جداً من استطعن أن يحققن النجاح فى هذا الدور الصعب !

وأخيراً يقول بلزاك: لا أتمنى أن أكون امرأة.. ولا أتمنى أن أكون رجلاً.. أجدنى مضطراً لأن أتعامل مع امرأة ولا أعرف طريقاً للخلاص منها !

أما وزيرة فرنسا فرانسواز جيرد فتقول: مثل هذه الأفكار هى التى عوقت تقدم المرأة.. فبلزاك مثلاً، وهو عبقرية أدبية وفلسفية لا يفكر فى طريقة للتعايش مع المرأة.. ولا أن يكون زوجاً أو أباً، إنما هو مشغول بإزالة هذه المصيبة التى اسمها المرأة. ثم مطلوب منا نحن النساء أن نحترم مثل هذا التفكير الذى يجعلنا ننظر إلى أنفسنا على أننا مرض أو داء أو بقعة سوداء أو لعنة السماء على الأرض..

والوزيرة الفرنسية صحفية سابقة كانت رئيسة تحرير مجلة

«ال».. وصاحبة ورئيسة تحرير مجلة «الاكسبريس» وهى فى نفس الوقت امرأة شجاعة. وكانت فى انتخابات الرياسة الفرنسية ضد الرئيس جيسكار دستان. ولما سئلت كيف استدعاها لتكون عضواً فى الوزارة كان ردها المعقول: مأساة المرأة ليست يميناً ولا يساراً. إنها مأساة فى القلب، فى الصميم.. إنها مأساة الرجل أيضاً!

ولما عرض الرئيس الفرنسى على السيدة فرنسواز جيرو أن تكون «فى» الوزارة اعتذرت. لأنها لا تريد أن تكون «ضمن» التشكيل الوزارى. وإنما أن تكون واحدة ككل الرجال. وقالت: رفضت لأننى لا أريد أن أكون مسئولة عن الديكور فى مجلس الوزراء أو تقديم وجبات دافئة للسادة الوزراء..

ثم طلب إليها أن تكون وزيراً مثل كل الوزراء. وقبلت.

ووزيرة فرنسا شخصية باهرة. وهى حلقة فى سلسلة من النساء الممتازات فى فرنسا وفى العالم. ولها قضية واحدة كيف يمكن إنصاف المرأة من الرجل، فالمرأة مظلومة. هذه حقيقة... والرجل ظالم. هذه أيضاً حقيقة. وفى فرنسا تمييز بين الجنسين. فالمرأة لا تلقى نفس حقوق الرجل. تقول فرانسواز جيرو: يجب أن تضاف كلمة واحدة فى قانون توظيف الرجال والنساء فى فرنسا. القانون يقول: من حق كل إنسان أن يعمل دون تفرقة فى الدين واللون والعنصر. أما الكلمة التى يجب أن تضاف فيه كلمة: والجنس!

فإذا أضيفت هذه الكلمة اعتدل كل شىء فى المجتمع الفرنسى..

وقد قرأت لوزيرة فرنسا مجموعة آراء أعجبتنى. مثلاً هى ترى أن هناك قهراً عاماً من الرجال للنساء فالرجال بقوانينهم وحياتهم وتاريخهم المقرر على المرأة، قد قهروها. ووضعوا فى رؤوس النساء الإعجاب الشديد بالرجل. وأنه قضاء وقدر. وأن المرأة مهما حاولت فهو سيدها ومولاها. وهو الحاكم الأبدى لأحلامها.. هذا صحيح. ولكن المرأة ترد على هذا القهر العام بقهر خاص. فكل امرأة تنفرد بزوجها وتتحكم فيه على انفراد.. فماذا كانت النتيجة؟ إن المرأة تحكم الرجل وإن كان الرجل لا يدرى بذلك.. وفى كل مرة أرى رجلاً يصول ويجول وعنده هذه الحساسية الشديدة لحريته واستقلاله وكرامته، أدرك تماماً أن هذا الرجل محكوم مقهور فى بيته.. وليست صرخاته العلنية إلا رد فعل للتحكم الناعم الحريرى والحديدى الضرورى لزوجته فى بيته!

وتقول فرانسواز جيرو: إننى أعرف عشرات الأمثلة على ذلك فى المجتمع الفرنسى: أما فى التاريخ العالمى فهناك مئات الألوف !

أما لماذا يقبل الرجال هذا التسلط من المرأة، فلأنهم يرون فيه نوعاً من التعويض لها... ولا مانع فى أن يتسامح الرجل بعض الشىء!

وإذا كان الرجل قد شغلته الحياة العامة فيجب أن ندرك أن الرجل له حياتان على الأقل. حياته العملية وحياته الخاصة... أو المكتب والبيت.. ومن النادر أن ينجح رجل فى التوفيق بين هاتين الحياتين. والطبيعى أن تطغى إحداهما على الأخرى.. أما المرأة التى لا تعمل فلها حياة واحدة: حياتها فى البيت. وإذا

نجحت حياتها فى البيت فهذه هى السعادة عند المرأة. أما السعادة عند الرجل فلها معنى آخر..

أو بعبارة أخرى لو سألنا رجلاً: كيف حالك؟ فإنه يتحدث عن حاله فى العمل. وإذا وجهنا نفس السؤال إلى المرأة لكان جوابها عن حالها مع زوجها وأولادها.. أى عن حالها فى البيت.

وتقول فرانسواز جيرو: إن المرأة تفضل أن تكون تعيسة مع رجل على أن تكون مهملة منه.. صحيح أن الإهمال يؤدى إلى التعاسة.. ولكن التعاسة التى تجىء من سوء التفاهم مع رجل، أهون من التعاسة التى تجىء من التفاهم بين رجل وامرأة على أن يهمل كل منهما الآخر..

وهناك رأى يقول: إن المرأة تبحث عن العمل لأنها تريد أن «تنشغل» عن أشياء كثيرة..

ولكن فرانسواز جيرو تستأنف هذه القضية فتقول: إنها يجب ألا تبحث عن العمل لأنها تريد أن تشغل نفسها عن هموم أخرى، ولكن لأنها يجب أن تعمل. تماماً كما أن الرجل يعمل لا لأى شىء آخر.. فالعمل ضرورة وليس تسلية.. ولا مسحاً لدموع على خد المرأة.. وليس علاجاً لمرض.. وإنما هو ضرورة حياة. أو هو الحياة نفسها!

والذين ينظرون إلى كل امرأة عاملة على أنها هاربة من البيت، يظلمون المرأة ويظلمون البيت.. فالبيت ليس شيئاً هيناً ولا تافهاً عند المرأة. والمرأة يسعدها أن تضحى بالكثير من أجل أن يكون لها بيت. أو يبقى كما تحلم به.. والرجل يرى أن بقاء

المرأة فى البيت هو صيانة للأبناء من الانحراف. هذا صحيح. ولكن الأم وحدها ليست هى البيت. وإنما الأم والأب معاً. وليس من العقل أن يقال إن المرأة هى التى تحمل وتلد وترضع وتقوم بالتربية.. أى تقوم بدور الأب ودور الأم فى وقت واحد !

حتى هذا ليس كافياً: فالمرأة عندما تكون «فى» البيت تختلف عن المرأة التى تكون الأم والزوجة. لأن البيوت فيها أمهات غائبات.. أو زوجات غائبات. ولكن المهم للطفل هو «الحضور الأبدى» للزوجة الأم.. وللزوج الأب !

وتقول فرانسواز جيرو: وإذا كان بعض فلاسفة السياسة قد وصفوا هذا العصر بأنه عصر الطفل اليتيم.. فلماذا يكون اليتم معناه اختفاء الأب فقط بل يجب أن يكون معناه اختفاء الأم أو اختفاء الأبوين معاً !

ولما سئلت الكاتبة الفرنسية فرانسواز جيرو: كيف أنها هكذا تشعر بأن المرأة مظلومة ولا يرتسم على جهها أى حزن لهذه المأساة الحقيقية! كان ردها: أكره هذا الحزن العميق على وجه المرأة. وأكره أن تحصل المرأة على حقها بالبكاء. وأكره أن تكون الدموع هى مفردات الحوار بين الرجل والمرأة. نحن مطالبات بأن نجعل للحياة لوناً وردياً.. نفس الألوان التى نستخدمها فى وجوهنا.. إننا يجب أن ننقل هذه الألوان إلى ما تحت الجلد.. وإلا كان هذا الوجه المصبوغ المرسوم إعلاناً عن بضاعة لا وجود لها.. أو كانت هذه البضاعة مجرد إعلان فقط. إنه من الممكن أن يكافح الإنسان وهو يضحك. وأن يقاتل وهو سعيد.. وأن يطلب

العدل دون أن يشكو من السلاسل فى يديه وفى عنقه. إننى أكره هذا النوع من الاحتجاج الأخرس..!

وتتساءل نساء كثيرات عن معنى اختيار كاتبة لأن تكون وزيرًا لشئون المرأة فى الوزارة الفرنسية؟ هل لأنها كاتبة؟ هل لأنها قالت كثيراً؟ هل لأنها اعترضت؟ هل لأنها احتجت؟

تقول فرنسواز جيرو نفسها: إن اختيارى إقرار رسمى بأن هناك تفرقة فى معاملة الرجال والنساء. وإلا ما كانت هناك وزارة خاصة اسمها وزارة «شئون المرأة».. ومهمة هذه الوزارة هى إلغاء التفرقة فى المعاملة بين الرجل والمرأة.. فإذا ألغيت هذه التفرقة ألغيت هذه الوزارة أيضاً – منتهى أملى !

.. ثم إن هناك قصة معروفة.. يقال إن يوليوس قيصر كان يتحدث إلى طفله الصغير ويحسده على ما هو فيه من نعمة فيقول له: أنا أحكم العالم. وأمك تحكمنى وأنت تحكم أمك. فأنت إذن.. تحكم العالم كله.. يا بختك !

تقول فرانسواز جيرو: إن هذه القصة يمكن أن تروى على نحو آخر وهو أن المرأة هى التى تحكم الرجل فى النهاية.. فهى التى تحكم ابنها.. ثم إنها وقد جلس ابنها على حجرها تحكم أى رجل.. غير أن القضية ليست من الذى يحكم الآخر.. ولكن من الذى يسعد الآخر.. فلا تزال السعادة هى أمل الجميع.. فلماذا لا نعمل أى شىء من أجل أن نجعلها أملاً ممكناً – وهو بالرجل والمرأة شىء ممكن !

# أبناؤنا في البلاد الغريبة !

لا أنسى طفلة صغيرة ركبت إلى جوارى من محطة روما إلى فيينا وفى رقبتها ورقة تناشد كل ذى قلب رحيم أن يعاون الطفلة على النوم والطعام. أما إذا أرادت أن تذهب إلى دورة المياه فألف شكر لكل سيدة تقوم بهذه المهمة. ونامت الطفلة على أكتافنا وصدورنا وقامت وعند محطة فيينا استقبلتها جدتها ببعض الحلوى وانتهت رحلة طولها عشرون ساعة لطفلة عمرها سبع سنوات !

ولا أنسى طائرة مليئة بأطفال قادمين من لندن وهابطين فى مطار سنغافورة أكبرهم عمره عشر سنوات وأصغرهم ينام بين ذراعى المضيفات والبزازة فى فمه، إنهم جميعاً تلامذة جاءوا يقضون الإجازة المدرسية مع آبائهم وأمهاتهم فى آسيا !

وليس عندنا شىء من هذا.. لماذا.. لأنهم فى «الجغرافيا» قالوا لنا: إن مصر يقع البحر الأبيض فى شمالها والبحر الأحمر فى شرقها والصحراء فى غربها والشلالات فى جنوبها. وإن مصر «محصورة» و «مزنوقة» بين هذه الموانع الطبيعية.

ولذلك فالمصريون لا يحبون الخروج من أرضهم.. وقالوا لنا.. إن مصر هبة النيل.. فالنيل هو الذى صنع وادى مصر، ونحن لا نكف عن شكر النيل على هذه الهدية، وإننا حريصون على الأرض والزرع.. ولذلك عشنا وعاش أجدادنا الفلاحون نائمين قائمين على الأرض. ولا نترك سطح الأرض إلا لبطون الأرض، نعيش عليها ونموت فيها.. فإذا تحركنا فمن المصطبة إلى المندرة إلى المقبرة.. والموت هو شاغلنا الأكبر وليست الحياة، والأهرام أعظم آثارنا وهى فى نفس الوقت أعظم مقابرنا !

ولأنهم فى التاريخ قالوا لنا: إن مصر مقبرة الغزاة. ما دخلها أجنبى إلا مات فيها. فكأنها بذلك مقبرة لمن فيها. ومقبرة لمن يعتدى عليها.. وإن مصر مفتوحة لكل الغزاة، وإن مصر يمشى إليها الناس فى اتجاه واحد: إليها فقط.. ولا أحد يخرج منها.. ولذلك ليس عندنا الناس يرحلون ويغامرون ويكتشفون.. ليس عندنا ابن بطوطة وليس عندنا ماركوبولو.. وليست عندنا قصص مثل رحلات «جيلفر» ولا مغامرات «روبنسون كروزو» وعندنا المثل الذى يقول: .. ما فى حد من الغرب يسر القلب. أى أن كل ما يجىء من غرب البلاد أو من شرقها من الأجانب يوجع القلب. فكل ما حولنا عدو لنا. الطبيعة والناس. ولذلك فالبقاء فى مصر هو أحسن من الخروج منها لأن مصر هى «أم الدنيا».. ومهما حدث لنا فيها فيجب أن نبقى فيها.. وفرق كبير بين أن نبقى فيها وأن نبقى عليها..

ولكننا نرى أن البقاء «فى مصر» هو نفس البقاء

«عليها» لأننا نرى وجودنا فى مصر.. مهما كانت الظروف هى منحة وشرف نعطيه لبلادنا.. حتى لو كان عبئاً ثقيلاً على أرضها واقتصادها !

وإذا قررنا البقاء فى بلادنا فنحن نختار العواصم فقط.. أو نختار العاصمة – القاهرة – ونحن نسمى القاهرة «مصر» مع أن مصر هى اسم الدولة كلها، وهذه التسمية صادقة.. ففى العاصمة كل خيرات بلدنا: فيها الحكومة وفيها المال وفيها المدارس، أما بقية البلاد فليس فيها شىء، ولذلك يهرب المواطنون إلى الحياة فى مصر. قريبين من الحكومة ومن دواوين الحكومة، وقريبين من الحضارة أيضاً !

ولقد ترسب فى ضمير المصريين الفلاحين أن اللّه إذا ستر إنساناً .. ستره عندما يموت.. فالستر ليس فى الحياة، ولكن فى الموت. ولذلك كانت حياة المصريين استعداداً مستمراً لموت مستور.. ومن المألوف أن يبنى القادرون من أهل الريف قبورهم وهم أحياء – أى أن هذا القادر يحرص على أن يستمتع برأى الناس فيه وهو لا يزال حياً.. فيقولون مثلاً ربنا سترها معه.. لقد جعله قادراً على أن يبنى مقبرة أنيقة !!

ولذلك هان على المصريين كل شىء إلا أن يتركوا بلادهم فى الريف.. أو مصر إلى أى بلد آخر.. وأصبح من شعاراتنا التى ننسى مناقشتها ما قاله الشاعر:

بلادى وإن جارت علىَّ عزيزة

وأهلى وإن ضنوا علىَّ كرام

والمعنى.. أن الشاعر يقول إنه مهما فعلت به بلاده من إذلال وتعذيب فهى بلاده. وهو يقبل منها الهوان ولكنه لا يقبله من أى بلد آخر.. ومهما فعل أهله به.. فإنه يقبل ما يفعله الأهل لأن هناك مثلاً آخر يقول: إن سكينة الأهل ما تدبحش.

فى حين أن الهوان هو الهوان.. والإذلال هو الإذلال، بل إن الهوان الذى يجىء من الأهل أقسى من الهوان الذى يجىء من غير الأهل. وإن الهوان فى الوطن أعنف من الهوان فى أى وطن آخر..

وإن هناك فارقاً كبيراً بين أن تكون بلادنا عزيزة علينا رغم ما نلقاه فيها من هوان وأن بلادنا هينة علينا بسبب ما نلقاه فيها من هوان ولم يكن من المألوف عندنا أن نترك بلادنا لأننا لا نعرف كيف نعيش.. وإنه ليس من الضرورى أن يلقى الإنسان فى بلده كل ما يريده.. وهناك عائلات أخرى.. فالإنسانية كلها أسرة كبيرة. وهناك شعوب عربية كثيرة هاجر أبناؤها من بلادها. وعاشوا ونجحوا فى بلاد أخرى.

ولكن لم يحدث شىء من هذا فى بلادنا..

فقد ظل المواطن المصرى يتغنى فى الماضى: يا من يرجع لى حبيبى.. هاتوا لى حبيبى.. ويقول: أهلك لتهلك.. وبلدى يا بلدى وأنا بدى أروح بلدى، والبر أمان، وفى البحر لم فتكم فى البر فُتُّونى.. إلى آخر الأغانى والأمثال التى تؤكد أن البلد – أى بلد – هو المكان الذى يعيش فيه المواطن ويموت إذا ابتعد عنه أيضا !

وهناك قصص لا تنتهى عن طلبة البعثات فى أيام محمد على. وعن الشعور بالغربة والعذاب والنقص الذى عاناه النابهون من أبناء مصر عندما سافروا إلى فرنسا وكيف خافوا من البحر..

ولكن هذه الروح المتقلصة المقفلة بدأت تنفرج وتنبسط وتنضج وتتسع لكل ما هو جديد.. ولكل ما يرد إلينا من العالم الخارجي.

وبانتشار التعليم. وانتشار المدارس والمعاهد والكليات فى أماكن مختلفة من مصر.. اتجه المواطنون إلى بلاد أخرى غير بلادهم وغير عواصمهم، وأقاموا وحدهم، وحدثت عملية زراعية معروفة اسمها «عملية الشتل» أى نقل النبات من مكان إلى مكان.. ولكنه ظل نباتاً أيضاً.

ولكن انتشار المراكز الصناعية هو الذى قام بالعامل الأكبر فى تغيير عملية الشتل الزراعية وتحويلها إلى عملية هجرة داخلية.. فحيث توجد المصانع توجد إلى جوارها المساكن والمدارس والمستشفيات والملاعب ودور اللهو.. وتوجد الإضاءة والمياه النقية والمواصلات وهى المزايا التى كانت تنفرد بها العاصمة الكبرى.. وأصبح من الممكن أن يعيش الناس فى أسوان وكفر الدوار والمحلة الكبرى وأسيوط والوادى الجديد والمنصورة كما يعيشون تماماً فى القاهرة والإسكندرية ومديرية التحرير. ولم تعد القاهرة هى عاصمة كل مصر.. وإنما هى إحدى عواصم مصر.

ولم يعد السكن مشكلة مستحيلة.. وإنما هى مشكلة لها حل، ولم يعد التليفون والتليفزيون احتكارًا لأهل القاهرة.. وإنما نصيب مشترك بين كل المواطنين.

وذهب الطلبة إلى الخارج.. وذهب العمال يتدربون فى المصانع، وأقاموا وتعلموا، وجاءوا يتحدثون ويقارنون ويحلمون بالتغيير. ويغيرون من أنفسهم ومن بيئتهم.. ويضعون

الخطوط الأولى لتغيير شامل للعقلية الزراعية التواكلية فى بلادنا، ويخططون لمجتمع قائم على العلم وحسن الإدراك وإنهاء الخزعبلات والخرافات الجغرافية والتاريخية والعقلية التى ورثناها وترسبت فى نفوسنا ولم يتسع وقتنا ولا عقلنا لمناقشتها والقضاء عليها.

وزاد عدد السكان من عشرين إلى خمسة وعشرين إلى ستة وثلاثين.. والأرض لم تزد.. وثروات الأرض لم تزد.. وصخورها لم تتحول إلى ذهب وأمطارها لم تتحول إلى فضة.. وأخرجت الجامعات مئات الألوف من المتعلمين.. القليل منهم سافر إلى البلاد العربية.. سلعة ثقافية نتقاضى ثمنها بالاسترلينى والدولار. ومضت الأمهات يلدن: مئات الألوف من المقاعد فى المدارس والأسرة فى المستشفيات والشقق والأتوبيسات وشرب الزيت والقمح والقطن والسكر.. فما الذى نفعله ؟

يجب أن نفتح الأبواب إلى الخارج.. وليست هذه بدعة.. وليس هذا إفلاساً. وليس هذا طرداً للمواطنين وإنما هى قواعد التجارة والسياسة.. يجب أن نصدر الفائض من الإنتاج إلى الخارج، ويجب أن نصدر أحسن المنتجات من المدرسين والأطباء والمهندسين والعمال. لأن هذه السلع البشرية هى دعاية أيضاً للبلد.. وهى دعاية للمصانع الثقافية التى انتجتها وللإدارة التى نظمتها، ولأنها يجب أن تعود علينا بأغلى الأسعار.. ولأن هذا التصدير هو «تفريج» عن أزمة تكدس السلع فى مصالح الحكومة وعلى سلالم الترام.. ولأن هذا التصدير يقضى بأن تتحول الدواوين إلى

مصاطب.. وأن تتحول المصانع إلى منادر.. وأن يتحول أبناء المجتمع الصناعى الاشتراكى إلى مزارعين متواكلين يائسين. وإذا عاودهم اليأس استولت عليهم الأفكار القديمة البالية وهى: إن مصر أم الدنيا.. وإن الذى لا يعمل فى مصر يموت فى أى مكان آخر.. وإن البر أمان والبحر لا أمان له.. وإن الإنسان يجب أن يكون «عجلاً فى بطن أمه»، وحتى يعبر البحر دون أن يبتل – كما تقول الفزورة الشعبية – فى حين أنه من الممكن أن يعبر البحر دون أن يبتل فى طائرة أو سفينة أو غواصة أو برقية أو مكالمة تليفونية أو برنامج إذاعى.. بل إنه فى استطاعتك الآن أن تدور حول الأرض دون أن تلمس البحر أو البر.. فالدنيا تغيرت.. وسوف تتغير، ويجب أن نلحق التغيير وإلا لحقنا التعفن.. وإلا تحولنا من بشر إلى حيوانات خائفة وإلى نباتات تولد وتموت فى مكانها !

وقد حاول كثير من المواطنين.. وخرجوا وعملوا فى بلاد أخرى.. ونجحوا، وهذا يسعدنا. ويشجعنا على أن نفتح الأبواب لمواطنين آخرين. وألا تكون أبوابنا عصبية متشنجة، تفتح على الآخر يوماً.. وتنقفل بالضبة والمفتاح يوماً. يجب أن نفتح الأبواب بوضوح ويكون انفتاح الأبواب هو الجواب على هذه الأسئلة.. هل نحن جادون فعلاً فى أن يذهب المصريون إلى الخارج ليعملوا أو ليقيموا هناك، وهل نحن مؤمنون بأن المصريين قادرون على البقاء فى بلاد أخرى وهل نصدق الذين أقاموا ونجحوا وهل نشجع الذين يريدون أن يقيموا، وهل نحن حريصون على المواطنين وهل نحن فى حاجة إلى أموالهم التى يبعثون بها لأهلهم، هل نحن فى حاجة إلى الثلاثين مليوناً.. كل الثلاثين.. كل

المئات من الألوف الذين تخرجهم الجامعات، هل من الضرورى أن تتحمل الدولة والشعب كل هذه الأعباء التى يمكنه التخلص منها !

اعتقد أن هناك أساليب عديدة لمواجهة هذه الزيادة المستمرة. بعض هذه الأساليب محلية وتتعلق بمضاعفة الإنتاج وزيادة المشاريع العملية فى الزراعة والصناعة والخدمات.. ولكن من المؤكد أن أسرع ما يمكن عمله علناً وفوراً هو أن نفتح الأبواب لمن يريد أن يعمل فى الخارج ونحسن اختيار الذين يهاجرون فى المرحلة الأولى.

فإن مهاجراً رديئاً فى إمكانه أن يسىء إلى بقية المهاجرين والمواطنين أيضاً. ولابد من تغيير قوانين العمل فى الخارج. وقوانين التعاقد على العمل وقوانين الهجرة، فبعض مواد قوانين الهجرة تدين المهاجر وتجعله أقرب إلى الهارب من مصر المتنكر لخيراتها الكافر بنعمتها. مع أن هذا المواطن ليس هارباً وإنما هو يبحث عن فرص للعمل وعن فرص لخدمة بلاده، وإنه ليس كافراً بنعمتها.. وإنما هو يريد أن يعبر لها عن امتنانه بالعملات الصعبة وأنه بذلك ييسر على بلاده أن تبنى المزيد من المصانع والمستشفيات والمدارس والشوارع، لتتمكن من إنتاج مهاجرين أنفع وأرفع – وأنا لا أنسى سيدة سورية فى الفلبين ذهبت مع زوجها يبيعان الأقمشة بين الجزر – الفلبين سبعة آلاف جزيرة – وبعد عشر سنوات أقامت لنفسها دكاناً.. وظل الزوج يلف ويدور، وبعد ذلك أقامت مصنعاً. وظل الزوج يدور.. ثم أقامت كنيسة على حسابها.. وجاءت الدولة ورصفت شارعاً وأضاءت الشارع. وارتفع سعر الأرض إلى جوار الكنيسة. وباعت الأرض بأغلى

أسعار. وأقامت مصنعاً يحتكر منتجات الصاج واستوردت السيدة السورية عمالاً وموظفين من حلب واللاذقية ودمشق، وبعد ذلك توافد مئات السوريين، وفى استراليا توجد أسرة «اسكيف»، وكان أبوهم رجلاً لا يعرف القراءة والكتابة. ولكنه هو الآخر مغامر شريف. ذهب يبيع على ظهر حصان.. وبعد سنوات أصبح الحصان سيارة. ثم أسطولاً من السيارات يركبه أبناؤه وأحفاده، وانتشرت المحلات التجارية فى سيدنى وملبورن وأصبح أبناء لبنان ثلاثين ألفاً يعيشون إلى جوار مائة ألف يونانى وربع مليون إيطالى.. ولا نهاية لقصص الكفاح والنجاح للأفراد والعائلات العربية التى هاجرت وأقامت فى أمريكا اللاتينية .

وهناك قصص نجاح متواضعة لمصريين أقاموا فى كندا وفى استراليا.. وهى متواضعة لأننا حديثو العهد بالهجرة ولأن المهاجرين أفراد معدودون سافروا سراً مغامرين مقامرين. فلا أحد يسندهم ولا أحد يشد أزرهم ولا أحد يؤكد لهم أنهم مهاجرون لا مطرودون ولا مطاردون.. وإنهم سفراء لا سفهاء.. وإنهم أبناء مصر وأحفادها، مهما غيروا السماء التى يعملون تحتها، والأرض التى يعيشون عليها، واللغة التى يتحدثون بها، والفلوس التى ينفقونها..

فليست بلادنا التى جارت علينا، وإنما نحن الذين نجور على بلادنا إذا أقمنا فيها رغم أننا قادرون على أن نعمل ونقيم ونسعد وننفع فى بلاد أخرى.. فالذى يترك أمه لا يتنكر لها، ولا يكفر بأمومتها وإنما هو يحبها أكثر ويعزها أعمق ويترجم حبه إلى مال ورجال وسمعة طيبة.

# طالب واحد يبيع «فرش أسنان» الملك خوفو؟!

.. هات يدك أعتذر لك عن كل ما نشرته الصحف المصرية، وعن الذى نشرته مجلة «آخر ساعة» التى أرأس تحريرها.. فقد كان من الواجب علينا ألا نقول: الطلبة المصريون ارتكبوا كذا.. وإنما أن نقول «بعض» الطلبة المصريين فى «بعض» البلاد الأوروبية «بعض» الوقت!..

ولم يكن هذا شخصاً واحداً وإنما «بعض» الطلبة الذين قابلتهم. لأننى - وأننا جميعاً - أحرص على أن يذهب عشرات الألوف إلى الخارج كل سنة.. وأن يتفسحوا وأن يعملوا وأن يتعلموا وأن يكسبوا وأن يهاجروا - إذا أرادوا - فالدنيا واسعة، ويجب أن نجعلها واسعة. ومصر لم تعد كما كان يقال لنا أم الدنيا، وإن العالم كله ليس إلا قرى صغيرة. صحيح نحن «أم الدنيا» - أم الحضارة.. ولكننا الآن نحاول أن نكون «فى» الدنيا.. وهذا لن يتحقق إلا إذا فتحنا عقولنا وفتحنا قلوبنا.. وفتحنا حدودنا وجماركنا.. وخرجنا من جلدنا لنرى ونقارن ونتعلم ونجئ إلى مصر نعلم الأجيال القادمة !

وفى كل نهضة لأى بلد، بدأت بأن خرج أهلها إلى بلاد أخرى.. فعل ذلك محمد على باشا فى مصر الحديثة وأوقع وأمتع الصور التى عرفناها: قصة رفاعة رافع الطهطاوى وزملائه. وكيف أن حياة هؤلاء الطلاب كانت مفيدة جداً. فقد جاءوا من مصر إلى باريس.. جاءوا من القيود والسدود إلى ينبوع الحرية والعلم والنور جاءوا من الترعة إلى المحيط !

ولا يزال هذا الخوف القديم قائماً فكل أب يخاف على ابنه إن ذهب إلى بعيد.. إن سافر أو كان ضمن بعثة يتعلم. ولذلك تولت الدولة الإشراف على طلبة البعثات حماية لهم وحماية لمصر. ولكن الطلبة الذين يسافرون بلا إشراف من أحد، وبعيداً عن عيون وآذان الأم والأب شىء مخيف للجميع !

ومنذ سنوات اكتشف أحد أساتذة جامعة الإسكندرية مخطوطة عمرها عشرون قرناً. المخطوطة تقول إن الأب جاء من مدينة دمنهور ليرى ابنه فى الإسكندرية. وقد كانت صدمة الرجل فظيعة عندما علم من السيدة التى يسكن عندها الابن أنه يبدد أمواله فى ركوب الخيل والحمير.. أى أنه لا يذاكر بدرجة كافية !

ولم تضف المخطوطة إلى ذلك شيئاً فنحن نعرف بقية القصة. فلابد أن الأب قد حزن وأن الأم أشد حزناً. ولابد أنه انهال على ابنه ضرباً. ولابد من أنه ركع أمام صاحبة البيت أن تقفل عليه الباب بالمفتاح.. إلخ !

أما الآن فالدنيا تغيرت كثيراً وسوف تتغير أكثر. فالطلبة يسافرون من أول مصر إلى آخرها. ويسكنون وحدهم. ويعملون

فـى أوقــات فـراغـهـم أو يـحـاولـون. ونـحـن جـمـيـعـاً سـعـداء بـأنـهـم يسافرون إلى الخـارج يتفرجون ويعملون ويكسبون.. وحدهم مع حـريتهم. وحـدهـم مع الدنيـا الواسـعـة التى لا يـهـمـهـا كـثـيراً إن أطلق أى إنسـان شاربـه أو لحيته أو نـام على الرصـيف أو نـام واقفاً أو مسح البلاط، أو مسحوا به البلاط.. مادام لا يضر أحداً من النـاس.. مـادام لا يمس حرية أحد.. ولا يهم من يكون هو ولا من يكون أبوه.. إنهم يقرءون فى لندن أن رئيس الوزراء أبوه نجار وأن مـعـظـم أعضـاء مجلس العموم البريطـانـى كـانـوا يمسحـون البلاط ويغسلون الأطباق ويدرسون فى الجامعات !

وكما يحدث فى الشوارع المزدحمة أن يصطدم المشاة والسيارات.. لابد أن يصطدم طالب بشخص أو بقانون..لابد.. أنها تجارب جديدة عليهم. وهم يتعلمون بالصواب والخطأ – وهذا طبيعى!

وعندما كنت فى مدينة فرانكفورت بألمانيا وجدت البوليس قد اعتقل أحد الطلبة بتهمة النصب والاحتيال. فالطالب يبيع «تحفاً» فرعونية قديمة مزورة. والحكاية أنه طالب أحضر معه مـن مصـر بـعـض مصـنـوعـات خـان الخـلـيـلـى ومـن بين هـذه المصنوعات «مشط». باعه لإحدى الفتيات على أنه أثرى. وقال لها: لن أقبض ثمنه اليوم.. أعرضيه على بعض الخبراء وتعالى غداً. وعادت الفتاة لتقول له: لم يتحقق من ذلك أحد. وقال: إنه يخشى أن يعرضه على الخبراء..

واشترته الفتاة. وألقى البوليس القبض على الشاب لأنه ادعى أن هذا المشط – وعشرين مشطاً أخرى – من مخلفات الملك خوفو!

إنها مجرد نكتة لجأ إليها طالب للخروج من مأزق ! وهذا الطالب يعمل الآن مديراً مساعداً لأحد فنادق فرانكفورت !

وظهر بعد ذلك طلبة يبيعون فرش أسنان وأدوات حلاقة الملك خفرع.. إلخ.

وفى لندن سمعت من السفارة المصرية أن طالباً فى طب القاهرة يسكن عند سيدة معجبة به. ومن ضمن الأكاذيب التى أسعدت صاحبة البيت أن الطالب كان يقول لها: ياسلام أنت تشبهين والدتى التى ماتت أثناء العبور! وكان هذا الطالب يداعبها كثيراً. ويأتى لها بالورد فى كل يوم أحد. وهى سعيدة به جداً.. لولا أنه كثير الصخب. لأن زواره كثيرون. وكلهم من المصريين الذين يفكرون بصوت مرتفع !

وفى يوم استدعاه البوليس ليقول له إن غرفته ليست نظيفة وأنه يزعج السكان الآخرين.. وتقدمت صاحبة البيت تقول: بل أكثر من ذلك إننى وجدت فى شنطته صرصاراً !

وصرخ الطالب المصرى: فى شنطتى! معنى ذلك أنك فتحت شنطتى دون إذن منى؟.. هذه جريمة لا يمكن السكوت عنها.. وأخطر من ذلك أن الصرصار الذى وجدته فى شنطتى قد أحضرته أنا من مصر فأنا طالب طب كما تعلمين.. جئت به لكى أقوم بتشريحه هنا.. وهذا صرصار من سلالة مصرية نادرة!

واعتذرت السيدة واعتذر السكان. وظل الطالب يؤكد أن الصرصار فرعونى وأن هذه خسارة فادحة !

وسأله بعض موظفى السفارة إن كان «الصرصار» فرعونياً

واعترف بـأنـه صـرصـار صـعـيدى مصـرى ثم قـال: مـا الـذى تتوقعون أن تجدوه فى شنطة مواطن مصرى من مدينة البلينة ؟

هذا الطالب يعمل الآن مديراً لواحد من مطاعم لندن. وفى العام القادم سوف يعود إلى نفس المكان لأنه نموذج للنظام والإخلاص والاحترام !

ونوادر كثيرة فى كل عاصمة.. ولكن ألوف الشبان قادمون – ويجب أن يفعلوا ذلك وأن نشجعهم !

فى لندن تغديت فى مطعم «السريانتين» أو المطعم الثعبانى على بحيرة فى حديقة هايد بارك.. كل من يعمل من الطباخ حتى الفتاة التى تحاسبك مصريون. طلبة فى الطب والهندسة والألسن ومعهد الفنادق. وهم راضون عن عملهم. وأصحاب العمل راضون عن عملهم. ونحن سعداء بهم. وعرفت من إحداهن أن مرتبها الشهرى مائتا جنيه فيما عدا البقشيش. أما الذى سوف تنفق فيه أموالها فليس سراً: ملابس لها ولأخوتها وبعض الأدوات المنزلية!

وقد قال لى السيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء إن أحد الطلبة قد أخبره بأنه إذا لم يسافر إلى أوروبا هذا العام، فإن والديه وأخوته لن يجدوا ملابس الشتاء !

ومثله كثيرون يتحملون أعباء الحياة فى رجولة وشرف !

قابلت اثنين من الأطباء سوف يتزوجان عند عودتهما من لندن.. ولكن ما الذى يعملانه. فالطبيب يقول: أنا واحد من الذين يدوخون الإنجليز هنا. وسألته: كيف؟ قال : إننى أعمل بارمان!

أما خطيبته فهى تعمل فى استعلامات أحد الفنادق !

ولا يوجد فندق كبير فى لندن ليس به طالب مصرى يعمل في الاستعلامات أو فى المطبخ أو فى المحاسبة.. كما أننى وجدت بيوتًا كاملة يديرها مصريون من عاملة التليفون حتى مدير الفندق.. مثلاً فندق «بالاس كورت» وهو من أهم المعالم المصرية فى لندن. صاحب الفندق باكستانى. مدير الفندق مصرى كان موظفاً كبيراً فى وزارة الشئون الاجتماعية.. وبقية الموظفين من عاملة التليفون إلى الفتيات اللواتى ينظفن الغرف: مصريات. وقد نزلت فى هذا الفندق. ووجدت سفراء ووكلاء وزارات وأساتذة فى الجامعة.. وهناك بيوت أخرى كثيرة !

مثلاً مطعم «العم سام» يعمل فيه عدد من المصريين. واحد منهم هو الطاهى. وهو طالب فى كلية التجارة سألته: أين تعلم الطبخ ؟ قال: لم أكن أعرف ذلك فى حياتى. ولكننى تعلمت. وبعض الزبائن تجىء إلى حيث أعمل ويطلب منى العناية الخاصة به. فأنا طباخ ماهر.

وسألته: إن كان سيعود إلى لندن.

أجاب: سوف أعود.. ولكن لأعمل شيئاً آخر.

– أريد أن يكون عالمى متنوعاً، لأكتسب المزيد من الخبرات.. وحتى لا أشعر بالملل.

– ولماذا ؟

– وفى مصر ما الذى تنوى أن تعمله؟

– أن يكون لى مشروع تجارى أو ...

– ماذا ؟

- أو أعود إلى هنا بعض الوقت حتى أتمكن من أن يكون لى بيت وسيارة وعروسة.. مصرية طبعاً!

وفى مناقشة مع عشرين طالباً من جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس قالوا:

- ما هو الخوف من وجودنا هنا؟

- ربما الفضيحة !

- هل كل ما نفعله فاضح؟

- لا.

- ألا تحدث جرائم فى مصر وتنشرها الصحف المصرية على أوسع نطاق. ولا يقال إن الشعب المصرى من أوله لآخره مجرم. ألا تحدث فى نفس البلاد التى تعمل فيها جرائم من المواطنين وتنشرها الصحف؟ ومع ذلك لا يخجل المواطنون من أن بينهم مجرمين وسفاحين! إذن نحن نبالغ كثيراً فى كل ما يقال عنا.. أنتم تعرفون – إن كنتم قد نسيتم – أننا نبالغ فى كل شىء.. فإذا صرخ طالب لأن مسماراً دخل فى جزمته، قلنا إنها صناعة الأحذية المصرية.. إنها الجاذبية العجيبة بين المسمار الأوروبى والجوارب المصرية.. يجب أن نوقف صناعة الأحذية.. أو نتوسع فى إنتاج الزنوبة.. أو لا داعى لأن يسافر الطلبة.. أو إذا سافروا ألا تكون لهم أقدام.. نحن هكذا عموماً.. لا بالنسبة للطلبة ولكن بالنسبة للطلبة الذين لم يسافروا.. ولصناعة الأحذية.

- والحل ؟

- أنتم الحل الوحيد.. المستقبل لكم.. أنتم تتعلمون وبعد ذلك تعلمون الأجيال القادمة.. فبعد أن سافر رفاعة الطهطاوى إلى

باريس وعاد، ظلت الأمهات يبكين إذا سافر أبناؤهن من القاهرة إلى طنطا ومن طنطا إلى طلخا ومن طلخا إلى زفتى.. لماذا؟ لأن الأم تخاف على ابنها من الطريق ومن «الغربة» وتندب حظها وحظه وظلت الأمهات عشرات السنين.. والآن تغيرت الأمهات والأبناء.. وسوف يتغيرن إلى ما هو أفضل.. وهذه رسالتكم.

- ساعدونا.
- لا أحد يقف بينكم وبين الطائرات والبواخر..
- هذا الخوف المبالغ فيه !
- إنها قلوب الأمهات والآباء .
- غيروها ..
- أنتم الذين تغيرونها بالسلوك المحترم والعمل الشريف..
- ما الذى تراه ؟
- الذى أراه أعجبنى.. واسترحت إليه..
- هل تؤدى لنا خدمة ؟
- يسعدنى ذلك .
- أن تحمل هذه الرسائل إلى أهلينا .
- أفعل .
- وشىء آخر !
- لا أتردد.
- أن تكتب ذلك عنا..

أرجو أن أكون قد قلت ما يرضى الأبناء ويريح الآباء ويشجع الألوف على العمل والمتعة والكسب فى أى مكان من هذا العالم. فمصر، بأبنائها، أكبر وأوسع من حدودها الصحراوية!

# كلمة واحدة غيرت الدنيا.. ممكن؟!

لو عرف الذين يكتبون أين تقع كلماتهم من نفوس الناس، لارتجفت الأقلام فى أيديهم وترددوا كثيراً قبل أن يقولوا شيئاً. ولكن هذا لا يحدث إلا قليلاً.. عندما تواجهنا الحقيقة فجأة: فنعرف أن كلماتنا كانت أحجاراً سقطت على ماء ساكن فهزته ثم سكن كل شيء.. أو كانت بذوراً استقرت فى أرض واسعة مسطحة كأنها أكف متعطشة تنتظر.. أو كانت سموماً جاءت بعدها النهاية.

ومنذ يومين فزعت من نفسي. فقد قابلت شاباً قدم لنفسه قائلاً: إنها كلمات إهداء بقلمك غيرت مجرى حياتى.

ونظرت إلى وجهه.. وإلى بشرته الناعمة. وعينيه اللامعتين. وملابسه المهندمة. وإلى أصابع يديه.. هناك دبلة من ذهب وأخرى من فضة. إنه ناجح سعيد..

وقلت له وأنا أتوقع كلاماً كثيراً يضاعف سعادتي، ويضيف رصيداً لحسابى عنده. قلت له: مبسوط ؟

قال: مبسوط..

– ولكنك تقولها وكأنك لا تعنيها .

– فعلاً. فلم تكن عندى أية اهتمامات أدبية. وإنما كنت أريد أن أكون طبيباً.. وعندما قدمت لك مجموعة من قصصى، شجعتنى على الاستمرار، وتمنيت لى مستقبلاً أدبياً..

وعدت أنظر إليه مرة أخرى، فوجدت الحزن عميقاً فى عينيه.. بل وجدت أن الحزن ملء عينيه. وندمت على أننى قلت وأسرفت فى التمنى له. ولم أكن إلا مجاملاً ومشجعاً.

ولم أتصور – لحظة واحدة – أن كلماتى قضاء وقدر !

وتذكرت أنا أيضاً عندما عرضت قصيدة من نظمى على أستاذ اللغة العربية فى مدرسة المنصورة الثانوية ووجدت أنه يقلب فى أبياتها ويستعيدها ويزنها فى أذنيه.. وازداد احمرار وجهى وخجلى وقبل أن يسألنى قلت له: إن هذه القصيدة قد نظمها أخى الأصغر..

وكأننى أعتذر عنها. مع أننى لم أسمع رأيه فيها.. وهز الرجل رأسه وقال: فعلاً. كلام موزون ولكنه ليس شعراً.. قل لأخيك يلعب فى الحارة أحسن !

ومن يومها وأنا لم أنظم قصيدة واحدة !

ولما عرضت هذه القصيدة على الأستاذ عباس العقاد قال عبارة لم أنسها: هذا شعر شاب صغير.. يرى ولكنه لا يستطيع أن يلمس ما يراه.. ولكن سوف تصبح ذراعاه قادرتين على اللمس والوصف والغناء !

ولكن جاءت هذا العبارة بعد أن أحيلت أوراقى كلها إلى المفتى وحكم بالإعدام.. أما عبارات العقاد فكانت باقة من الورد على قبر الشاعر الشهيد.. أو جاءت وساماً على مدفع يمشى فى مقدمة جنازة أحد المقاتلين فى غابة الأدب !

ومرة أخرى نشرت مقالاً عن «معنى الفن عند تولستوى» فى جريدة الأساس سنة ١٩٤٨، وفوجئت فى ندوة الأستاذ العقاد بأنه اتجه ناحيتى يقول: قرأت مقالك. وأعجبنى أسلوبك !

وتحيرت بين السعادة والحزن: هل كل الذى أعجب الأستاذ العقاد هو أسلوبى! ألم تعجبه الفكرة؟ ألم يعجبه تناولى لمعنى الفن عند الأديب الروسى العظيم؟.. وفى نفس الوقت أسعدنى العقاد عندما قرأ لى، وأسعدنى أكثر عندما قال ذلك أمام زملائى من الأدباء الشبان.. ولكن ضايقنى أن يكون إعجاب الأستاذ بأسلوبى فقط!

وعدت إلى البيت أقرأ المقال مرة أخرى. ولاحظت أن عباراتى كانت ضخمة، وأن تراكيبى كانت فخمة. وأن حفاوتى بالكلمات الطنانة الرنانة كانت أكثر من أى شىء آخر. فهل هذا هو الذى أعجب الأستاذ العقاد ؟

إن العقاد نفسه له أسلوب صعب وليس من السهل على كثيرين أن يدركوه. وإذا أدركوه أن يعجبوا به..

وأذكر أننى توقفت عن الكتابة تماماً. وقررت أن أكتب بطريقة مختلفة. وأن تكون عباراتى أسهل. ومفرداتى أقل. وموسيقى مقالاتى أهدأ. وأن تكون أفكارى على وجه الألفاظ.. أو قريبة من أصابع الناس. وأن تكون ألفاظى فساتين قصيرة شفافة.. على

قدر المعنى. وأن تكون «محزقة» أو ملتصقة.. فلا يتعب القارئ فى أن يفهم. ولا يحتاج إلى ثقافة كبيرة لكى يدرك ما أقول..

وظللت أكتب نفس المقال فى البيت مائة مرة. ولا أزال احتفظ بالصورة المائة لهذه المقالة. ثم نشرت المقالة من جديد وباسم آخر. ولم أشأ أن أسأل الأستاذ العقاد.. فقد قررت أن أكون مختلفاً. لأننى مختلف ولأن السهولة من طبعى. والبساطة فى خلقى. والوضوح طريقى وأملى. ولم يدرك الأستاذ العقاد أين وقعت كلماته الطيبة من أعماقى! لقد زلزلتها.. وحمدت الله أنها لم تحطمنى أو لم تصنع منى صورة منه هو أو من أى أحد !

وحدث أيضاً عندما ذهب الأديبان العظيمان ماكسيم جوركيوتشيخوف لمقابلة الأديب الأكبر تولستوى. اتفق الاثنان على الموضوعات التى سيناقشانه فيها.

ولقياه ساعات.. وخرجا. وأمام قصر تولستوى وقف الرجلان يتساءلان: هل صحيح ما قاله ؟

فأجاب جوركى: إنه أكبر مما تصورت.

قال تشيخوف: وأكثر إنسانية.. ولكنه..

فعاجله جوركى: لا تحاول أن تفسد هذه المعانى الجميلة التى استقرت فى نفسى.. دعنى سعيداً حتى الغد .

واعتذر تشيخوف: لن أفسد عليك شيئاً. وإنما أريد فقط أن أعلق على كلمة واحدة.

قال جوركى: أعرفها. دعنا إلى الغد.

والتقيا فى اليوم التالى.. قال جوركى: أعرف الذى أوجعك منه وأوجعنى. عندما سألتنا: هل من الضرورى أن يكون الطريق إلى الأمل يمر بكل مستنقعات اليأس وحشرات الهوان وجفاف الجوع.. ألا تريان أن ضوء النهار يهدى إلى الشمس.. شمس اليوم وشمس الغد.. لماذا أنتما يائسان هكذا؟؟ أليست هذه هى العبارة الأخيرة !

وكانت هذه العبارة الأخيرة هى التى أوجعت الأديبين الشابين. لقد نبههما تولستوى إلى ضرورة التغلب على اليأس. وأن يتعاونا على إخراج الشمس والعمل فى أكثر ثورية !

وكانت هذه العبارة مصباحاً هادياً، وسلماً امتد أمامهما لكى يتسلقاه إلى ما هو أرفع وأشمل وأكثر ثورية !

وعندما ذهب الفيلسوف الألمانى شوبنهور إلى أمير الشعراء فى عصره: جيته. قدم له عملاً فلسفياً. وطلب إليه أن يبدى رأيه. وفى اليوم التالى عاد الشاعر يقول له: قرأت كتابك.

– فكيف وجدته ؟

– أعجبنى لولا..

– لولا ماذا ؟

– لولا أن شيئاً مهماً ينقصك ؟

– كل إنسان ينقصه شىء مهم.

– أنت بالذات ينقصك أهم شىء فى حياتك كلها.

– إذا كان هذا رأى أمى أيضاً. فلا أريد أن أسمعه. إنها سيدة تافهة تحقد علىَّ.. لن تكون لها فى هذه الدنيا أية قيمة. ولن

يعرفها أحد إلا على أنها أمى.. هى أمى، ولكن لن يقول أحد إننى ابنها !

ولم يشأ أن يكمل الشاعر الكبير جملته. فقد تركه الفيلسوف الصغير.. واختفى غاضباً.

فقد كان لأمه صالون أدبى.. وكانت تدعو له كل الشعراء والموسيقيين والفلاسفة. وكانت لا تؤمن بعبقرية ابنها ولذلك خشى الفيلسوف أن يكون أمير الشعراء قد تأثر برأى أمه فيه..

أما الذى قاله أمير الشعراء جيته لرواد الصالون الأدبى فهو: هذا الشاب فيلسوف ما فى ذلك شك. ولكن ينقصه هذا المعنى: إذا أردت أن يكون لأى شىء فى هذه الدنيا معنى، فاجعل لنفسك معنى !

فالفيلسوف شوبنهور متشائم، ورأيه فى الدنيا أنها لا شىء، ولا تساوى ما يعانيه الإنسان. والحياة تخدع الإنسان لكى تعيش. وتسخره عن طريق الجنس لكى يكون له أولاد وهؤلاء الأولاد هم امتداد له. ولكن هؤلاء الأولاد هم عذاب الدنيا ومرارة الحياة. ولكن الحياة إذا أرادت أن تستمر خدعت الإنسان باسم الحب. والحب ليس إلا الجنس. والجنس ليس إلا حيوانية الإنسان. فكأن الإنسان لابد أن يكون حيواناً لكى تكون هناك حياة.. فهو لعبة الحياة باسم الحب والزواج.. فالإنسان لا قيمة له. وكذلك هذه الحياة.. وهذه الدنيا !

بعد ذلك بسنوات قال جيته: ارتكبت غلطة شنيعة. فلو قلت لهذا الفيلسوف رأيى فى مكان آخر، لتغيرت نظرته إلى الدنيا.. ولكن ليست كلماتى هى التى أوجعته، وإنما المكان الذى قلتها فيه !

إنها الكلمة أو الكلمات..

والتوراة تبدأ بهذه الآية: فى البدء كانت الكلمة. وكانت الكلمة هى اللّه..

والقرآن يقول: إذا ﴿أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ !

وفى التاريخ الطويل للسحر عند الإنسان.. نجد الساحر يستخدم كلمات معينة.. هذه الكلمات لها قوة الأشياء المادية.. لها قوة الحديد والنار.

وفى عالم الحب، وهو أيضاً عالم السحر.. فكل ما فى الحب يبدأ بالكلمات وينتهى بها.. مثلاً وأولاً وآخراً كلمة: الحب.. كيف يقولها المحبون. ومتى. وكيف يقولون أى شىء إلا هذه الكلمة. وكيف يحرصون على أن يقولوها بسرعة، وكيف يترددون فى نطقها، خوفاً عليها، وخوفاً منها على أنفسهم.. وخوفاً من أنها إذا قيلت نقص وزنها وطولها وعرضها.. وكيف يجعلونها خاتمة كل شىء.. مع أنها كلمة صغيرة. ولكنها قوة كلمة: كن.. أو عظمة عبارة: كن فيكون !

وأذكر قصة جميلة للكاتب الإيطالى البرتو مورافيا اسمها «أحر حرف».. القصة عن واحد من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم.. وهذا الرجل يحب الأسماء ذات الدلالة الجميلة الخيرة.. ولذلك اختار زوجة اسمها: طيبة.. وجعل أسماء أولاده هكذا: نور وكنز ومحبة وسلام.. أما اسمه هو فهو «شرس». وربما كان ذلك هو السر فى أن يختار أسماء أحسن من اسمه. أو أن يرى الناس فى اختياره للأسماء الأخرى نوعاً من الاعتذار عن اسمه القبيح..

أو لعله يريد أن يقول أنه خير من أبويه اللذين اختارا له هذا الاسم الذى يختلف تماماً عن طبيعته وخلقه فى إحدى المرات رأى أن يتخذ قراراً مهماً.. ولكنه لم يجد أحداً يناقشه. فهو فى كل مرة يتجه إلى أحد الأصدقاء يجد شيئاً يضايقه، كأن يكون اسم الشارع الذى يسكن فيه يبعث على التشاؤم.. أو اسم الكلب أو أحد الأولاد.. ولم يجد أحداً تنطبق عليه هذه المواصفات المتفائلة التى يريدها.. وأمسك دفتر التليفون وقرر أن يضع يده على عشرة أسماء وأن يختار الحرف الأول من كل اسم. ويكون من هذه الحروف كلمة أو عبارة، ويستوحى من هذه العبارة القرار الذى يريد: هل يترك عمله أو لا يتركه.

ولم يسعفه دفتر التليفون.. فذهب إلى ملاعب سباق الخيل. واختار الحروف الأولى من أسماء الخيل.. ولم تفلح هذه الحيلة.. وعاد إلى البيت فى حالة ضيق شديد.. وقبل أن يدخل البيت، رآه أحد أصدقائه ضاحكاً.. فسأله الرجل عن الذى يضحكه، فقال: لأنك ارتديت البالطو بالمقلوب.. صحيح أن لهذا البالطو وجهين.. ولكن الوجه الآخر هو الذى يناسب هذا الفصل من السنة.. أقلب البالطو !

ونبهته هذه الكلمات إلى شىء يبحث عنه.. وخبطته هذه العبارة فى رأسه فبدلاً من أن يقلب البالطو قلب الحروف التى جمعها من أسماء الخيل.. فوجد أمامه كلمة تشجعه على اتخاذ قراره.. واكتشف فجأة أن اسمه هو إذا انقلب كان معناه دليلاً على الخير، ولم يكن قد تنبه إلى ذلك من قبل.. لقد تغير كل شىء..

وانـهـارت مـخـاوفـه ومـتـاعـبـه فـجـأة وأشرقت دنـيـاه.. وتـغـير لـون الحياة وطعمها:

إن كلمة قد صنعت له ومنه شيئاً جديداً سعيداً !

ومن عجائب عادات الحيوان ما يفعله الثعلب إذا امتلأ جسمه بالبراغيث.. فهو لا يعرف كيف يتخلص منها.. ولكن الغريزة تهديه إلى حيلة بارعة.. فالثعلب ينطلق فى الحقول يجمع بقايا القطن أو القش.. ثم يلفها بلسانه حتى يجعل منها كرة صغيرة يضعها فى فمه.. ثم يذهب إلى إحدى الترع.. ويهبط إلى الماء بذيله تدريجاً..

# لا أنت عجينة ولا بجر يا أىّ إنسان!

القاهرة مدينة مليئة بالضوضاء.. ولا أعرف إن كانت الضوضاء هى التى جعلت الناس عصبيين يصرخون طوال الوقت.. أو أن الناس عصبيون وهم لذلك لا يرفعون أيديهم عن أجهزة التنبيه والراديو ولعب الطاولة.. ثم إن الناس فى حالة دوخة مستمرة ولذلك ينبهون بعضهم البعض بالزعيق والعنف.. أو ينبهون أنفسهم بالقهوة والشاى أو يتقلبون فى دخان السجائر.

فما الذى يمكن عمله من أجل أن يكون الناس أقل عصبية والقاهرة أقل ضوضاء!

رأى يقول: قل للناس يتكلموا بصوت منخفض.

ورأى يقول: بل يجب أن تلغى أجهزة التنبيه.

ورأى يقول: أسهل من هذا كله أن تسد أفواه الناس..

ورأى يقول: غرامة مؤكدة لكل من يرفع صوت سيارته أو صوت الراديو..

ولا عقوبة على من يكسر أى راديو أو ميكروفون قد ارتفع بشهادة الشهود، وأزعج الآخرين !

إنها مشكلة أكبر من ذلك: إنها مشكلة كيف يمكن أن يتغير الإنسان. كيف يمكن تغيير «الطبيعة الإنسانية».. هل يمكن تغييرها بالأمر. بالتخويف. بالعقاب. بالذوق. بالعنف؟ إن هناك عناداً إنسانياً ضد الأوامر والنواهى.. حتى لو كانت هذه الأوامر نافعة للإنسان.. إنه يقاوم من يفرض عليه العلاج، ويلقى فوقه بالسعادة، ويحبسه فى الجنة !

مثلاً: ماذا حدث عندما أصدر كل الأطباء فى العالم أن السجائر هى السبب الأول لمرض السرطان! ماذا حدث عندما أعلنت شركات السجائر ذلك؟ انخفض عدد السجائر التى يستهلكها الفرد.. ولكن صناعة السجائر ازدادت رواجاً. وغيرت كل الشركات فى ألوان وأحجام وطعم سجائرها. وازداد إقبال الناس على ذلك.. ثم تركت شركات السجائر تلوين العلب واتجهت إلى تطوير صناعة الولاعات.. ومعظم شركات السجائر هى صاحبة شركات الولاعات الأنيقة الذهبية والإلكترونية. إن شركات السجائر قد عدلت تماماً عن إقناع المدخن بأن يتوقف عن التدخين، وإنما اتجهت إلى مغريات أخرى.. ومن بين هذه المغريات أن تعاونت مع شركات السينما على ظهور النجوم وهم يدخنون فى أجمل المواقف أو فى أقساها.

فتغيير الإنسان صعب، ولكن تغيير الظروف حوله أسهل.. ويؤدى إلى نفس النتيجة. ولكن وزارات الصحة فى العالم ليست عندها هذه القدرة الهائلة على الإغراء !

مثلاً: فى الحدائق العامة نجد لافتات تقول: ممنوع قطف الزهر.. أو .. دعنا نعيش كما تعيش.. اللهً خلق الدنيا جميلة، فلا تجعلها قبيحة... إلخ

والناس يختلفون أمام الزهور.. هل نعلق مثل هذه اللافتات حتى لا يقطف الناس الزهور.. هل نبنى حولها أسواراً من الأسلاك الشائكة.. هل لا داعى للزهور.. هل لابد من الزهور ثم نقطع أيدى الناس.

بعض الناس يرى أن خير وسيلة لمنع الناس من قطف الزهور أن يقف إنسان عند مدخل الحديقة ويعطى كل إنسان زهرة.. فإذا أخذها، فإنه لا يحتاج لأن يقطفها بعد ذلك.. ومعنى هذا الأسلوب هو: أنك لا تستطيع أن تمنع أحداً من قطف الزهور.. فالإنسان بطبعه طويل اليد طويل اللسان، يحلو له أن يدوس القانون.. وهذه الزهرة هى رشوة له حتى لا يفعل ذلك.. أو هى طريقة مهذبة لإحراجه، فما دام قد أعطى زهرة، فلماذا يخطف واحدة أخرى !

وأنت لا تستطيع إن جاءك زائر أن تقلق وتضطرب لكى يقوم ويتركك لعملك.. أو لا داعى لأن تلم أوراقك وتوهمه بأنك سوف تخرج.. وإنما هناك حيل أخرى.. من بين هذه الحيل أن تجعل المقاعد فى غرفتك محدودة جداً.. مقعد واحد يكفى.. أو تجعل هذه المقاعد غير مريحة.. أو تجعلها فى مواجهة الضوء.. أو تنظر فى ساعتك من حين إلى حين.. أو تبدأ لقاءه بالاعتذار عن البقاء معه بضع دقائق.. المهم هو أنك لا تقول له: إنك مشغول عنه. وإنما

تعمل كل ما يجعل بقاءه غير مريح.. فأنت لا تغيره هو، وإنما تغير كل الظروف حوله..!

وحوادث السيارات قد حار العلماء في توجيه أصحاب السيارات والسائقين.. وطلبوا إليهم أن يتحركوا برفق. أو لا يقودوا سياراتهم وهم تحت تأثير الخمر أو المخدرات.. ولكن النتيجة لم تكن طيبة.. تماماً كتخويف الناس من السجائر. ولكن لجأ المهندسون إلى وضع أحزمة الأمان حول رقبة السائق.. أو استخدام الكشف الكيميائي على أنفاس السائق عند الحادث.. أو وضع العوائق في الشوارع حتى لا يسرع السائق.. كل ذلك أدى إلى خفض الحوادث بنسبة كبيرة ..

عندما حدثت أزمة السكر في بريطانيا ونشرت الصحف أن هناك نقصاً هائلاً. وطلبت إلى الشعب ألا يأخذ أكثر من نصف كيلو للفرد.. ذهب الناس وحصل كل إنسان على نصف كيلو لا أكثر.. ولم يحدث أن شكا أحد من نقص السكر. ولكن لو قالت الدولة أن هناك أزمة سكر فلا داعي لشرب الشاي يومين أو ثلاثة لهجم الناس على المحلات واشترى كل واحد أكثر من نصف كيلو.

وفي نفس الوقت كانت المقاهي في لندن تضع للناس مع كل فنجان شاي ثلاث قطع من السكر. فكان الناس يضعون قطعة في الفنجان، وقطعتين في جيوبهم.. ولذلك لجأت المحلات إلى أسلوب آخر.. فكانت تترك للناس أن يأخذوا حاجتهم من السكر دون تحديد.. ولاحظت أن كل واحد يأخذ قطعة واحدة فقط.. وأكثرهم لا يضع السكر في الشاي مراعاة للظروف العامة!

وعندما انقطع التيار الكهربائى عن مدينة نيويورك منذ سنوات. لجأت الحكومة بسرعة إلى تحويل الكهرباء إلى نيويورك من ولاية أخرى.. ثم خفضت قوة الإضاءة فى الشوارع.. فلاحظت أن الناس كانوا يتركون المصابيح مضاءة.. وكثيراً ما ينسونها. ولكن عندما أعادت مدينة نيويورك الأضواء كاملة طلبت إلى الناس أن يخفضوا الإضاءة بشكل آخر. فعلقت لافتات فى كل مكان: اقتصد كيلو وات كل يوم.. فكان الناس يمدون أيديهم إلى المصابيح حتى يسود الظلام قبل أن ينزلوا من بيوتهم !.

أتذكر ونحن أطفال كانت تمر علينا فى ريف المنصورة سيارات لشركة باير للأدوية. وكانت هذه السيارات تعرض علينا أفلاماً.. وكان لهذه السيارات طريقة مبتكرة.. فهى تذيع الأغانى من ميكروفونات عالية جداً. وكان ذلك شيئاً عجيباً فى ذلك الوقت. ونلتف نحن الأطفال والكبار حول السيارة.. وتقف السيارة إلى جوار جدار. وفجأة ترى أفلاماً على الحائط وأشياء تتحرك وأناساً يعطسون ويرشحون ويتوجعون لأنهم مصابون بالزكام. والسيارة جاءت تدعو للأسبيرين الذى توزعه مجاناً على الناس.

ولم يكن أحد يقترب من هذه السيارة أو يلمس جسمها الأبيض اللامع.. فلا يكاد الإنسان يقترب منها بأصبعه حتى يصاب برعشة شديدة.. وكان الأطفال يخافون من هذه السيارة «المكهربة». ولذلك كان من المناظر الغريبة أن تجد الأطفال قد

تزاحموا حول الشاشة وتضاربوا فى كل اتجاه.. إلا السيارة فقد كانوا يبتعدون عنها، دون أن يحذرنا أحد من ذلك !

وعالم المرأة.. ربما كان هذا هو العالم المليان بالمتناقضات.. ولذلك فالذى يعيش فى عالم المرأة هو أحد أبطال سباحة المسافات الطويلة والقصيرة والغطس والقفز - وأول الغرقى عادة ! هذا العالم المتغير من أوله لآخره كيف استطاع ملوك الأزياء أن يظلوا ملوكاً كل هذه السنوات الطويلة.. إن معظم الملوك يموتون فى المنفى: إلا ملوك الموضة.. فهم يعرفون أن المرأة تحب تغيير كل ما حولها إلا قلبها.. وتكره التغيير فى الرجل الذى تحبه.. وتخاف من علامات التغير فى وجهها.. تخاف من الزمن.. ولكن هذه المخاوف الغريبة، استطاع ملوك أناقة الفساتين والأحذية والشعر والماكياج أن يروضوها وأن «يسكتوها» و«يوصفوها» ـ كما تقول اليوم. مثلاً تقول السيدة كوكو شانيل إحدى ملكات الموضة: أنا أعرف أننى لن أقول شيئاً جميلاً.. فالرجال قادرون على ذلك أكثر منى.. ولكن أستطيع أن أقول كلاماً عادياً بفستان جميل جداً وبتسريحة بديعة. ومن المؤكد أن الرجل يستطيع أن يبتلع أسخف الأفكار من أجمل النساء.. ولا يستطيع أن يحتمل أروع الأفكار من أسخف الرجال.. فلندع الرجال يعلمونا كيف نردد أفكارهم فى إطار أفخم.

إن المرأة تستطيع أن تغير حالاتها النفسية إذا غيرت جلدها.. إذا غيرت فستانها ولونه وإذا غيرت تسريحتها.. وإذا غيرت ملامح وجهها.. إنها تستمد الرضا والسعادة من كل هذه الأشياء

من كلمة واحدة يقولها رجل، حتى لو لم يكن يقصدها بالذات...
إن كلمة واحدة جميلة تقال للمرأة فى أى مكان فإنها لا تنساها..
هل هناك أكثر كذباً من الحلاق ومن الخياطة.. ومع ذلك فالمرأة
تصدق كل ما يقوله الحلاق والخياطة..

وهذا هو الفهم الصحيح للطبيعة الإنسانية.. فالإنسان ليس
خاتماً تضعه فى إصبعك الصغيرة ثم تنقله إلى الكبيرة ثم تضعه
فى جيبك.. ثم إن الإنسان ليس قطعة من العجين، تجعلها قطاً
وكلباً وأسداً إذا أردت.

ولكنه قطعة من الحجر الجيرى أو الحجر الأسود.. والكتابة
على هذا الحجر صعبة.. ولكن تستطيع أن تضع الحجر فى ميدان
فإذا هو تمثال.. وتستطيع أن تضعه على قبر فإذا هو شاهد...
وتضعه أمام الباب فإذا هو عتبة..

أنت لا تغيره.. ولكن أنت تغير ما حوله.. أنت تغير موقعه..
وبذلك تتغير المعانى التى لهذا الحجر.

وأنت فى حياتك العادية تقول: إننى فى حاجة إلى تغيير..

فما الذى تستطيع أن تغيره؟

إنك لا تغير نفسك.. وإنما أنت تغير الظروف حولك.. الوجوه..
الكلام.. المكان.. الهواء.. الطعام.. الشراب.. أنت أنت.. ولكنك تذهب إلى
مكان يعكس عليك أضواء مختلفة.. وأصواتاً مغايرة.. ويهب عليك
هواء من البحر بدلاً من الصحراء.. أو من الصحراء جافاً بدلاً من
البحر رطباً.. وتمشى بقميص بدلاً من بدلة.. وتدوس على شبشب بدلاً
من حذاء.. ثم أنك قد قررت أن تتغير فتذهب إلى مكان آخر مختلف.

ونعود إلى السجائر وإلى القهوة وإلى الخمور.. ماذا حدث الآن؟ إن كل محاولة لمنع الناس قد فشلت... لا بالتحذير ولا بالتخويف.. ولذلك لجأ الأطباء إلى اختراع حبوب إذا مصصتها زهدت فى السجائر.. وقد نجحت إلى حد كبير.. أما الخمور فقد اهتدى العلماء إلى رفع الكحول من المشروبات فأصبح لها اللون والطعم ولكن ليست فيها هذه اللسعة التى تفتت الكبد.. وكذلك بالنسبة للقهوة والشاى، رفعوا منها مادة الكافيين فأصبح لها الطعم واللون والرائحة ولكن هذه المادة التى توجع القلب وتجفف الرأس وتطرد النوم قد اختفت!

تقول العالمة الأمريكية مرجريت ميد إنها لاحظت أن أبناء جزر المحيط الهادى تظهر على وجوههم بثور ودمامل كثيرة.. ولما عرفت السبب انزعجت تماماً. فقد قيل لها أن مظاهر الرجولة عند الشبان أن يسيلوا دماءهم أمام العروس دليلاً على الصبر والقدرة على التحمل. وكثيراً ما تتقيح هذه الجروح. ويجىء الساحر لكل قبيلة ليعالج الجرحى بالأعشاب. وبعض هذه الجروح تلتئم.. وكان يحدث فى أوربا فى العصور الوسطى شىء من ذلك. فقد كان الفرسان يتنكرون فى الليل وينامون واقفين تحت شباك المحبوبة.. وكانت تتفضل وتلقى عليهم من الماء البارد والقذر ما يوجع الصدر والجلد والقلب.. وكان الفارس الشهم يصبر على الأذى دليلاً على التضحية والحب لها والرجولة.. لكن السيدة مرجريت ميد وجدت حلاً ذكياً.. فبدلاً من أن تقنع الشبان بالعدول عن ذلك.. فإنها أقنعت الفتيات بأن الذى يفعله الرجال سوف يضعفهم جنسياً.. وأن العلاج الوحيد

لهذا الضعف هو أن ترش الفتاة على الجروح مادة ناعمة بيضاء.. وكانت الفتيات يفعلن ذلك والرجال يصرخون.. فإذا صرخوا امتنعت الفتيات عن زواجهم.. وأخيراً عدل الرجال عن أن يجرحوا أنفسهم.. أما المادة التى كانت الفتيات يستخدمنها فهى ملح الطعام المركز.. ووضع ملح على جرح شيء فظيع، وأفظع منه ألا يتزوج الشبان والشابات!

وكلها حيل من أجل اللف والدوران حول طبيعة الإنسان التى يصعب تغييرها.. وإنما أسهل أن يغير الظروف حوله ليكون ألطف وأهدأ وأكثر إقبالاً على الحياة والناس!.

# هذه الطبيعة التى نعالجها بالكيمياء!

أنت مثقف.. إذن أنت متشائم والجهلة هم المتفائلون لماذا؟ لأن الذين يعرفون يرون أنه لا أمل فى علاج آلام الإنسانية. فهم يعرفون أنه لا علاج.. ولذلك أسودت الدنيا فى وجوههم. أما الذين لا يعرفون فيرون الدنيا جميلة، ويسمعونها ساحرة، ويلمسونها ناعمة، وينامون على صدرها حتى الموت وهم سعداء..

والعلم الحديث يريد أن يجعل الدنيا وردية فى عيون المثقفين، دون أن يكون لهم دخل أو تدخل فى هذه العملية. أى تحويلهم إلى سعداء واحتفاظهم بالعلم والمعرفة. كيف؟ العلاج هو الكيمياء. فكل شيء فى الدنيا وفى نفسك: كيمياء.

تماماً كما نضيف ذرتين من الهيدروجين إلى ذرة واحدة من الاوكسجين فيتكون الماء.. تماماً كما تضع قطعة السكر فى فنجان البن المر ومع سيجارة بين أصابعك وفى لحظة يخرج الدخان من فمك وأنفك ويتغير لون الدنيا وطعمها ووزنها. وفى هذه اللحظة يمكنك أن تغنى ولن يلومك أحد على ذلك - إنها الكيمياء يا سيدى، ساحرة العصر الحديث!

وفى إحدى قصص الأديب الإنجليزى آرثر كيشلر التى عنوانها «الشبح فى الآلة» يقول: إن هناك صراعاً فى داخل كل واحد منا. بين «العقل القديم» وبين «العقل الجديد». الأول يحرك عواطفك. والثانى ينظم أفكارك. وأنت حائر مشدود مسحوق مطحون بين الاثنين.. أو بعبارة أخرى: فى داخل كل إنسان حيوان وإنسان. الحيوان هو غرائزك..والإنسان هو تدبير وتبرير هذه الغرائز وضبطها وإطلاقها وربطها بحساب..

ولكن الكيمياء وجدت لها حلاً.. إنها أعطت الإنسان فرامل على عواطفه.. إنها أعطت لانفعالاته الشديدة مصابيح ترى بها وطريقاً تمشى فيه، وعلقت لها غاية نبيلة فى النهاية! كيف؟ هذا هو السؤال. لقد اخترع العلماء أقراصاً وحبوباً. هى التى تقوم بكل العمل بالنيابة عن الإنسان إنها تذيبه بعضه فى بعض، كالسكر فى مرارة البن فى دخان السيجارة. وبعد ذلك تجىء البهجة النفسية كل صباح..

انظر إلى مريض حملوه إلى مستشفى الأمراض العقلية. فى حالة هياج عنيف. ثور أسبانى لا ينقصه إلا قرنان لا يكاد يرى الناس حتى يصرخ ويهجم فإذا لم يجد أحداً انقض على نفسه ومزقها: ملابسه وشعره ووجهه!

وبسرعة يتكاثر عليه المرضى والأطباء ويضعون فى فمه بعض الأقراص والقليل من الماء.. وبعد لحظات تنطفئ النار ويتحول الثور الهائج إلى أرنب.. ويتحول الأرنب إلى فأر فى ركن ويجىء مريض آخر. وألف مريض وتختفى الحبوب وتقوم الكيمياء بتحويل الوحش المجنون إلى كائن حى هادئ.

وكانت مستشفيات الأمراض العقلية طريقاً مفتوحاً على الهاوية أو على جهنم يدخله المريض ولا يخرج إلى الأبد.. يدخله ليخرج من هذه الدنيا. وكانت المستشفيات العقلية قريبة الشبه من جهنم التى وصفها الشاعر الإيطالى دانتى.. وكتب على بابها يقول: أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة!

وأصبح هناك أمل فى العلاج والشفاء والهناء. والسبب: كيمياء!

ولو وقف إنسان عند باب مستشفى الأمراض العقلية ونظر إلى الداخل وإلى الخارج لتحير طويلاً، أين العقلاء وأين المجانين؟ إنهم فى المستشفيات أهدأ.. وخارجها أكثر صخباً. إنهم فى المستشفيات يتقاتلون ويقتلون دون وعى، وخارجها يقتلون ويقاتلون ويموتون بوعى وعلم عظيم!

فى الخمسينيات ابتكر العلماء نوعين من العقاقير المسكنة هما: كلورميرمازين وروزرين ودخلت الإنسانية بهما عالماً هادئاً ساكناً هانئاً وقال العلماء والأطباء: نحن على أبواب الجنة!

ولكن الجنة فى هذه الدنيا من أوهامنا الكبرى. نحن نظن النار جنة ونظن الحرب سلاماً.. ونتوهم أن أول الطريق هو آخره. فذهب مفعول هذين العقارين واستعصت المشاكل على العلاج، واحتاج الإنسان إلى مزيد من علم الكيمياء..

وكان شيخ الجبل الشهير فى التاريخ الإسلامى يأتى برجاله ويطعمهم الحشيش ويعرض عليهم البنات الجميلات وأنهار اللبن وأنهار الخمر.. ثم يدير رءوسهم بالدخان الأزرق.. وقبل أن يفيقوا

يلقى بهم فى العراء. ويعيدهم إليه قائلاً: لقد رأيتم الجنة وأنا مستعد أن أجعل الدنيا جنات تجرى من تحتها الأنهار إذا قتلتم فلاناً وأحرقتم بستان فلان.. واعتديتم على فلانة!

وكانوا يفعلون.. فالإنسان يريد أن يشترى أوهامه بدمه وأن يشترى السعادة بحياته..

وتطورت أشكال وألوان وأحجام الحشيش وبقية المخدرات.

وقام العالم الكبير الدوس هكسلى بتجربته المشهورة عندما تناول عقار المسكالين المستخرج من الصبار. وطلب إلى زوجته أن تراقب حركات وجهه وأمسك هو الميكروفون وراح يسجل ما يشعر به. وفى أحد الأشرطة يقول تحت تأثير عقار المسكالين: نار.. يخرج منها نبات أخضر. ومن هذا النبات تخرج فتيات عاريات لهن صدور من التفاح.. ومن هذه الصدور تخرج ألسنة النار.. وهذه الألسنة كأنها موجات فى بحر يتقلب.. وهذه الموجات فتيات عاريات يتقلبن فى كأس من الشمبانيا.. الكل يحترق.. وأنا لوح من الثلج التفت من حوله موجات دامية ملتهبة تعتصرنى وتمتصنى وأتلاشى.. إلخ.

وظهرت عقاقير الهلوسة المشهورة باسم: ل.س.د. واستسلم لها الشباب فى بلاد كثيرة. يهربون إليها من متاعب هذه الدنيا. ويدخلون بها إلى جنات وهمية. وهم سعداء بأوهامهم. وفى عزلة تامة عن هذا العالم.. وعاش هؤلاء الشبان فى عالمين فى وقت واحد. أحدهما يهدم الآخر ويحطم الشباب فى النهاية!

إنها الكيمياء أيضاً..

وأخيراً اكتشف العلماء أن المصابين بأمراض الانفصام أو الفصام أو ازدواج الشخصية، عندهم شيء ما في بلازما الدم. أي أن المرض يجيء من خلل في تركيب دمه. فهناك شيء في بلازما «الفا ٢» وهذا الشيء موجود بكثرة في دم مرضى ازدواج الشخصية، وهذا يؤدي إلى نوع من انقطاع التيار أو نوع من «الماس الكهربي» أو «المس الكهربي» .. إن صح هذا التعبير. ولاحظ العلماء أنه يوجد في بول هؤلاء المرضى مادة تشبه الادرنالين الذي تفرزه الغدة - فوق - الكلية عند القلق والاضطرابات النفسية العنيفة. وهذه المادة تشبه تماماً مادة المسكالين التي كان يتعاطاها الهنود الحمر من نبات الصبار ويصابون بأنواع عجيبة من الهلوسة. وأثبت العلماء أن هذا السائل الموجود في البول هو الذي يؤدي إلى نوع من «السموم العقلية».. أو إلى هذا «الصرع» أو «الازدواج النفسي».

وهناك نظرية معروفة للأستاذ باولينج الحائز على جائزة نوبل. هذه النظرية اسمها «عضوية الاضطرابات العقلية».. إن هناك علاقة مؤكدة بين نقص فيتامينات ب وج وبعض الحوامض ومواد أخرى موجودة في المخ وكل الاضطرابات العقلية عند الإنسان.. والذي يحصل على هذه المواد ويستهلكها بسرعة يرتبك ويضطرب وكذلك الذي يعجز عن الحصول عليها والصحة العقلية هي التصحيح المستمر لنقص هذه المواد وتوريدها للمخ بالنسبة المطلوبة.

ومرض «الصرع» هو اضطراب في المخ. بسبب نشاط زائد،

أو انفجار كبير فى المخ - إن صح هذا التعبير - يؤدى إلى اشتعال واحتراق وإظلام تام بعد ذلك. وهناك كثيرون فى العالم يصابون بهذا المرض. ويوليوس قيصر نفسه كان مصاباً بالصرع.. ولولا مادة اسمها ديلانتين لزاد عدد المصابين فى العالم إلى ملايين. ولكن تعاطى هذه المادة بانتظام أدى إلى تصحيح التوازن النفسى والعقلى والمادى - أى التوازن الكيميائى فى الجسم كله!

والكيمياء هى التى جعلت الإنسان لا يخاف من أن تؤدى العلاقات الجنسية إلى الحمل والولادة. فلأول مرة فى تاريخ الإنسان يكون هناك انفصال بين الجنس والحمل. فالإنسان يستطيع أن يستمتع دون خوف. والسبب هو: الحبوب.. حبوب منع الحمل تتعاطاها المرأة واحداً وعشرين يوماً فى كل شهر وتتوقف ثمانية أيام.. أو تضع حبة تحت جلدها فلا تحمل عشرين عاماً.. وإذا أرادت أن تحمل أخذت حقنة فتعود دورتها الشهرية وإفراز البويضة الناضجة وتحمل.. وكذلك من الممكن أن يتعاطى الرجل بعض الحبوب. لولا أن حبوب منع الإخصاب عند الرجل تصبح باطلة المفعول إذا شرب الرجل خمراً.. على كل حال إنها الكيمياء!

فإذا أراد الإنسان أن ينام، فهى الكيمياء تعمل فى داخله. ومن المعروف ان فى داخل المخ مركزين. أحدهما إذا أزيل نام الإنسان حتى الموت. وإذا أزيل الآخر صحا الإنسان حتى الموت، وإذا أزيل الاثنان معاً أغمى عليه حتى النهاية..

وكما أن الإنسان يبتلع أقراصاً لينام، فإن هناك أقراصاً أخرى من أجل أن يسهر بلا نوم.. فنومه ويقظته فى يديه، وهو

يختار كل يوم ما يعجبه وما يريحه.. ولاشك فى أن حرص الأطباء فى العالم على أن يكتبوا للمريض الحبوب التى تنيمه والتى توقظه سببه أن الناس قد أسرفوا فى تعاطى النوعين. وكان لابد من أن يشرف الأطباء على ذلك.. وقد أدمن الناس كل أنواع الحبوب حتى لم يعد لهما أثر.. أو حتى احتاج الناس إلى كميات انتحارية لكى تأتى لهم بالنتيجة المطلوبة. ولو توقفت مصانع الأدوية عن إنتاج هذين النوعين، لأصيب مئات الملايين بالجنون!

وهناك حبوب السعادة، وحبوب الأحلام الوردية ـ وكلها أنواع من المواد تدخل الدم وتلعب بالأعصاب وتحول المخ إلى سيرك.. ويستمع الإنسان إلى موسيقى سحرية ترقص لها أحشاؤه وأطرافه ويكون فى دنيا أخرى.. إنها كيمياء.

وكان ملوك المغول ينامون ثلاث ساعات فى اليوم الواحد.. ولا أحد يعرف بالضبط هل هى عادة ملكية.. أو أن لديهم عقاقير للسهر.. ولكن أحداً منهم لم يكن يشكو من تعب أو مرض.

ولا أحد يعرف بالضبط هل النوم شىء حديث على الإنسان. وهل كان الإنسان القديم ينام كثيراً هكذا..

هناك نظرية تقول إن الإنسان البدائى كان يهيم على وجهه فى الغابات، وكانت الحياة فى الغابة قاسية حتى كان النوم معناه الموت. يكفى أن يغمض الإنسان عينيه ليستقر فى بطن أحد الوحوش، وكذلك كانت اليقظة حياة وعمراً متجدداً كل يوم. ولابد أن الإنسان قد عرف النوم عندما اكتشف الكهف. وتعلم أن

يسد الكهف فى وجه الوحوش.. ولابد أن الإنسان قد تعلم مع النوم الراحة واللعب والمرح، فهو لم يعد يخاف وهو فى الكهف من الوحوش والأفاعى.. ولذلك حرص الإنسان على أن يغمض عينه، وأن يقفل الباب.. وكأن الباب جفن كبير يطبقه على نفسه كل ليلة لينام. وورثنا النوم عن أجدادنا..

ولكن الإنسان لابد أن ينام ثلث عمره على الأقل.. وفى أثناء النوم يخلص الجسم من كثير من متاعبه وتوتراته.. وإذا لم يستطع الجسم أن يفعل ذلك وحده، فإننا نساعد الجسم على أن يقوم بهذه المهمة، كيف؟ إنها الحبوب.. إنها الكيمياء أيضاً!

ولابد أن تمضى الكيمياء الحديثة فى البحث عن «الينبوع الدائم للشباب» وهذا الينبوع الدائم هو إضافة مادة جديدة إلى الدم إلى وظائف المخ. هذه المادة سوف تجدد خلاياه أو توقف شيخوخة الخلايا التى تبدأ تتلاشى بعد السابعة والثلاثين من عمره..

ويؤكد العلماء أنهم على وشك أن يهتدوا إلى «الذى» يطيل عمر الإنسان.. لقد نجحت التجارب التى أطالت عمر الفئران والأرانب بنسبة ٢٠٪. وغداً بنسبة ٥٠٪ أو ١٠٠٪.. وسوف يقبل الناس على تعاطى هذه الحبوب بجنون، وسوف يتعاطاها المريض على أمل الشفاء. ويطول عمره ولا يجىء الشفاء وسوف يسرقها المجرمون واللصوص ويعجز عنها الطيبون والعقلاء..وسوف تتدخل الدول فى توزيع هذه الحبوب. إلى من تعطيها؟ إلى الأصدقاء والمحاسيب؟ إنها مشكلة، أو سوف تكون مشكلة خلقتها الكيمياء وسوف تجد لها حلاً كيماوياً أيضاً.

وأنت وأنا وكل الناس: هدف يومى لغارات جوية مكثفة. وكلها «تغير» الدم «وتحرق» الدم.... وتجعله «يغلى».. هذه كلمات دقيقة تنطبق على« ما يجرى فى داخل أى إنسان.. على التفاعلات الكيماوية فى داخلك.. وليس من الضرورى أن يرغمك أحد على أن تبلع حبة أو قرصاً لا تريده.. وإنما «كلمة» واحدة.. «نظرة».. «وقفة» على سلم الأتوبيس.. كل هذه لها سحر الحبوب الكيماوية التى تقلب كيانك ألف مرة كل يوم.. وعلاجها: شىء تضعه فى الماء أو فى الشاى أو فى اللبن.. أو الدم.. وأنت معذور فنحن فى حرب مع الطبيعة الإنسانية. ونحن نعالج هذه الطبيعة بالكيمياء.. فالحياة اليومية أقسى وأصعب من أن يواجهها الإنسان منزوع السلاح.. وليس عندنا إلا سلاح الكيمياء!

# ما الذى يجب أن يتغير فى مصر ؟

ما أكثر العبارات التى قالها مؤرخ الإغريق هيرودوت عن مصر. غير أن عبارة واحدة هى التى التصقت بنا، حتى أصبحت «طبعاً» وطبيعة مصرية. قال: إن مصر هبة النيل..

أى أن النيل هو الذى خلق الدلتا، والوادى الخصيب. وأنه بعد ذلك وسيلة المواصلات بين المدن المصرية. وأن الوادى الأخضر هو «المهد» الذى ولدت وتعيش فيه الحضارة المصرية.

ولم يقل هيرودوت أصدق من ذلك. فالنيل هو أبو مصر. ارتضينا ذلك، وسعداء به. ولكن هذه العبارة جعلتنا نحن المصريين ننتظر النيل أن يهبنا أرضاً وحياة كل سنة. ولذلك فحياتنا هى الانتظار الأبدى. وليس غريباً أن يعبد أجدادنا الأرض والنيل والشمس، وهى جميعاً عناصر حياتنا..

وعندما جاء عمرو بن العاص إلى مصر أدرك بفراسته البدوية هذا المعنى. ووصفه بشكل آخر فقال: إننا نبذر الحب، وننتظر الثمار من الرب..

أى كل واحد منا يلقى الحبة، وينتظر.

حتى الكاتب الذى يجمع الضرائب قد وصفناه بأنه «الجالس القرفصاء». فهو يجلس والناس يجيئون إليه.. وتحت الكاتب كانت المصطبة. فأصبح من علامات الحياة المصرية: الانتظار على شاطىء النيل فوق المصطبة..

ولذلك كان من أهم معالم الشخصية المصرية: الانتظار فى مواعيد محددة. والاستمرار.. فكل شىء يمشى دون تدخل من الإنسان: الماء يجرى والبذور تنمو والشمس تطلع - سواء كان هناك فلاح أو لم يكن. فكل شىء لا يعتمد على الفلاح المصرى.. إنما الفلاح هو الذى يعتمد على كل شىء!..

لقد وهبنا النيل هذه الحياة.. وهو يهب الحياة، ونحن نتلقاها.

وعندما أراد المصريون أن يهبوا النيل شيئاً، امتناناً له على خيره العظيم، كانوا يلقون إليه بعروس جميلة فى موسم الفيضان.. فالنيل رغم أنه ابن عشرات الألوف من السنين، فإن فيضانه الطائش يؤكد أنه شاب وأنه سوف يبقى كذلك..

وعندما جاء المستعمرون إلى مصر راحوا يحرصون على هذا المعنى الذى نستريح إليه: إننا زراعيون وإننا نكره المغامرة.

وعندما نحاول أن نغامر فإننا نترك القرية لنكون موظفين فى الدولة. فإذا أصبحنا موظفين جلسنا القرفصاء.. فنحن مرة أخرى فلاحون ولكن بملابس مختلفة..

ولقد ظللنا فلاحين. ووجد لنا المستعمرون أعذاراً معقولة لذلك. فقالوا لنا فى كتبنا المدرسية: إن بلادنا محاطة بالبحر شرقاً وشمالاً، ومحاطة بالصحراء غرباً، وبالشلالات جنوباً.

فنحن رهائن الوادى الأخضر: هبة النيل!..

وزاد عدد سكان مصر. وقامت مدن على الأرض الخضراء.

وضاقت بنا الأرض وضاقت عنا أيضاً. ولم نسأل أنفسنا: ألا نستطيع أن نساعد النيل أو نستغله على أن يجعل الهبة السنوية أكبر؟.. ألا نتعلم من النيل الذى أعطانا الكثير، فنضيف نحن أيضاً إلى هذا الوادى مساحات أخرى خضراء؟..

واجهتنا مشكلتان:

المشكلة الأولى: ظاهرة «التصحير» أى أن الصحارى تزحف على الوادى الأخضر. وهذه ظاهرة عالمية. وإلى جانب ذلك فإننا فى مصر لا نزحف على الصحراء، ولا نجعل الصحراء تزحف علينا. إنما نحن نبنى بيوتنا على الأرض الزراعية.. وبذلك نحقق ظاهرة التصحير ولكن بصورة مختلفة.

وأضفنا إلى ذلك ما تقتضيه المبانى؛ فقمنا بتجريف الأرض الخصبة لنجعل منها طوباً نبنى به البيوت على الأرض التى جعلناها بوراً - أى خصمناها من الأرض المزروعة وأضفناها إلى الأرض الصحراوية..

المشكلة الثانية: الهجرة إلى المدينة. فكل أبناء الريف يتعلمون. وأول قرار يتخذونه هو أن يديروا ظهورهم للأرض التى نموا على ضفافها.. فكأنهم يتعلمون كل شىء إلا أن يستثمروا علمهم فى القرية أو فى الريف المصرى..

فما الذى يمكن عمله؟..

كان من بين ما عملناه: السد العالى.. كان بناء السد العالى محاولة لادخار الماء لوقت الشدة.. فأبونا النيل رجل سفيه.. لا يكاد تفيض جيوبه بالخيرات حتى يروح يبددها فى البحر. ولذلك كان لابد أن نعلمه التدبير.. فركبنا التوربينات تعترض طريق الماء فيحاول أن يقتلعها فتدور بين أصابعه، ومن بين أصابعه تتولد الكهرباء لإدارة المصانع وإنارة القرى.

وجاء السد العالى بعد أن أصبح خزان أسوان شيخاً عاجزاً عن الوفاء باحتياجات المجتمعات الشابة والصناعات النامية فى مصر..

وكان من الممكن أن نبنى سداً عالياً آخر..

ونحن نفكر الآن فى أن نأتى بالماء نستدرجه إلى منخفض القطارة، ومن انحدار الماء تتولد طاقات جديدة للإدارة والإنارة.. ويكون منخفض القطارة تكراراً للسد العالى..

ولكن هناك شيئاً مهماً لم يتغير. ولابد أن يتغير: النظرة المصرية. فلايزال المصرى الفلاح ينتظر النيل حتى يأتى له بالماء والحياة عند قدميه. ولا يذهب المصرى إلى أبعد من ذلك..

إن البدوى الرحالة هو الذى قال: إذا لم يأت الجبل إلى محمد، فإن محمداً يجب أن يذهب إلى الجبل!..

وهى عبارة لا يقولها فلاح..

إنما الفلاح يقول ما قاله اللورد كرومر عن المصريين: إن أغانيهم أكبر دليل على أعماق أعماقهم.. فهم يقولون: يا مين يرجّع لى حبيبى..

إنه لا يذهب إلى الحبيب، إنه ينتظر أحداً لعله يأتى به..

وبعد نكسة سنة ١٩٦٧ كان خطباء المساجد عندنا يقولون: اللهم ابعث إليهم بجنود من عندك!..

أى أن اللّه هو الذى يحارب نيابة عنا؟!

ومن البديهيات أن نقول: عندنا الماء والماء والماء والتربة والشمس والعلم. نعم والعلم. إذن فجميع مشاكلنا محلولة. وكل ما نطلبه هو أن نمسك ورقة وقلماً ونحسبها: ما الذى نحتاج إليه لكى تكون عندنا حياة؟.. نحتاج إلى الماء. واللّه تعالى يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.. ونحتاج إلى الأرض وما أوسعها. وعندنا نظريات علمية جديدة تقول: أعطنى الماء وأنا أزرع لك الصحراء.. فليس من الضرورى أن تكون الأرض سوداء لتصبح صالحة للزراعة، وعندنا الشمس - أى الطاقة التى توفر كل التفاعلات الكيماوية للحياة، وعندنا الهواء. لم يبق أمامنا إلا أن نستفيد من تجارب الشعوب الأخرى، وقد سبقتنا إلى زراعة الصحراء أمريكا وغيرها..

إذن.. فإذا كان النيل قد وهبنا الأرض ألوف السنين، ففى استطاعتنا أن نهب النيل ودياناً ومدناً وحياة جديدة، معتمدين على النيل دائماً، وعلى أنفسنا، وعلى اللّه..

وليس أنجح من النموذج الناجح.. ولذلك فلكى يقتنع الفلاحون - وكلنا فلاحون - فلابد أن نقدم لهم نماذج ناجحة لزراعة الأرض وتربية الطيور والأسماك والحيوانات. ولابد من تغيير فى الشخصية المصرية: فليس من الضرورى أن نكون

جميعاً فلاحين على المصاطب، أو كتبة يجلسون القرفصاء.. إنما من الممكن أن نكون متعلمين يركبون السيارات والجرارات.. وأن نبدأ حياة جديدة بعيدة عن النيل - هناك فى قلب الصحراء.. وهناك نجد النيل يلاحق أبناءه، وإن لم يدركهم النيل فإنه ينتظرهم بالخير فى جوف الأرض، وليس عليهم إلا أن يدقوا له المواسير ليتدفق الماء بالحياة..

وإن أكبر رمز علمى حققته مصر فى عصرها الحديث، هو أن تبعث الماء إلى سيناء.. ليس فقط ربطاً لسيناء بمصر، إنما بعث للحياة فى أرض خلقها الله لامتحان الأنبياء - أقسى وأقصى امتحان..

إننى لا أنسى أن أحد مهندسى زراعة إسرائيل قد وقف ينظر إلى النيل من مكتبى فقال: أين تذهب كل هذه المياه؟..

فقلت: طبعاً إلى البحر..

- كلها؟!..

- نعم.. كلها..

- وأنتم لا توقفونها لأى سبب؟!..

- لا يوجد أى سبب..

- آه.. أكبر غلطة ارتكبها النبى موسى أنه ترك مصر، وإنه عندما تركها لم يذهب إلى السعودية!..

وأى إسرائيلى يرى مصر يتلمس وجعاً فى نفسه أو فى قلبه: لماذا؟ لأن قلة الماء فى إسرائيل جعلتهم يستخدمونه كالقطرة يضعونه فى عيون الأشجار والنباتات قطرة قطرة.. أما نحن فنجعل الحقول حمامات للسباحة تغوص فيها البذور والأشجار..

فالفدان الذى يحتاج إلى خمسة آلاف دلو ماء نعطيه مائة ألف، بينما فى إسرائيل وغيرها يستخدمون مائة دلو لرى الفدان الواحد.

كما يجب أن تتغير علاقة المصرى ببلده.

ويكفى أن نعود إلى حروب مصر مع إسرائيل؛ فالذين يدافعون عن الأرض هم الفقراء الذين لا يملكون شيئاً من مصر، فكان الذين لا يملكون يموتون من أجل الذين يملكون.. أما الآن فمصر لأبنائها، يملكونها ويدافعون عنها. فإذا فعلوا ذلك فهم يدافعون عن الأرض وعن العرض.. وقبل ذلك لم يكونوا يدافعون إلا عن العرض..

وتجربة «الصالحية» ليست إلا خطوة فى مسيرة طويلة، يجب أن تكون متصلة وأن تكون نشطة، وكذلك تجربة بناء ميت أبو الكوم الجديدة فى سيناء، ليست إلا نواة لبناء مصر جديدة.. مصر الآسيوية.. فقد عشنا ألوف السنين فى مصر الإفريقية.. أما مصر الآسيوية فسوف تكون لها حسابات أخرى ونوعيات أخرى من المواطنين..

إن أشياء كثيرة جديدة تتولد فى مصر فى ظل السلام.. فنحن نبنى لكى نعيش، ولا نبنى لكى نموت تحت الأنقاض.

ونحن نعطى الأرض للذين تعلموا لغتها، ونعطيها للذين يحاورونها ويصارعونها ثم يطوعونها بعد ذلك.. فقد طالت تجربة الذين ينتظرون دائماً، وإذا تحركوا جلسوا القرفصاء.. ثم إنهم راضون بعد ذلك!..

إننا نغير أشياء كثيرة فى وقت واحد.. وأهم ما يتغير عندنا وفينا: من هو المصرى..

إنه الآن لا يريد أن يكون الذى يضع ساقاً على ساق لتمر النعمة

من تحت قدميه، فلا يراها إلا الخواجات والمستثمرون الأجانب!.. إنه لم يعد ذلك الذى لا يريد أن «نفطمه» عن العلاقة الدائمة بمدينتى القاهرة والإسكندرية.. فإذا لم يعش فيهما أحس بأنه غريب منبوذ..

إن مصر اتسعت، ويجب أن تتسع.. ولذلك يجب ألا نسخط على أنفسنا، ونكف عن احتقار العلاقات الزوجية التى تؤدى إلى كثير من الأولاد.. فليس صحيحاً أن مصر كثيرة السكان. إنما الصحيح أن السكان موزعون توزيعاً سيئاً. ولذلك فلابد أن نعيد توزيع السكان، فى سيناء والوادى الجديد وفى الصالحية وفى المدن التى يقام بناؤها.. فليس من المعقول أن نطلب إلى الشباب أن يكون على خلق عظيم، ثم نمنعه من الزواج فإذا سمحنا له بالزواج رحنا نتهم هذا «التسيب» فى علاقته الزوجية!..

إن أهم ثروات مصر وخيراتها: هنا.. فوق الكتفين!..

أى أن أعظم مناجمنا هو الطاقة البشرية والإبداعية.. ولن نستطيع أن نغير أنفسنا إلا بأنفسنا..

والذى يحدث الآن ليس إلا إعادة النظر فى «المعطيات» الزراعية والصحراوية والمائية.. ونحن إذ نعيد النظر.. نغير الزوايا، وإذا تغيرت الزوايا الاقتصادية والاجتماعية، فإن مصر كلها سوف تتغير..

ومن الخطأ أن نتعجل النتائج، فليس فى يوم يمكن بناء مجتمع جديد. ولا في سنة يمكن إقناع الآخرين بنجاح التجربة. ولذلك يجب أن نمضى، فالطريق مأمون والنجاح مضمون..

ونحن الذين اخترنا السلام سوف نهب النيل شعباً جديداً ومصراً جديدة..

# لا سمع ولا طاعة لأمير الجماعة
# حوار مع الغاضبين النبلاء!

لا أقول إني لا أزال شاباً، ولكن عندى هموم الشباب.. فأنا لا أزال طالباً للعلم. أصحو مبكراً. واقرأ وأكتب. وأدخل الامتحان. وربما كان الفرق بينى وبين الطلبة الذين كنت زميلاً لهم، أو تلامذتى، أننى أزال فى امتحان يومى أو أسبوعى.. مع فارق واحد: إن الذى يمتحنهم شخص، أما الذين يمتحوننى فهم بالملايين. ولذلك كانت محنتهم امتحاناً سنوياً، أما محنتى فهى محاكمة يومية.

ولذلك فلا أشعر بالغربة أو الغرابة عندما أجلس مع الشبان ونختلف من أول لحظة. ويكون الفارق بينى وبين بعضهم هكذا: أنت صاحب رؤيا، وأنا صاحب رؤية.. أنت ترى وأنت مغمض العينين، وأنا أرى مفتوح العينين. وأنا أستطيع أن أجعلك ترى ما أراه، ولكنك لا تستطيع أن تجعلنى أرى ما يتراءى لك.. لماذا؟

كانوا سبعة من الطلبة والطالبات. وكنت الثامن. اشتركنا فى عيد ميلاد. وتناقشنا فى معنى هذه العادة. ولم يطل النقاش، لأننا نقبلها، ولا داعى لأن نرفضها أو نقلل من شأنها. فلا ضرر

منها. فهى من أكثر العادات براءة ونبلاً. وكان لابد أن ينتقل الحديث إلى العادات الأخرى التى ليست فى براءتها ونبلها. ثم إلى معنى البراءة ومعنى الاتهام. ثم أين هو النبل بين الناس.. وأين بقية الفضائل الأخرى؟.

وحدث ما توقعته. فقد شعرنا بأن حركة المرور وأصوات السيارات والتخبط بين المشاة كلها تفسد تسلسل الكلام، وتسد الشهية التى انفتحت للحوار أو الجدل العنيف.. وجلسنا عند أقرب دكة على النيل. وأدرنا ظهورنا للناس. ولو استطعنا أن نحول آذاننا أو عيوننا عنهم لفعلنا.. ولكن الاهتمام الشديد، والتركيز المستمر، قد عزلنا عن كل شىء!

قلت: هل نبدأ بالخلاف أو بالاتفاق؟.. لقد كتبت من ثلاثين عاماً أصف جيلى من الشبان: فقلت: إننا أبناء الغضب النبيل. فليس شاباً من لا يعرف الغضب. وتحدثت عن أربعة من الناس: الشاب الغاضب، والشاب الساخط، والشاب المتمرد، والشاب الثائر.. ونحن نتصور دائماً أن الغضب هو الثورة. فالشبان لذلك ثوار بطبيعتهم. ولكنى أبادر فأعترض على هذا التبسيط الذى يخل بالمعنى. فالشاب الغاضب هو الذى لا يعجبه كل شىء.. ولكنه يعطى لنفسه بعض الوقت، لكى يغضب من بعض الأشياء، ويرضى عن بعضها الآخر. فإذا فعل فهو الإنسان الساخط. لأن السخط هو الغضب وقد انحصر فى شىء. ولكن الغاضب والساخط.. كلاهما لا يقدم لنا حلاً أو تصحيحاً لهذا الخطأ الذى يراه.. إنه فقط يخص الأشياء أو العلاقات الإنسانية بغضبه

الجميل وسخطه النبيل.. فإذا انتقل الساخط إلى اقتراح بتصحيح هذه الأشياء التى تغضبه، فقد أصبح إنساناً متمرداً. لأن المتمرد هو الساخط الذى لديه اقتراح بالعلاج. بل لديه علاج. أما إذا انتقل المتمرد إلى السخط على كل شيء، وكان لديه برنامج لتشخيص كل شيء تمهيداً لعلاجه، فهو الثائر.. ولاتزال الثورات هى أنظف ما ابتدع الناس من وسائل شاملة لكنس العيوب وعلاج الأمراض وخلق علاقات جديدة، والتمهيد لمستقبل أفضل. وفى شبابنا توهمنا أننا ثوار. وتخيلنا أننا إذا رفضنا الأشياء، شفينا أنفسنا منها!.. وليست هذه هى شروط اللعب.. كرة القدم مثلاً.. ليس أحسن اللاعبين كل من جاءته الكرة ولم تعجبه فقفز من فوقها. أو انطلقت الكرة ذليلة عند قدميه، ثم أطاح بها إلى خارج الملعب.. فليس ذلك لعباً.. إنما هو رفض للعب.. أو هو قبول للعب، ودخول للملعب، ثم خيانة للأمانة.. فقد أتوا به ليلعب. فكان رفضه إخلالاً بالتعاقد، ورفضاً لقواعد اللعب.. فمثل هذا اللاعب أسوأ بكثير من الخصوم. لأنه قد حذف لاعباً من فريقه، وأضافه إلى الفريق الآخر.. وليست هذه سلبية فقط، إنما هى تخريب متعمد.. وتختلط علينا فى شبابنا هذه الفوارق بين الذى يقول للحياة الاجتماعية: لا، ويتوهم أنه يكفى أن يرفض الدنيا ليكون ذلك حكماً بإعدامها، وبين الذى يقول للحياة: نعم.. فالموقف الإيجابى هو أن نقبل الدنيا، كما نقبل المشاركة فى اللعب.. ثم نلعب.. ونتحرك بصدق وأمانة، ونختار ونحاول ونجرى ونحاور ونصيب الهدف.. ويحدث فى كرة القدم، ما يحدث فى الحياة أيضاً..

قال أحدنا تعليقاً على ذلك:.. أو أن يذهب الإنسان إلى المسجد ويصلى دون أن يكون متوضئاً.. أو يتوضأ ويقف للصلاة، ثم لا يقول شيئاً..

قال أحدنا: ما المعنى؟..

قلت: المعنى هو أننا كنا كذلك.. فكيف أنتم الآن؟.. إننا لم نختلف كشبان عنكم. وكانت لنا حيرتنا. وكانت لنا متاعبنا. ولكننا أفلتنا من بعضها. وحملنا الباقى على أكتافنا. وعندما خجلت أكتافنا من أثقالنا، أخفيناها فى أعماقنا. تماماً كما يحمل الكانجرو وليده الصغير فى جيبه الملاصق لبطنه.. والشباب هو الشباب.. والغضب هو الغضب.. والمجتمع فى كل وقت هو الأقوى والأسبق فى وجوده قبلنا، والمستمر فى وجوده بعدنا.. ووسائل رفع الأيدى على المجتمع واحدة، ووسائل التمرد عليه والانقلاب ضده واحدة.. فأنا لا ألومك على أنك أطلقت لحيتك.. أنت حر.. ولا أنك أخفيت كل وجهك أو بعضه.. أنت حرة فى تصورك لحدود الحلال والحرام..

وساعات تمضى على هذا النحو.. وننتقل من السياسة إلى الاقتصاد إلى الدين إلى الكتب الجامعية إلى أزمة المساكن والمواصلات.. وإلى ما تنشره الصحف والتليفزيون عن الحياة الرائعة فى مصر للبعض. وفى الخارج لكل الناس. وإلى ارتفاع الأسعار.. وإلى حقيقة مهمة ـ أنا الذى أقول إنها مهمة ـ وهى أن أصوات الناس قد ارتفعت لأنهم أحرار، ولأنهم آمنون على أنفسهم.

قلت لطالب طب: نفرض أن هناك طبيبين.. وكل واحد يدير

مستشفى.. ومررنا إلى جوار أحد المستشفيين، فوجدنا صمتاً تاماً يشمل أحد المستشفيين. وسألنا إن كان هناك مرضى أو ممرضون. فقيل: كل الأسرة مشغولة. فسألنا إن كانت هناك عمليات جراحية للمرضى. فقيل: نعم. وتساءلنا إن كان أهل المرضى يزورونهم. فقيل: نعم. وإن كان المريض يتفرج على التليفزيون ويستمع إلى الإذاعة. قالوا: طبعاً. إذن فإن هذا المستشفى عالمي الهدوء مثالي الصمت. عظمة! ثم إلى جوار هذا المستشفى واحد مثله تماماً. ولكن هناك ضحكاً وزعيقاً.. واختلاط أصوات المرضى والممرضين والأطباء والزوار. فسألنا إن كان هذا مستشفى.. فأكدوا لنا أنه كذلك. ثم تلقينا كل الردود بالإيجاب عن الأسئلة السابقة. وقيل: بل إن الطبيب هنا أحسن وأعظم وأرحم. أما السبب فهو أن صاحب المستشفى الأول قد أصدر أمراً قاطعاً بألا يفتح أحد فمه، سواء كان طبيباً أو مريضاً أو زائراً. ولا كلمة! ولذلك فالذين يمشون إلى جوار المستشفى، أو يتنقلون بين غرفه، لا يجدون زعيقاً ولا نقاشاً. أما المستشفى الآخر فصاحبه طلب إلى كل إنسان أن يكون طبيعياً. أن يصرخ أثناء العملية وأن يتوجع وأن يقول: آه، وأن يحتج على الطعام وعلى الشراب وعلى الإدارة. وأهم من ذلك أن صاحب المستشفى قال: مهما قال المريض وأهله، فليس معنى ذلك إلقاء المريض من النافذة وطرد أهله من الباب.. إنما هم جميعاً أحرار، وحريتهم مكفولة، وعلاجهم مضمون!

قال أحدنا: ما المعنى؟ ماذا تقصد؟

قلت هذا بالضبط ما يحدث الآن.. ارتفعت الأصوات، لا لأنها لم تكن موجودة قبل ذلك. ولكن لأن لديها الحرية في أن تعلو وتتعالى.. وأكثر من حريتها أن أصحابها لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالأصوات والاعتراضات والمؤامرات كانت موجودة قبل ذلك، ولكن كان سخطها همساً وثورتها صمتاً.. فالخوف قد جمدها في حناجرها. وأطاح بالأعناق فلم تعد لها حناجر.. أما الآن.. ففي استطاعة أي إنسان أن يقول ويصول ويجول، فإذا عاد إلى بيته لم يجد أحداً تحت السرير في انتظاره، أو جهاز تصنت تحت المخدة، أو يجد رجال الأمن الذين ضبطوا حركاتهم على صوت المؤذن.. فإذا قال المؤذن: اللّه أكبر.. قالوا: بل السجن أكبر.. حدث ذلك.. ولكننا نسينا.. أو لأنكم كنتم صغاراً لا تعرفون.

وننتقل من كل شيء إلى الدين. آمنت باللّه. وآمن كل إنسان بمن يراه إلهاً، فديننا يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. وإذا كانت الأرض للناس، فالسماء للجميع. وإذا ضاق الناس بالناس، فرحمة اللّه قد وسعت كل شيء وكل أحد..

وكما يحدث بعد نقاش طويل أن نسكت طلباً للهدوء، أو تأملاً لخطوة جديدة على طريق آخر.. فأشار واحد منا إلى العمارات.. إلى شاطيء النيل: ما رأيك؟

قلت: أعرف رأيك. وأجد لك عذراً.

فهو قد جاء من السيدة زينب سيراً على قدميه.. والآخر جاء من القلعة ومعه خطيبته المحجبة.. وفتاتان جاءتا من إمبابة.. إنهم جميعاً من أبناء الطبقة الوسطى.. أو التي هي دون الوسطى..

بيوتهم صغيرة.. وقلوبهم أضيق من بيوتهم، وخيالهم أوسع من كل شيء.. ثم إنهم شديدو الحساسية لمتاعب الأب والأم، ويعانون من زحمة الإخوة على الطعام القليل. فماذا فعل بهم هذا الضيق؟!

إنهم شبان.. أى شديدو الحساسية. وهم أكثر إحساساً بظروفهم العائلية وأوضاعهم الاجتماعية ومستقبل أيامهم فى الجامعة.. وبعدها فى أى مكان من مصر أو من العالم العربى.. ويرون أن الضيق عام.. وأن السبب ليس دائماً فى مصر، إنما يفد إليها من الخارج.. وهو أحد «النواتج الثانوية» لصراع السياسة والدين. ونحن أمام نوعيات من السلوك. فشاب يضيق بهذه الأوضاع، ولا يقبلها. ويقف عند رفضها. وشاب يحاول أن يبحث عن كيفية للقضاء عليها. وهو وحده لا يستطيع، وأفكاره الصغيرة لا تسعفه. ولذلك يتجه إلى الآخرين وأفكار الآخرين. وينضم إلى مذهب فى السياسة أو فى الدين. والمذهب هو مجموعة النظريات التى تفسر الحياة الاجتماعية. وتقدم لها حلاً..

ولأنهم جميعاً من الشبان، ولأنهم يدرسون، ولأن الدراسة مرهقة، والامتحانات مفزعة، والوقت ضيق، والمشاكل أكبر من أن يتفرغ إنسان واحد لحلها، فالشاب عادة يستسلم للآخرين وأفكارهم. ومعنى ذلك أن الشاب عندما يقرر أن يكون له رأى، ورأى مستقل، فإنه يفقد رأيه عندما يعطى رأسه لمن يركبه، وعقله لمن يشحنه، وعندما يكتشف الشاب أنه قد أضاع ذاته وهو يبحث عن تأكيد لها، فإنه «يتعصب» لرأيه.. أى للرأى الذى اتخذه دون تفكير..

وكما أن هناك شباناً يرهقهم البحث عن الحل، ويرهقهم

البحث عن تأكيد للذات، فينزلون عنها للآخرين، فهناك شبان آخرون لديهم القدرة على تسلق أعناق الآخرين، والتسلل إلى خفاياها. والتسلط عليهم. ولذلك وجدنا شباباً مثقفاً متميزاً قد استسلم لعدد من المتسلطين المتهوسين - أى للأقوياء المجانين..

من بين هؤلاء الشبان الطيبين.. هؤلاء الذين يهربون من الشارع إلى المساجد أو إلى الكنيسة. ومن يطلقون لحاهم، ومن يشجعون الفتيات على أن يكن محجبات حتى العينين واليدين.. ولا أحد يعيب مؤمناً إذا صلى، ولا إذا توضأ قبل الصلاة، ولا إذا أطلق لحيته.. ولا نحن نلوم فتاة تحجبت.. ولا لوم عليها إذا دعت غيرها إلى ذلك.. إنما هى الأخرى آمنت بفكرة، وتدعو إلى نشرها. والفتيات الأخريات لهن القرار فى النهاية: أن يقلن نعم، أو يقلن لا.. والأغلبية من الفتيان والفتيات يقولون: لا..

فنحن إذن أمام بعض الشبان الذين يفرجون عن أنفسهم بالصلاة.. لا لوم.. ويجدون أنفسهم فى طاعة اللّه.. لا عيب.. ولكنهم فى الحقيقة ليسوا جميعاً كذلك. إنما بعضهم قد اختار أسلم أشكال السخط أو التمرد أو الثورة.. اختار مظلة الدين.. أو حرمات المساجد أو الكنائس.. فهو ظاهر الغضب، ولكنه فى الحقيقة خفى التمرد - بالمعنى الذى شرحته منذ قليل.

هنا فقط يجب أن نتدخل نحن الأكبر سناً، والأكثر تجربة، وحراس السلام الاجتماعى والأمن القومى - حراس المجتمع من بعض أبنائه، حراس الوحدة الوطنية من بعض المضللين من أفضل أبنائها..

ولكننا نرتكب غلطة كبرى إذا عزلنا هؤلاء الشبان، ووضعناهم فى أحد المعامل، ورحنا نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، كأننا أمام نوعية بشرية غريبة.. أمام أهل الكهف أو أهل المريخ.. ولذلك يجب أن نضعهم فى بيئتهم الطبيعية.. أى نضعهم فى ظروفهم العائلية، والعلاقات الاجتماعية المصرية، والأطر الدينية والاقتصادية، وكما نرصد درجات الحرارة على المدن المصرية، ومسار الرياح التى تهب عليها، يجب ألا يفوتنا أيضاً أن نتحدث عن: من أين تجىء الرياح الباردة والساخنة والرملية.. ومن أين يتدفق عليهم الكلام وسوء الظن وسوء التقدير.. فإذا فعلنا ذلك، نكون قد حققنا أول شروط البحث العلمى.. ولأن موضوع البحث: شبان وليسوا أحجاراً أو حيوانات سامة كان لابد أن يكون التفاهم وسيلتنا إلى الفهم. ولا تفاهم بغير حوار. ولا حوار دون موافقة معلنة من الطرفين..

وفى مجتمعنا مشاكل كبيرة، لأنه مجتمع كبير، وفى حياتنا مخلفات لتغيرات لم تتم.. فهناك حسابات قديمة لم تتم تصفيتها تماماً مع ثورة يوليو: أهم أحداث مصر الحديثة والشرق الأوسط. فقد انشغلت الثورة بحركتها، عن تعقب فلول خصومها وجذورهم فى حياة الناس.. كما انشغلت الثورة بعد ذلك بتحديات الشرق والغرب، فانحنت وانكسرت وانتكست على نفسها.. ثم عادت الثورة فجددت ريشها، وطال جناحاها، وتحدد منقارها ومخالبها، وثارت على نفسها فى «مايو».. وانشغلت بقوة اندفاعها عن استئصال جذور الشك والمرارة والخوف عند كثيرين انتهى دورهم فى الحياة، ولكنهم لا يرون ذلك.. وينتهزون كل مناسبة لإبراز

شهادة ميلاد مزورة.. ويرفعون أصواتهم ولا أحد يمنعهم من ذلك.. إنها الحرية الآمنة. والأمان الحر. ثم إن لنا قضية أكبر هى تحرير مصر كلها من الاحتلال ومن العناء الاقتصادى إكمالاً للحرية الفردية وسواسية الناس أمام القانون.

ولا شىء يخلق التعصب ويضاعفه إلا تعصب آخر.. فإذا تعصب المسلمون تعصب الأقباط، فإذا قال المسلمون: ربنا فى السماء، قال الأقباط: وربنا أيضاً.

ـ ولكن ربنا أفضل.

ـ بل ربنا أفضل.

ـ وديننا.

ـ وديننا.

ـ وناسنا.

ـ وناسنا أيضاً..

ـ أنتم أقلية ونحن أغلبية..

ـ نحن أقلية فى مصر.. أغلبية فى العالم كله..

ـ بلادنا.

ـ بل بلادنا أصلاً.. والمسلمون هم الفقراء الذين لم يدفعوا الجزية لعمرو بن العاص.. أما الأقباط فهم الأقلية الغنية التى دفعت واحتفظت بدينها..

ـ نحن عشرة ملايين.

ـ بل أنتم ثلاثة ملايين إلا قليلاً. وقد أجريت أبحاث كثيرة شارك فيها عدد من أبنائكم وتأكدوا من صحة الأرقام.

ـ بل نحن.

ـ بل أنتم.. إلخ.

فما هو المعنى إذن؟..

إن هذا التعصب هو الذى يخلق تعصباً آخر أقوى وأكثر عدوى.. فالتعصب معناه أننى على حق وأنك على خطأ.. والتسامح معناه أننا نحن الاثنين على صواب.. وأنت حر فى رأيك وأنا أيضاً.. وأننا أولاً وأخيراً مصريون.. وخلاف الرأى وخلاف الدين لا يجعل منى عنصراً ويجعل منك عنصراً آخر..

ولابد أن نرى ماذا فعلت مثل هذه الأفكار الحانقة بلبنان وإيرلندا والفلبين، وبين الزنوج والبيض، وبين الكاثوليك والبروتستانت فى أوربا فى حروبها المتوالية.. وبين اليهود والمسلمين. والحروب الصليبية التى استمرت مئات السنين.. ولكن رغم كل هذه الخلافات الدموية، وجدت الشعوب حلولاً، ووضعت حدوداً. وعقدت زواجاً سعيداً بين الذين يحملون الهلال والذين يحملون الصليب.. وقد تحقق ذلك فى مصر سنوات طويلة.. فما الذى أنعش هذه الخلافات فى مصر؟!.. من الذى يحرص على أن تظل دماؤها ساخنة؟ من الذى يريد لمصر أن تتمزق وأن تتفتت، بعد أن أدى تماسك أبنائها إلى انتصارها فى الحرب وفى السلام؟!

إن أبناء مصر لا يريدون ذلك. فليس حب مصر والإخلاص لها والتضحية من أجلها موقفاً دينياً. إنما هو موقف وطنى حيوى. ثم إن مدافع العدو لم تفرق بين مسلم وقبطى.. ولا فرقت القبور بين بقايا مسلم ورفات قبطى.

إن كان رجال الدين يريدون ذلك، فهذا موقف سياسى شنيع!

وإن كان رجال السياسة يستغلون ذلك، فهذا موقف دينى فظيع!

إن مصريين كثيرين خارج مصر قد أفزعهم ما يقرءون فى الصحف الأجنبية، وما يجدونه على شاشة التليفزيون. فجاءوا إلى مصر. وساروا فى شوارعها، وترددوا على مساجدها وكنائسها. واطمأنوا على سلامة مصر، وعادوا سعداء بما وجدوا.. وإن كانت قد أحزنتهم تلك الحوادث الصغيرة العنيفة - وإن لم يكن لها حجم حوادث ١٨ و١٩ فإن لها مذاقها المر، وسخونتها التى من الممكن أن تنتشر..

ولذلك فمن الضرورى قبل أن تنتشر أن نوقفها بمنتهى الحسم والحزم.. أما الحسم فهو القرار القاطع النهائى، وأما الحزم فهو الحكمة التى يتجلى بها هذا القرار..

هل من الممكن أن تكون ثورة؟.. ممكن.. إذن فلابد من أن تكون القرارات - أى المعالجة الحاسمة الحازمة - قرارات ثورية. وسوف يكون لهذا القرار أثره العميق فى مصر وفى العالم العربى والإسلامى وفى العالم كله أيضاً.. فكل دبوس يسقط فى مصر يرن فى عواصم العالم. فقد ارتفعت مصر بالحكمة والشجاعة. وكل قرار تتخذه هو من هذا الوزن والحجم والمكان المحترم..

وعلى كثرة ما قرأت وسمعت وأتعسنى ذلك. فلا شىء أحزننى على الشباب مثل أن يكون لهم مثل هذا الشعار: السمع والطاعة لأمير الجماعة..

وكنت أفهم أن يقولوا: السمع وليس الطاعة. أى أنهم يسمعون

ثم يفكرون. ولا يطيعون إلا عقولهم.. أو إلا الذين هم أكثر علماً وفضلاً وإخلاصاً للدين وللوطن.

أو أن يقولوا: لا سمع ولا طاعة لأمير الجماعة.. لأن هذا الأمير ليس صاحب التجربة الشاملة. والفهم النافذ، والوعى العميق.. إنما هو واحد وجد أعناقاً قد انحنت فركبها، ورءوساً قد فرغت فملأها.. ولا لوم عليه.. إنما اللوم على الذين منحوه هذا الشرف الأليم..

وفى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم يطالعنا الرئيس السادات بتحليله الشامل لخريطة مصر السياسية والروحية، ويكشف لنا ما خفى من أمرنا، ويفزعنا على أنفسنا، ثم يطمئننا بحكمته، فليس موقفاً خطيراً ذلك الذى سوف يتخذه، إنما هو أخطر المواقف وأشملها وأبعدها أثراً.. اليوم وغداً!

# فلننظر وراءنا في غضب
# ولننظر أمامنا في أمل !

مهما حدث للشباب ومنهم، فلابد من أن نقترب منهم أكثر، ونستمع أطول، ونننظر أبعد، ونفكر أعمق، ونحلل أهدأ، وإلا استحال أن نعرف الداء ونصف الدواء. فالمريض هو حاضر مصر ومستقبلها أيضاً. وإن لم يكن الحاضر مريضاً كله، فالخوف على مستقبل مصر. فلانزال نحن الجيل الأقدم، نملك مقدرات الأجيال القادمة. وهذه الأجيال صناعتنا. وفى نفس الوقت هى أقوى اعتراض علينا. وهى لا تعترض على أننا مرتبطون بها، إنما على أنها مرتبطة بنا. ولذلك كان الاعتراض علينا رفضاً لنا..

ومن مظاهر الرفض ألا يؤمنوا بكثير من الذى نؤمن به فى السياسة والدين. لا لأننا على خطأ وهم على صواب. ولكن لأنهم يريدون أن يختلفوا عنا. وفى هذا الاختلاف يؤكدون ذواتهم فى مواجهتنا. وليس هذا جديداً. إنما حدث كثيراً فى التاريخ: فى سورة «لقمان» فى القرآن الكريم، وفى الإصحاح الأول والثانى عشر من سفر أيوب فى التوراة، وفى دون كيخوتة لسرفانتس، ومسرحية هاملت لشكسبير، ورواية البؤساء لفيكتور هيجو،

و«عودة الروح» للحكيم، وروايات نجيب محفوظ.. وسوف يبقى ذلك ما دام هناك شباب وشيوخ، وجيل قوى يذهب، وجيل جديد يريد أن يتعجل النهاية ويرث الأكبر سناً وهم لا يزالون فى روعة قوتهم وريعان عزتهم..

وقد أسعدنى أن يعلن الرئيس السادات فى المؤتمر القومى سنة ١٩٧٢ أن الشباب إذا لم يلعب دوراً كاملاً فى بناء مصر، ضاع منا الحاضر والمستقبل.. وقال أيضاً: إنه لا ينوى عزل الشباب أو ضربه أو احتواءه، وإلا كانت هذه خسارة للقوى صانعة المستقبل.. كما وعد فى خطابه إلى مجلسى الشعب والشورى أن يعطى فرصة للشباب الذى ضل - منتهى الفهم وحسن التقدير لشبان كان مثلهم، وكان غاضباً ساخطاً ثائراً، ولايزال يحاول أن يجمع شمل أهله ومواطنيه ويضعهم على الصراط المستقيم بين أحلام مصر وأهدافها.. وبذلك يعيد مصر النكسة إلى مصر السلام، مصر البكاء والعويل على الذى راح إلى مصر الفرحة بالجلاء التام والسيادة الكاملة على مقدرات بلدنا الأجمل والأعظم والأكرم والأغنى بشبابها الوطنى من كل دين وكل لون..

وربما كنت أكثر من غيرى فهماً لمشاكل الشباب: الدين والسياسة والعناء الاقتصادى.. فأنا أيضاً من أبناء الطبقة المتوسطة.. طبقة المرارة والطموح.. مرارة الطبقة التى تحتنا ونخاف أن نهوى إليها، وطموحنا إلى الطبقة التى فوقنا ونتمنى أن نكون من أبنائها..

فشباب الجامعات عنده إحساس بأنه هو أيضاً أقلية. أقلية

متعلمة فى شعب أغلبه من الأميين. إنها أقلية ممتازة. وعلى الرغم من أنها ممتازة، فإنها لا تحصل على ما تحلم به؛ وسبب ذلك أنها أقلية، وليس لها صوت مسموع، ولذلك يكتبون على الجدران، وما يكتبونه فهو لأنفسهم. مع أنهم يقصدون أن يكون ذلك مسموعاً عند غيرهم.. أى الأغلبية القوية خارج الجامعة.. ولأنهم أقلية فهم يشعرون بأنهم غرباء.. وأنهم بعيدون أو مبعدون أو منبوذون.. ولذلك كان ضيقهم بأنفسهم ثم ضيقهم بغيرهم أكبر وأعمق..

ومن مظاهر غضبهم من الأغلبية أنهم لا يرون رأيها فى شىء، ويرفضون ما تؤمن به فى الدين والسياسة والعلاقات الاجتماعية. لا لأن الذى يقبلونه أفضل، ولا لأن الذى يرفضونه أسوأ، ولكن لأن الرفض احتجاج، والاحتجاج هو أقصى ما تستطيعه الأقلية وراء أسوار الجامعة، ولذلك فالشباب يعتنق كل ما ترفضه الأغلبية.

وعندهم أسباب أخرى لذلك. من بينها أنهم يعتقدون أن الأغلبية قد تأكد فشلها وعجزها عن توجيه «بوصلة» الحياة العامة فى مصر إلى مستقبل مضمون.. وأكبر دليل على ذلك نكسة ٦٧. فهذه النكسة عار قومى. وهو عار يجلل هامات الجيل القديم الذى كان يجب أن يتنحى عن الحكم ويتركه لمن هو أفضل.. والأفضل هم الشباب. فالنكسة العسكرية أصابت مصر بنكسة روحية. فالفشل شرابنا، والهزيمة طعامنا، والعار بيتنا، واليأس نعشنا، وكل مسيرة جنازة للجميع. ومن العجيب - فى رأى الشباب - أن الشيوخ يمشون فى جنازة مصر مع أنهم قاتلوها ومشيعوها إلى مثواها الأخير!

ولذلك أصيبت مصر بأزمة فى الثقافة وفى الأخلاق وفى السياسة.. وقد شاركت أنا فى مناقشة قضية أزمة الثقافة فى مصر. وكان من رأيى – ولايزال – أنها ليست أزمة ثقافة، إنما هى ثقافة أزمة. فالنكسة أزمة، والتعبير عنها أو محاولة ذلك هو ثقافة الأزمة.. فقد كان المثقف المصرى والعربى مأزوماً ومتأزماً.. فجاءت أفكاره حزينة يائسة. إنه لم يسكت عن البكاء. ولم يكف عن اليأس. فقد قال كثيراً. والذى قاله هو صميم الثقافة، ولكن جوهر الثقافة هو الأزمة والتأزم. وأنا أعرف هذا المعنى تماماً. فقد كنت واحداً من مثقفى الأزمة الحضارية. فقد اعتنقت الفلسفة الوجودية زمناً طويلاً..

وقد حدث ذلك لأوربا فى أعقاب الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا. وكان من هذه الحرب ونتائجها التى لا هى نصر ولا هى هزيمة: أن تأزم الشعراء والأدباء، وأن تغلبت روح الهرب والانسحاب من الواقع، فكانت قمة الرومانسية.

وبعد الحرب العالمية الأولى، التى هدمت الحضارة الأوروبية على رؤوس صانعيها، ظهرت النزعات اللامعقولة والسريالية فى الأدب والفن..

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية بلغت الفلسفة الوجودية أروع ألوانها القاتمة.. فقد نادت الوجودية بمعارضة المجتمع، وفلسفته الاجتماعية والشمولية التى أدت إلى الدمار بسبب الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية والشيوعية السوفييتية والرأسمالية الغربية، إلى أن قامت بدور شمشون الذى هدم المعبد

على أعدائه وعلى نفسه.. وإذا كان شمشون فى التوراة قد قال وهو يهدم المعبد: علىَّ وعلى أعدائى يا رب.. فإن شمشون الحديث قد نسى «يا رب».. فقد انهدم المعبد دون وعد من أحد بأن يكون هناك رب أو دين جديد..

وليس غريباً أن تجد بين المقالات المكتوبة على حائط كلية طب القاهرة ١٩٧٢، من يقول: أين هو اللَّه؟.. نريد رباً جديداً..

وهذا يؤكد أن الشباب المصرى ليس كافراً بكل دين، إنما هو مؤمن إذ يتوجه إلى اللَّه أن يهديه إليه، وإلى دين جديد..

وفى أعقاب العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ على مصر، اجتاحت بريطانيا موجة من الغضب والسخط على الحكومة التى فضحت نفسها، وفضحت معها أنها تخفى استعماراً وحشياً دموياً وراء احترامها للحريات والدساتير، ولذلك بلغ «أدب الساخطين» فى بريطانيا أعلى درجاته. فظهرت مسرحيات جون أوسبورن، ودراسات كولن ويلسون.. وكان شعارها: انظر وراءك فى غضب.. وأمامك أيضاً.. وإن الذى يحدث فى العالم لا يعنينى.. فإننى لا أنتمى لأحد.. فالانتماء يحد من حريتى.. والمجتمع المتوحش يريد أن أنتمى إليه، ويتقاضى ثمن الأمن والأمان حريتى وفرديتى وشخصيتى ومستقبلى أيضاً ولذلك فالمثل الأعلى هو الإنسان «اللامنتمى»..

والمعنى واحد: لقد كانت الأفكار صورة وظلاً، بل صوتاً وصورة، لأزمة الضمير الإنسانى فى أعقاب الانهيارات الكبرى..

وقد جاء فى تقرير لجنة تقصى الحقائق إلى مجلس الشعب سنة

١٩٧٣.. أن الشباب يعانون من «الفراغ السياسى» أى أنهم يعانون من أن تكون لديهم فرصة ليشتغلوا بالسياسة وليعبروا عن ذلك.. وهذه الفرصة قد ضاعت بسبب اختفاء منظمات الشباب واتحاداتهم. وفى نفس الوقت عجزت «الأحزاب» عن مسايرتهم وتشجيعهم واحتضانهم واستقبال حيويتهم والحفاوة بها..

وكل شباب الجامعات فى العالم من أبناء الطبقة الوسطى.. أكثرهم كذلك.. والأقلية من الفقراء والأغنياء.. ولاتزال الطبقة الوسطى هى القوة المحركة لكل المجتمعات.. فهى أكبرها وأكثرها قلقاً وحيوية.. فهى تخاف أن تسقط إلى طبقة الفقراء.. وتجاهد لأن تصعد إلى طبقة الأغنياء.. واليأس هو الذى يهوى بها، والطموح هو الذى يرتفع بها. ولما كان تحقيق الطموح صعباً، كانت مرارة الشبان. وكان يأسهم أيضاً..

ومشاكل الشباب المعيشية من أسباب ضيقه العام: الطعام والشراب والمسكن والمواصلات..

ثم إن الشباب يشعر مرة أخرى فى داخل الجامعة أنه غريب بعضه عن بعض.. فقد أدت حرية التعليم إلى أن جاء من أعماق مصر شمالاً وجنوباً، شباب من كل لون، ولذلك احتاج الشبان إلى بوتقة قوية تذيب الفوارق بينهم. ولكن حتى لو ذابت فى صيغة سياسية أو دينية متطرفة، فإن المسافة بينهم وبين أساتذتهم لاتزال كبيرة. فالمدرجات والمعامل قد ضاقت بالطلبة. والمسافة كبيرة بين الطالب وأستاذه، فلا صداقة ولا أبوة.. وإذا كان الشباب يشعرون بأنهم أقلية فى البلد الواحد، فإن عزلتهم فى داخل الجامعة، تجعلهم

أقلية مرة أخرى. والقلق يطحن الجميع. والدراسة ترفع درجة حرارتهم. والوقت يسرقهم. ولذلك فهم يتعجلون النتائج. فليس عندهم وقت، ولا عندهم صبر. ثم إن الأغلبية الصامتة خارج الجامعة، يبدو صمتها قوة ورصانة واستخفافاً بهم أيضاً. وهذا يضاعف قلقهم ويغرى استفزازهم ويثير سخطهم، ويرفع حناجرهم.

ولذلك جاء في مقال على حائط كلية الهندسة سنة١٩٧٢ جامعة القاهرة: حتى لو قطعوا لساني، فإنني سوف أكتب على الماء!..

ولم ولن يفعل أحد ذلك، ولكنه الشعور بأن أحداً لا يسمعه، أو أن الذين سمعوه لا يريدون أن يسمعوه مرة أخرى.. أو لعله يثير زملاءه الصامتين أو المترددين، فيعيروه ألسنتهم أويربطوها الواحد بالآخر لتمتد خارج الأسوار.

ومن أهم معالم الشباب: الاندفاع واللامعقول أيضاً.. فهم مندفعون بما فيهم من حيوية وقوة. واندفاعاتهم ليست منطقية. لأنهم عاطفيون.. ولأنهم غاضبون فهم لا يرون بوضوح. ولا يسمعون إلى الرأى الثانى أو الثالث. وهم لا يسمعون لأنهم لا يثقون فى الآخرين - والآخرون هم الجيل القديم. ولذلك فعند الشباب تلتقى التضحية والانتحار. فالشباب بتكوينه مثالى. أى خيالى يحلم بشىء جديد يصعب تحقيقه. وفى اندفاع الشباب نحو تحقيق المثاليات السياسية والدينية يرتطم بالمجتمع الذى هو أقوى.. ويكون ارتطامه عنيفاً. فالمجتمع يحمى نفسه. ويرد بعنف على عنف الشباب. وقد يؤدى العنف الاجتماعى القانونى إلى الإضرار بالشباب.. وبذلك يكون موقف الشباب انتحارياً..

فالشباب عندما أراد أن يضحى بنفسه من أجل مبادئه ومثله العليا، انتحر وعطل مسيرته!..

وقد تحير الشباب، واضطرب بين نموذج البطل «هاملت» ذلك المثقف العنيف الانتحارى فى النهاية، وبين البطل «دون كيخوتة» ذلك المثالى المستعد دائماً لمساعدة أى مظلوم، حتى لو كان المظلوم خرافة. ولذلك كان دون كيخوتة يرمى بنفسه على الناس وتحت أقدامهم، دون أن ينظر إلى النتائج الهزلية أو المأساوية..

والذى يدفع الشباب إلى هذا الأسلوب العنيف أن لديهم إيماناً قوياً بأنهم أصحاب رسالة إصلاحية ثورية. وهم أصحاب رسالة لأن الجيل القديم قد فشل فى تحقيق رسالته، أو أنه خان الأمانة. ولذلك فالجيل الجديد من الشباب يكسب رسالته طعماً سياسياً أو مذاقاً دينياً، أو الاثنين معاً. ومادام الجيل القديم قد فشل فى سياسته، فسبب ذلك أن مذهبه السياسى هو الخاطىء. ولذلك اعتنق الشباب مذاهب سياسية عنيفة. وهى بالضبط ما لا يرتضيه المجتمع.. أو اعتنق الشباب مذاهب فى الدين أعنف، وهى تماماً ما يرفضه المجتمع.. ولذلك فالجماعات الدينية فى مصر هى ضد المسلمين، وليست ضد الأقباط. لأن الأقباط من دين آخر. وليس يهم الجماعات الدينية تبشير الأقباط بدين الإسلام، إنما تخليص الإسلام من المسلمين المعتدلين المتحللين الذين يتفرجون على التليفزيون ويذهبون إلى السينما ويلبسون المايوه على الشاطئ، بل الذين يكشفون وجه المرأة وكفيها، ويكشفون وجه الرجل أيضاً فلا يغطونه بلحية كثيفة.

وهـم يـرون ضـرورة تجـريـد الجيـل الـقـديم مـن شـرف القيادة والريادة.

ولذلك جاء فى مقال على حائط كلية الصيدلة فى جامعة القاهرة: إن الذين نطالبهم بأن يخفوا وجوههم خجلاً، قد عروا وجوهـهم وكشفوا عن سيقان بنـاتـهم وزوجاتـهم، وذهبوا إلى بيوتـهم يشاهدون أجساماً أكثر عرياً على شاشة التليفزيون الذى يبدأ إرساله بالقرآن الكريم وينهيه بالقرآن الكريم أيضاً!..

ولكن الشباب الذى أطال لحيته لكى يبدو أوضح، قد أخفى حـقـيـقـتـه. وذلك لأن المسلم والمسيحى واليهودى والماركسى يطيلون لحاهم أيضاً. تماماً كالشبان الساخطين والغاضبين والهيبيين قد أطالوا شعورهم ليختلفوا عن الرجال الذين يحلقون شعورهم، وليتقاربوا من الجنس الآخر. وعلى ذلك فبدلاً من أن يختلفوا عن الرجال الآخرين، يتشابهون مع النساء الأخريات.. فأضاعوا أحد معالمهم، عندما أرادوا أن تكون لهم معالم أخرى جديدة.. وعادت الفتيات فحلقن شعورهن ليختلفن عن الفتيات وليقتربن من الرجال. ولنفس السبب، فكانت نفس النتيجة!..

فما الذى يمكن عمله منذ اليوم والغد؟..

لقد قرأت بحثاً كتبه الزميل الكبير مريت بطرس غالى عضو مجلس الشورى عـن «الأقـبـاط فـى مصـر» ووجـه كـتـابـه (٤٥ صـفـحـة) إلى المسئولين وإلى أحبـائـه مـن المسلمين.. والكتـاب منطقى العبارة، هادئ النبرة. ولكن هذه النبرة تتعالى حتى تكون غضباً وسخطاً يعتذر عنه فى النهاية.. والكتاب أشبه ما يكون بالماء الصافى الذى اندفع بقوة تخرم الصخر، أو أقرب إلى

مسدس كاتم للصوت، ولكن طلقاته سريعة قاتلة. والرجل معذور، إنه يحب أهله ووطنه، ويتمنى السلام بين الأغلبية والأقلية: أية أغلبية وأية أقلية. ولذلك يبدأ كتابه بالحيرة بين الكلام والصمت. ثم يختار أن يتكلم. يقول الأستاذ مريت غالى: إنه حائر بين الإفصاح من أجل الإصلاح، وبين السكوت من أجل المحافظة على سمعة مصر فى الخارج، وعدم الإثارة فى الداخل.

ولكنه اختار أن يقول..

ولابد من أن نقول: ما الذى يعانى منه الشباب؟.. ولماذا؟ وما الذى يجب أن نفعله اليوم؟.. وما الذى يجب أن نقوم به غداً؟.. وقد لا يطول يومنا، ولكن سوف يطول غدنا.. والشباب هو غدنا الذى يجب أن يكون أفضل من يومنا، وأروع من أمسنا. وهذه هى الأمانة التاريخية التى ينازعنا إياها..

إن الفيلسوف العربى ابن خلدون عندما تحدث عن الفتوحات الإسلامية قال: إن الغزو يبدأ بالسيف، والاستقرار يكون بالقلم..

أى الغزو يكون بالاندفاع، والاستقرار يكون بالتفكير. والآن جاء دورنا لنتروَّى.. لنقول ويسمعوا. ويقولوا ونسمع. ونختلف ونتفق. وهم لاشك وطنيون مخلصون. ولاشك فى أنهم الأغلبية الطيبة، وأن بينهم أقلية مفسدة. وكل المفسدين أقلية. هم مفسدون لأنهم أولاً أشرار مارقون، ولأن أحداً قد شجعهم على ذلك. ويكون التشجيع بالاستسلام لهم، أو بالسكوت عنهم. فالدولة قد سكتت عنهم، وشبان قد استسلموا لهم. والشبان قد استسلموا.. أولاً لأنهم ليس لديهم متسع من الوقت ليفكروا فأراحوا أدمغتهم بأن فتحوها وتركوها. ولأنهم عندما انفصلوا عن الأب فى

الأسـرة، وانفطموا عن الأب فى الدولة، اتجهوا إلى أب جديد. أب من سنهم ومن جيلهم. فهو الأب والأخ الأكبر أيضاً. وهو قائد مسيرتهم فى الاحتجاج على كل الأشياء وعلى الآخرين..

فما العلاج؟ وما الحل؟ إننى أفضل كلمة الحل. لأن هناك مشكلة. ولا أفضل «العلاج» لأنه يوحى بأن هناك مرضاً أو وباء قد استشرى. فليس الشباب مرضاً، وليس غضبه وباء. إنما جوهر الشباب: الغضب. وجوهر الغضب: الاحتجاج. وسلاح الاحتجاج: سياسة ودين، والهدف هو: مصر.. مستقبل مصر..

الحل هو أن نصبر عليهم.. أى أن نعطيهم فرصة وعشرات الفرص. من الحوار والتفاهم. ولا يكون ذلك عن بعد.. إنما يكون من بينهم.

فـمن الـذى يـفـعل ذلك؟ كـلـنـا نـفـعل ذلك. الأب والأم والأخ والمدرس ورجل الدين ورجال السياسة. ولكن ليس رجال الأمن. فـالشـبـاب لـيسوا لصوصاً ولا مجرمين. ولا نـبعث لـهم بـرجـال المطافئ؛ فهم لم يشعلوا الحرائق، إنما حرارتهم هى دماؤهم. ودماؤهم مبادئ تجرى فى عروقهم.

إن الـتـقـريـرين اللذين أعدهـمـا مجلس الشعب عن «تقصى الحقائق» فى فتنة الطلاب والفتنة الطائفية، قد تحدثا عن أشياء كثيرة. ولكن عند تفسير الأحداث كان أسلوبهما هو «الدوران حـول الحقـيـقـة» وعـلـيـنـا أن نـذهب إلى الشـبـاب ونمد الأيـدى ونصافح ونعانق مستقبل مصر. ولكن ليس بالقبلات وحدها، كما ليس بالصفعات وحدها، نستهوى الشباب أو نصادقه أو نعيده إلينا. وليس بإزالة الأسوار بين الجامعة والشارع نرده إلى المجتمع الذى تمرد عليه. فهذه الأسوار حماية له، وليست حاجزاً

ضده، كما يتوهم بعض النافرين الرافضين.. فليست هناك حواجز بين هذا الجيل والأجيال الأخرى. وأكبر دليل على ذلك أن الجيل القديم يحاول أن يزيل آثار نكسة يونيو عندما انتصر فى أكتوبر ١٩٧٣ وعندما بادر بالسلام فى ١٩٧٧. كل ذلك من أجل أن يزول اليأس ويذهب الفشل، وتضيع المرارة من أفواه الجميع.. فالجيل القديم لم يسكت إنما هو يحاول. ولن تمضى شهور قليلة حتى تزول الآثار العسكرية للهزيمة. وبعد ذلك يبدأ التحدى الأكبر، عندما نتسلم بلادنا خالية من قوات الاحتلال حرة كريمة. نعيد بناءها وترتيبها من داخلها.. ونشحن قواتها من أجل ما هو أفضل لنا وللأجيال الشابة من بعدنا..

إن الجيل القديم قد أدى ما وجب عليه. وسوف تكون مهمة الأجيال الشابة، أعنف وأقسى. ولذلك يجب أن يستعدوا لها من الآن وأن يكونوا جادين. وأول مظاهر الجد: احترام الجهود المرهقة التى بذلها الآخرون، التى أدت إلى أن تعيد إليهم مصر كريمة عزيزة.. فليس من الجدية الحقيقية أن ترى نفسك وحدك على حق، وترى الآخرين على خطأ، وليس من الاعتزاز بنفسك أن تأبى على الآخرين ذلك..

فلنكن جميعاً جادين فى التفكير، لنكن صادقين فى العمل.. ولايزال أمامنا وقت. فليس متأخراً أن نبدأ، ولكن متأخر جداً ألا نفكر فى ذلك!..

ولنتفق جميعاً قبل أن نشرع فى حوار طويل، أن ننظر وراءنا فى غضب، وأمامنا فى أمل. فالذى حدث كان خطيئة سياسية ارتكبها رجال الدين، وخطأ دينياً اقترفه رجال السياسة!..

## عن الشباب فقط :
## قراءة صحيحة لمعلومات خاطئة !

لا يهمني كثيراً ما يقوله الآخرون عن مصر. فنحن أدرى بأنفسنا. ثم إن هؤلاء الآخرين غرباء عن مصر. ولذلك كانت نظراتهم مثل نظرياتهم غريبة. لأن اهتماماتهم بنا عابرة، وأحكامهم علينا خاطئة. فلسنا إلا خبراً فى نشرتهم اليومية، وهذه النشرة تتنافس فيها كل وسائل الإعلام الدولية، فهى فى حرب صوتية وضوئية على ملايين الآذان والعيون، وقد اعتاد الجميع على أن تكون الأنباء ساخنة، والحوادث دامية، والنار شاملة. فإن لم تكن كذلك، انصرفت عنها الملايين. فلابد إذًا أن يكون لأخبار مصر مثل هذا اللون والطعم والرائحة. وهكذا تعاون الكذب والفن الإعلامى على ظلم مصر - أى على تشويه اسمها ورسمها..

ونحن وحدنا الذين نعرف ما جرى، ونقدر ما سوف يجرى. ولسنا فى حاجة إلى أن نستورد عيون الآخرين، وأن نستعير آذانهم، وأن نضع فى رؤوسنا عقولهم، لكى نفهم مصر. إن فعلنا ذلك، وقفنا ضد مصر، لأننا عكسنا الأوضاع - أى أننا استعنا

بالصدى على قياس الصوت، وبالظل على رسم أبعاد الصورة، وبالغريب البعيد على فهم أقرب الأقربين!

ويكفى أن تعود إلى ما كتبته الصحف الأجنبية عن اضطرابات سنوات ٥٤ و٦٧ و٧٢ و١٩٨٠. فإن لم يكن هذا خطأ متجدداً، فإنه خطيئة مستمرة. ومعناها أننا رفضنا أن تكون لنا وقفة مع أنفسنا، فاتخذنا مواقف الآخرين الذين لا يعلمون. وإذا علموا فإنهم لا يقدرون، وإذا قدروا فإنهم لا يرحمون. ومن الطبيعى أن نعامل أبناءنا بالرحمة والعطف. ولكن حسن الفهم يجب أن يسبق الرحمة. فالعطف على الصغير مثلاً، ليس علاجاً لأخطائه، والبكاء إلى جانب المريض، ليس شفاء لأوجاعه.. والمهم أولاً أن نعرف وأن نفهم وأن نحلل وأن نشخص وأن نعالج، فإن شكا المريض مرارة الدواء شجعناه على احتمال ذلك حتى يتم شفاؤه، ونستأنف به ومعه ومن أجله رحلة الحياة..

ومن بين الأخطاء التى وقعنا فيها، أننا تصورنا الغضب والسخط مقصورين على الشباب المتدين..

فليس كل شباب مصر منضماً فى جمعيات سرية دينية أو سياسية.

ثم إنه ليس من الضرورى أن يكون لى مذهب فى السياسة أو فى الدين لكى أقول: إن المواصلات صعبة.. والإسكان أزمة.. والشوارع مطبات.. وخلو الرجل أبعد من أن تصل إليه رجلى أو يدى.. وإننى أفضل القناة الثانية فى التليفزيون على الأولى.. وإنه ليس من أجل أن أضيف يوماً فى حياة فؤاد سراج الدين

تحذف عشرة آلاف يوم من حياة ثورتى يوليو ومايو.. إلى آخر ما يمكن أن يقوله أى إنسان عن حياته الخاصة والعامة.

ولكن إذا اتخذ الضيق ستاراً دينياً، فسبب ذلك أن الدين عميق عندنا. وأن الشباب مثالى بتكوينه. وان أروع المثاليات هى التى جاء بها الدين الكريم. ولأنهم شباب فهم غاضبون. ولأنهم مثاليون فهم متشائمون. لأن المثالى هو الشخص الذى لا يرضيه الواقع، ويواجه هذا الواقع بأحلام رفيعة يتمنى تحقيقها. ولما كانت ذراعه لاتزال قصيرة.. أو لما كانت المسافة بين ما يقوله بشفتيه وما يعمله بذراعيه طويلة عريضة، فهو عاجز عن أن يحقق الحلم الذى يتمناه. ولذلك كان لابد من أن ينضم إلى الآخرين، لتكون منهم جبهة أو حزب أو جماعة تواجه المجتمع الذى سبقهم إلى الوجود، والذى سوف يبقى من بعدهم.

والشبان أكثر حيوية، ولكن ليسوا أقدر الناس على تصريف طاقتهم بالعقل، إنما أقدر منا على بذلها بدون حساب، أى بدون عقل. أى بالاستسلام لدوافعهم القوية دون قيد عليها. ولذلك كان استسلامهم للنزعات المتطرفة شيئاً طبيعياً. لأنهم متطرفون بتكوينهم العاطفى. ولأنهم ساخطون على الأوضاع الاجتماعية. ولأنهم رافضون لكل أب ومدرس وحاكم ورجل دين. ولذلك فقد أسلموا قيادتهم لمن يجمع كل هذه الصفات - فى رأيهم..

وإذا نحن قرأنا ما نشرته الصحف الأجنبية وجدنا شيئاً غريباً عن الحقيقة، فالذى يقرءونه صحيح، ولكن الذى يفهمونه خطأ؛ فهم يقارنون بين الغضب الدينى الشاب فى مصر، والغضب

الدينى فى سوريا ولبنان وإيران. مع أن الغضب فى سوريا مسلح بين الأقلية الشيعية والأغلبية السنية. كما أن الغضب بين إيران والعراق هو غضب أبناء المذهب الشيعى الواحد. هذا الغضب اتخذ شكل الصراع المسلح الذى طال، وإذا انتهى فبغير انتصار. لأن قوات الدولتين تهتز ولا تتقدم، والحرب فى لبنان هى بين المسلمين وبين المسيحيين واليهود. حرب دينية وسياسية وصليبية وهلالية وصهيونية وأمريكية وسوفييتية وفلسطينية وبترولية. لقد بدأت بوضوح، وليست لها نهاية واضحة..

ولا شيء من ذلك فى مصر. فهم فى كل هذه البلاد الإسلامية ينزفون الدماء، ويشعلون النيران، ويتلقون السلاح الأمريكى والسوفييتى.. وهم يحاربون فى العراق خوفاً على سقوط خومينى، وفى لبنان خوفاً على سقوط الأسد، ويحاربون فى تشاد ومندناو والكونغو وأيرلندا ومالطة حتى لا يسقط القذافى..

وإذا كان اليساريون هم الذين قادوا المظاهرات ضد الشاه فجاء خومينى، فهم الآن ينظمون المظاهرات ضد الامبراطور خومينى، ليجيء الرفيق خومينى.. فخومينى جاء على أكتاف الشيوعيين، ويباق بأسلحة إسرائيل، حتى لا تتوقف حربه مع العراق وحتى لا تكون بين المسلمين وحدة فى الشرق الأوسط..

وربما كان أقباط مصر يلعبون نفس الدور. وهذه وجهة نظر إسرائيل– فإذا أحد شجعهم على الشقاق والفرقة والفتنة المستمرة، كان ذلك مساعداً على ألا تكون وحدة فى مصر، وألا تكون وحدة بين مصر والبلاد العربية والإسلامية الأخرى.. وبدلاً من أن تكون

إسرائيل جزيرة فى بحر عربى إسلامى.. تكون جزيرة فى بحار عربية لها أمواج متضاربة الأديان والمذاهب والعناصر والمصالح.

فليس الذى حدث بين شباب مصر شيىءٌ من ذلك. إنما هو لعب بالنار. ولكن على الرغم من أن هذه النار متواضعة، فإننا على ضوئها رأينا جراحنا. ورأينا أسلحة نخفيها وراء ظهورنا. والتاريخ يحدثنا كثيراً عن أعواد من الكبريت أشعلت حرائق كبرى..

ولكى يكون الخلاف فى الرأى بين الشباب حاداً، وليكون الخلاف صراعاً، فلابد من أن يقف أناس ضد أناس. ويقولوا: نحن وهم.. وهذا رأينا وذاك رأيهم..

ولابد من أن تكون هناك «حدود» غير آمنة.. بين هذه الأقلية الشابة الصغيرة، والأغلبية الكبرى من بقية الشعب..

ولابد من أن تكون هناك منطقة عازلة.. أو أن يكون «سد».. أو خط فاصل.. وهذا ما فعلته الجماعات الصغيرة عندما تحدثوا عن دينهم وديننا، ومجتمعهم النظيف ومجتمعنا الفاسد.. ولذلك وضعوا لأنفسهم كل الفواصل الفكرية والمادية، فكان لهم رأى خاص وملامح خاصة ولغة سرية.. وهكذا عزلوا أنفسهم، وتوهموا أنهم عزلوا كل الناس ونبذوهم..

وفى كتب «علم النفس التحليلى» نموذج معروف لجنون العظمة أو للاضطهاد العقلى: إنها قصة رجل أدخلوه مستشفى المجانين. ثم زاره أحد الأصدقاء، فوجده هادئاً منطقياً. فأدهشه ذلك. وسأله: أنت هنا لماذا؟ فأجاب الرجل: لسبب بسيط جداً. أنا أقول إن كل الناس مجانين. والناس يقولون إننى وحدى

المجنون. ولما كان الناس أقوى منى، أتوا بى إلى هنا، ولما كنت أضعف من كل الناس، لم أستطع أن أحبسهم هنا!

ولنفس السبب «يتوهم» هؤلاء الشبان المثاليون أنهم قادرون وحدهم على علاج كل الأمراض. وفى مقدمة هذه الأمراض: المجتمع كله. وإذا سخر منهم أحد، ردوا إليه السخرية بأسوأ منها. ربما استحضروا قصة نوح عليه السلام. الذى راح يصنع سفينة على الأرض، بعيداً عن الشاطىء. وكان أهله يسخرون منه لأنه لم يذهب بالسفينة إلى القرب من الماء. ولكن نوحاً عليه السلام نبى الله يعلم ما سوف يحدث، فجاء الطوفان إلى حيث السفينة ورفعها لينجو نوح وأهله، ويهلك قومه جميعاً..

وإذا توهم الشبان ذلك فإنهم يبالغون كثيراً فى قدراتهم، ويبالغون كثيراً فى عجز المجتمع عن صدهم وردهم..

أما المؤرخ العظيم توينبى حين يتحدث عن «المبررات» التى تخلقها الجماعات الإنسانية لتهرب أو تتفرق فى الأرض، فإنه يضرب مثلاً قصة سد مأرب.. ذلك السد الذى أقيم فى اليمن ليتجمع الماء أمامه، فيستعين به الناس عند الضرورة. هذا السد قد اكتسحته المياه، فغرقت الأرض ومن عليها. فتفرقت القبائل اليمنية فى أنحاء شبه الجزيرة العربية.. ويقول توينبى إن الذين يقيمون السدود يحتاطون لها حتى لا تنهار، فتكون هناك فتحات لتخفيف الضغط على جدران السد.. لأن الماء أمام السد يحاول أن يكون فى مستوى سطح الماء وراءه. فهناك دائماً مستويان وراء السد وأمامه. وهناك ضغط مستمر فى كل

الاتجاهات. فالماء يريد أن يهدم السد، والسد يريد أن يوقف الماء حتى لا يغرق الذين صنعوه ـ هذا فى السدود الهندسية، أما «السد المعنوى» فهو أن الشعوب إذا لم يكن لديها سد فإنها تخلقه، وإذا لم تخلقه فإنها تتوهمه.. ولذلك لا توجد حضارة قديمة ليس فيها فيضان أو طوفان يغرق الناس ويهلكهم، ليظهر واحد أو جماعة ينجون من المـوت. وتكون نجاتهم استئنافاً للحياة الجديدة، على أسس غير القديمة الفاسدة.

ويقول المؤرخ العظيم توينبى: لا توجد ظاهرة أو حركة تمرد أو اضطرابات أو ثورة لا يتخيل القائمون بها: ان هناك سداً مانعاً منيعاً، وان هناك طوفاناً، وان هناك سفينة للنجاة.. وان هناك أكثر من نوح. وكما أن التاريخ الدينى قد عرف نوحاً واحداً، فإن الحركات الدينية فى طول التاريخ وعرضه قد عرفت ألف نوح ـ إنهم أنبياء كاذبون!

وليس هؤلاء الأنبياء الكاذبون إلا مجموعة من المتعصبين المتهوسين..

والتعصب ليس هو الإيمان الشديد.. لأن الإيمان الشديد هو أن تتحمس لرأيك وتدافع عنه، وفى نفس الوقت ترى أن هناك آراء أخرى تختلف معك. أما المتعصب فهو صاحب الإيمان الشديد بأن رأيه هو الرأى، ولا رأى غيره. فالمتعصب هو الذى يرتدى ملابس رجال الدين ويخفى وراءها خنجراً يقتل به من يخالفه.. فهو يقتل الرأى بالسكين.. وهو ليس إلا مجرماً عادياً سرق مسوح رجال الدين لتكون جريمته مقدسة!

فالمشكلة التى أمامنا وحولنا ليست: الإسلام أو المسيحية والإيمان بهما. إنما هى سوء الفهم وسوء التقدير..

أذكر أننى جلست أمام المسجد الحرام على أحد المقاهى. وكنا ثلاثة من المفكرين: إيرانى ومغربى وأنا. واختلفنا فى أشياء كثيرة. ولم نكن هازلين عندما سألنا زميلنا الإيرانى إن كان مسلماً حقاً. وأدهشنا الرجل عندما قال لنا: بل هذا ما أردت أن أقوله أيضاً!.. وكان افتراقنا دون تحية، دليلاً على ضيق أفقنا، لأنه لا يوجد أى سبب يدعونى لأن أعاديك لمجرد أننى اختلف معك فى الدين أو المذهب، أو اللون أو الطبقة. فهذه خطوط أساسية فى اللوحة الإنسانية!.. فأنا لا أعادى إنساناً لاختلافه فى الدين، أو فى اللون، أو فى السيجارة التى يدخنها..

وعلى مسارح برودواى بنيويورك الآن مسرحية اسمها «أماديوس» عن الموسيقار النمساوى أماديوس موتسارت، من تأليف بيتر شافر. وفيها صراعات حادة بين الموسيقار والنقاد والحاسدين والذين يدورون حول عروسه الحسناء. ولكن فى موقف رائع يقول موتسارت: لن نتفق. ولا أظن ذلك ضرورياً. فمادام الله قد خلقنا اثنين وليس شخصاً واحداً، فحكمته أن نكون اثنين مختلفين فى كل شىء، فكل منا يريد أن يقضى على الآخر، ويلغى بذلك قراراً أصدرته السماء إلى سكان الأرض أن يكونوا كثيرين مختلفين، وأن يكونوا مختلفين كثيراً.. فلولا اختلاف النغمات ما كان اللحن الواحد.. تعالوا نرقص ونغنى ونقدس خلاقنا الجميل.. إلى الأبد!

ولا أدعى أننى أعرف بالضبط ما الذى يقوله الشبان عن كل الذى قيل فى التعريف بهم، وتحليلهم وتحريمهم وتبرئتهم وتجريمهم. لا أعرف.. فنحن لانزال فى قلب «المعركة» الفكرية، ولم نبتعد عنها مسافة تسمح لنا بالرؤية من بُعد.. أى بالرؤية الواضحة. ولا أظن ذلك ممكناً، فأينما نكن ومتى نكن اليوم وغداً، فنحن محاطون بالشباب. وربما كان هذا أفضل، لنراه ونسمعه ونعايشه ونحاوره وتنتقل إلينا هذه العدوى الحارة القلقة والنبيلة أيضاً. فنكون نحن وهو شخصاً واحداً: نتحدث بلسانه مرة، ونتحدث إليه بلساننا مرة أخرى. وليست لجان «تقصى الحقائق» إلا بعثات إلى قلب الغابات الشابة، وإلى ما تحت سطح مياههم المضطربة، لعلنا نعرف. وقد عادت هذه اللجان بمعلومات كثيرة. جمعتها وناقشتها. ثم قامت بتحليل الدم ورسم الأشعة ودراسة لتاريخ المرض ومعرفة ظروفه المادية والاجتماعية والدينية والسياسية، ثم أصدرت تقاريرها عن ذلك.

وهذه التقارير توافرت لها النية الحسنة ـ أى أننا نريد أن نعرف وأن نفهم وأن نحلل وأن نشخص وأن نعالج. وأن يؤدى العلاج إلى الشفاء التام. وهذا طموح عظيم. لأن هذه المتاعب المعقدة ليس من السهل علاجها مرة واحدة، ولا من تشخيص واحد، مهما كانت النية طيبة وخالصة لوجه اللّه والوطن. والرسول عليه السلام هو الذى قال إن الطريق إلى النار محفوف بالنيات الحسنة ـ أى كم من الجرائم قد ارتكبت بحسن نية، تماماً كالذى يعطى مريضاً طعاماً لأنه وجده هزيلاً، فيموت المريض، والقاتل اسمه: القلب الطيب!

وقد قرأت كل التقارير التى تعب أصحابها فى جمع المعلومات وتصنيفها واستخراج الدوافع وراءها. واسترحت إلى حقيقة واحدة، هى أن التقارير قد انتهت بأنه لا أحد مجرم ولا أحد برىء. هناك جريمة لاشك، ولكن لا يوجد مجرم، وهناك حكم بالبراءة أيضاً، لأنه لا توجد جريمة.

إذن فإذا كان يهوذا الذى خان المسيح عليه السلام بريئاً، فمن الذى باعه للرومان بثلاثين قرشاً؟!

فإذا كان المسلمون أبرياء والمسيحيون أيضاً، فمن الذى أشعل الفتنة الطائفية؟

وإذا كان «الفراغ» السياسى والتربوى والدينى والاجتماعى، هو السبب فى كل هذه المشاكل، فمن الذى نتجه إليه حتى لا تتكرر هذه الاضطرابات بين الشبان؟..

ثم كيف نتهم الساسة القدماء والشيوعيين المخربين والذين يدفعون الأموال لإفساد الحياة العامة فى مصر؟..

فإن قلنا إن الشباب المصرى قلق لأنه متدين، فقد أسأنا تقدير كل شىء..

وإنما هناك من أساء استغلال هذا القلق ضد الشباب وضد مصر.. وإذا قلنا إن الساسة القدماء والإرهابيين قد تعانقوا لإسقاط مصر، ففى ذلك تعظيم لدورهم، وتحقير لوضعنا الآمن المستقر.. وإذا ألقينا الجميع فى وعاء واحد وفى صبغة واحدة، فأصبح لهم لون واحد، فقد أضعنا المعالم المميزة لكل نوع من هذه الأنواع التى يجب أن تعالج على حدة، وأن توضع معاً لنعالجها جميعاً!

إننى أتقدم بالشكر لكل الذين تقصوا الحقائق، ولكل المخلصين فى فهم الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية المعقدة.

وبعد ذلك وفوراً يجب أن نبدأ مناقشة هذه التقارير وهذه اللجان.. التى لم تتخذ وقتاً كافياً فى الجمع والاختيار والتنسيق والتحليل والتنظير. لأن الموقف أخطر من ذلك كثيراً. فليس قراراً نهائياً أن تصدر البراءة فى هذه القضية، ولا نهائياً أن تصدر الإدانة أيضاً. ولذلك يجب أن تستأنف هذه الأحكام، لأن الأمر يتعلق بالشباب الذى يتجدد عاماً بعد عام.. وجيلاً بعد جيل. ولأن واجبنا ليس أن نغسل أيدينا من دم أحد، ولا أن نبقيها دامية.. إنما مصر تدعونا أن ندفع بقوى شبابنا إلى أن يحقق ذاته، وإلى أن يستثمر شبابه من أجل حياته هو، وحياة جيله، ومستقبل مصر..

والذى فعله مجلسا الشعب والشورى، ليس إلا خطوة أولى. خطوة قصيرة فى طريق طويل..

إن العالم الآن يناقش قضية جديدة عجيبة: هى صناعة الموهبة الشابة.. أى كيف تصنع الدولة شاباً موهوباً.. لأن هناك رأياً يقول إن الموهبة يجب ألا ننتظرها حتى تجىء.. كما ننتظر السحب التى تجىء من بعيد لتسقط أمطارها علينا.. إنما يجب أن نصنع الموهبة. كما نسقط الأمطار الصناعية.. وكما أن صحة الجسم «كيمياء».. فكذلك صحة العقل.. وكذلك العبقرية يمكن «تخليقها»..

وقد حدث عندما أطلق السوفيت أول قمر صناعى، أن أحس الأمريكان بالهوان وعظيم الاحتقار: إذ كيف يسبقهم الروس: هؤلاء الذين لم يصنعوا لأنفسهم سيارة أو ثلاجة أو فرناً كهربياً ولا يعرفون الرفاهية الأمريكية؟!

وعكف الأمريكان على مراجعة جميع برامج التعليم فى البلدين، ليعرفوا لماذا تفوق الروس..

وفى ذلك الوقت اهتزت أمريكا من أولها لآخرها، لأن أحد الشبان قد ظهر فى التليفزيون يجيب عن أى سؤال من أى نوع، ويتقاضى ملايين الدولارات فى كل أسبوع.. وأمام التليفزيون جلست الأمهات الأمريكيات «يتوحمن» على هذه المعجزة الإنسانية. وتمايلت أمريكا طرباً عندما ظهر هذا الشاب يجيب عن مثل هذه الأسئلة: كم شعرة فى رجل البرغوث؟.. وما لون حذاء مارى انطوانيت عندما شنقوها؟.. ولماذا كان نابليون يبكى بعينه اليسرى فقط؟.. ومن هذا الطفل الذى كانت له عين زرقاء وعين خضراء؟.. وما رقم القضية التى رفعها زنجى ضد زوجته التى أنجبت له طفلاً أبيض؟.. وأين كان ذلك ومتى وكم كان عدد الحاضرين فى هذه الجلسة؟.. وما الذى قالته زوجة القاضى التى كانت تجلس فى الصف الأول من المحكمة؟.. إلخ.

وفجأة انكشف هذا الإنسان المعجزة. إنه غشاش يقتسم هذه الجوائز المالية مع الشخص الذى يعد له البرنامج - وكانت فضيحة كبرى فى أمريكا. وعلى الرغم من أن الأمريكان قد أغرقهم العار القومى، فإن بعض الحكماء قد برزوا برؤوسهم من تحت الوحل، ليتساءلوا: ولكن لماذا لا تكون عندنا عبقريات من هذا النوع وأفضل؟ لماذا يتفوق الروس فى إطلاق سفن الفضاء، بينما نحن نزحف على الأرض؟.. أهى الديموقراطية؟ أهى حياة الرفاهية التى يعيشها الشعب؟ أهى التربية العسكرية والحزبية السوفييتية؟ أهى الديانة المسيحية؟

ونحن لسنا غارقين فى العار أو الوحل، فقد تداركنا كل شىء قبل أن يكون أخطر. ولابد من أن يطل أحد برأسه ويتساءل فى حكمة وحسم: إن القضية لم تدرس دراسة كافية. ولذلك فلابد من فتح الملفات. فقد انتهى دور رجال مجلسى الشعب والشورى، ويبدأ دور رجال العلم والدين - علماء النفس والاجتماع والصناعة والزراعة والنقابات، دون أن يكون لهم وقت محدد للدراسة أو إعلان النتائج.

والذين استراحوا إلى هذه التقارير التى أصدرها مجلسا الشعب والشورى، هم الذين لا يعنيهم الأمر كثيراً. لقد كانت قراءتهم صحيحة لمعلومات ناقصة، أما الذين لم يستريحوا إلى ذلك فلأنهم كانوا ينتظرون شيئاً أخطر وأعمق. فالسرعة ليست مطلوبة، كما يحدث عند استخراج شهادة الميلاد، أو التصريح بتشريح الجثة أو دفنها!

ويكفى أن أسوق تحفظاً واحداً، وهو أن مشاكل الشباب فى مصر يجب ألا ندرسها بعيداً عن مشاكل الشباب فى العالم، ومحنة الديموقراطية فى نفس الوقت، أى فى أعقاب الهزائم النفسية الكبرى، أى الهزائم القومية.. والمصاعب اليومية..

ولم أجد لشىء من ذلك صدى أو إشارة واضحة فى التقارير الرسمية.

وحيث انتهت هذه التقارير يجب أن تبدأ دراسة علمية متأنية.. والوقت معنا ولصالحنا..

# جاليليو: لا يكون زعيمـاً!

مـاذا يحدث عندمـا يسقط رئيس؟..

يحدث نفس الشيء عندما تغرق سفينة في البحر، تصنع دويًّا وارتباكاً في الماء، وبعد ذلك يسكن البحر، ولا يرى أحد شيئاً بعد ذلك.. ولكن عندما يسقط بطل فإنه يكون مثل واخد من جبال الجليد: أقله على السطح وأكثره في الأعماق.. أو مثل جزيرة أغرقتها أمواج المد، لابد من أن تنحسر هذه الأمواج فتظهر الجزيرة بوديانها وجبالها. وكل الذى أصابها هو أن المياه قد غسلتها والعواصف قد جففتها والشمس قد صبغتها..

حدث ذلك كثيراً في التاريخ. وفي مصر أيضاً..

فعندما مات جمال عبدالناصر، أحس الناس بأنهم يتامى.. وأن أباهم الذى انكسر وانهزم ومرض قد أهين في كبريائه، وأنهم أيضاً أهينوا.. ومهما أصابه وجرى له، فهو أبوهم. ومهما انكسرت ذراعه وقطعت ساقه ونقص وزنه وسعره في سوق السياسة، فهو أبوهم الذى عرفوا معه وبه أياماً سعيدة. وعندما قرر عبدالناصر أن يعتزل أفزعهم ذلك. فقد أحسوا أنه مثل قائد

طائرة قرر أن يهبط وحده بالمظلة ويترك الطائرة نعشاً ضالاً فى الفضاء.. تماماً كما هدد السادات أو وعد بأن يعتزل.. كان أول الذين أنكروا عليه ذلك نائبه حسنى مبارك.. وذهب النائب إلى أبعد من ذلك، فقرر هو أيضاً أن يعتزل مقعده لأنه كان نائباً لرجل واحد، ولا يستطيع أن يكون نائباً لغيره..

وعندما مرض عبدالناصر تساءل العالم: بعد عبدالناصر من؟..

ولم يجد الناس جواباً لذلك. فلم يكن السادات بارزاً إلى جواره. فقد أخفاه جمال عبدالناصر. وضعه فى الظل. وقد أساء عبدالناصر فهم السادات. ولأنه أساء فهمه أبقاه إلى جواره غير خائف منه. فعاش أنور السادات أكثر من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، لأنه أقلهم خطراً وأقلهم طموحاً، وأقلهم موهبة ـ هكذا اعتقد عبدالناصر.. وجاء السادات وأثبت أنه خلافاً لكل الحسابات السوفييتية والأمريكية والمصرية: موهبة فذة ولكن من طراز آخر. وأثبت السادات أن حياته التى طالت فى ظل عبدالناصر، لم تكن لهواً وعبثاً وهرباً وسلبية.. إنما هو رجل سياسى معروف قبل كل قادة الثورة. وإنه حالم، وإنه خيالى. وإنه يؤمن بعبارة ماوتسى تونج الشهيرة: لا ثورة بغير شعر.. أى لا ثورة بغير خيال وإبداع. وكانت ثورة أنور السادات قمة خياله، وكانت قراراته هى الإبداع نفسه. ولذلك كانت قرارات جديدة غير تقليدية. وأول المفردات فى قاموس السادات: ان الصداقة عمل مستمر. وان العداوة هى رفض لهذا العمل. ولذلك أعاد صياغة القاموس السياسى. فكانت ثورة مايو، وكان طرد السوفيت، وكانت حرب أكتوبر، وكانت مبادرة السلام..

وأحس الناس أن السؤال عن خليفة لعبدالناصر، لم يكن إلا سؤالاً تقليدياً يدل على الخوف وسوء الظن.. لأن الإنسان لا يكون له إلا أب واحد مرة واحدة.. ولكن الزعماء هم آباء الشعوب، وهم يتوارثون الأبوة ويتوارثون الأبناء. والشعب الذى أخرج جمال عبدالناصر قادر على إنجاب السادات..

ولكننا لم نتساءل: بعد السادات من؟..

لأن السادات قد أجاب عن هذا السؤال، حين اختار الرجل الذى يجيء من بعده. وقد أعد خليفته، وأعد نفسه لهذا اليوم. فاختار حسنى مبارك. ورأى فى حسنى مبارك صورة لنفسه، ولكن أكثر حيوية. أذكر أن الرئيس حسنى مبارك كان يتحدث من مكتب الرئيس نميرى فى الخرطوم. وكنت جالساً مع الزعيم الراحل. وبعد أن انتهت مكالمة الرئيس مبارك قال لى الزعيم الراحل: إن حسنى يتصرف مثلى تماماً. فلو كنت فى هذا الموقف لفعلت نفس الشيء..

ثم سكت الزعيم الراحل ليقول: أنا لا استطيع أن أفعل مثله. إنه سافر وكانت له جلسة طويلة. ثم أجاب عن كل الأسئلة، ثم اتخذ قراراً، وسوف يسافر إلى سلطنة عمان. أنا لا أقوى على هذه الجهود الهائلة. حسنى يستطيع دائماً!..

وأذكر أن أحداً من الناس قد تطاول على الرئيس حسنى مبارك، وتضايق الزعيم الراحل لذلك. فقال لى: إن حسنى يستطيع أن ينسفه فى لحظة واحدة، ولكنى على يقين من أنه لن يفعل. لأن حسنى عاقل وموزون جداً..

وفى اليوم التالى قابلت الرئيس حسنى مبارك، وإذا به يردد

نفس كلمات الزعيم الراحل. فقلت له: إنك تقول نفس الكلمات التى سمعتها من الرئيس أمس..

وكانت دهشته بالغة. وقال: مع أننى لم أتحدث إليه فى هذا الموضوع. ولن أتحدث فى ذلك!..

فنحن - إذن - لم نسأل أنفسنا من الذى يكون بعد السادات.. فقد عرفناه بصفاته البطولية فى حرب أكتوبر. وقدمه لنا السادات عندما ألقى عليه أعباء الحكم والسياسة..

وكان أعنف امتحان للرئيس مبارك هو ما الذى يفعله بسرعة وبهدوء بعد اغتيال الزعيم الراحل. لقد رأيت الرئيس مبارك فى مستشفى المعادى جالساً إلى جوار التليفون يعطى أوامر فى كل الاتجاهات. وكان الحزن والهدوء والمرارة هى أهم معالمه. وظل جالساً على الرغم من أنه يعلم تماماً أن الفقيد العظيم فى لحظاته الأخيرة..

وقد خرجت السيدة جيهان السادات تطلب أن ترى الرئيس مبارك. وجاء إليها، وسمعتها تقول له: انتهى كل شىء. مصر هى الأبقى. أرجو أن تلتفت إلى مصر. فتجمع وزراءك وتدير شئون الدولة.. أرجوك..

وكانت كل الخيوط فى يده بسرعة. وكان – رغم الحزن والأسى والمفاجأة العنيفة– يواجه التحديات الجديدة. فالإرهابيون يريدون أن يمتحنوه. فكانت حوادث أسيوط وشبرا وغيرهما.. وكانت الاعتداءات المتكررة على رجال الأمن، حتى تسقط هيبة الأمن. وتكون النتيجة السريعة المحتملة التى يصل

إليها الناس هى: السادات قتله أحد ضباط الجيش وآخرون، ورجال الأمن قد أهينوا وفضحوا. فلا ثقة فى جيش ولا أمن؟! ثم إن هناك فراغاً بعد السادات. فليس أسهل من أن تسقط مصر، وأن يتطاول عليها القذافى والأسد وغيرهما!..

ولكن هذا الامتحان العنيف قد أثبت فيه الرئيس مبارك أنه ليس جديداً على هذه التحديات.. وأنه قد جربها وتدرب عليها. وعندما استعاد الأمن احترامه عند الناس، استرد الشعب شعوره بالأمان. وعندما استمع الناس إلى خطاب الرئيس مبارك وجدوا النبرة الهادئة المليئة القوية. وعندما تهدج صوته ونزلت دمعته، اهتزت قلوب الملايين فى مصر، وعندما وعد بالاستمرار والاستقرار استراح المصرى والأجنبى والأمريكى والإسرائيلى، وعندما وعد بسيف القانون امتدت الأيدى الشريرة تتلمس أعناقها، وتنفس الملايين راحة واطمئناناً.. وعندما تحدث عن الفساد واستغلال النفوذ، حصل فى نفس اللحظة على إجماع شعبى مطلق، فنحن نعرف أن هناك فساداً وانحرافاً وسلبية ورخاوة وطراوة، وتشكيكاً فى كل سياسة مصر الاقتصادية، وكل قراراتها التى تتضارب والتى يفزع منها رأس المال. وعندما أعلن أن الانفتاح الاقتصادى خط للدولة، لم يكن ذلك جديداً. ولكن الجديد هو أن الانفتاح يجب أن يخدم الصناعة والإنتاج وليس الاستهلاك الرخيص..

أذكر أننى سألت السفير اليابانى فى مصر منذ أيام، عن عبقرية الشعب اليابانى. وكان جوابه أنه لا توجد عبقرية، إنما

توجد مبادئ سهلة آمن بها الناس دون مناقشة. من بين هذه المبادىء أن الدولة تشجع الاستثمار فى خدمة الصناعة، وليس فى خدمة البناء والمواد الاستهلاكية فقط..

ثم ماذا يحدث إذا اغتيل البطل ولم نعرف الأسباب الحقيقية لذلك؟..

إن قلنا إن هذه إرادة اللّه، فهذا جواب لاشك فيه.. فالموت كالهواء نشمه فيصيبنا فى القلب والرئة والمعدة.. والموت فى أجسامنا كالميكروبات تماماً. آمنت باللّه..

فاللّه قدر أن يموت السادات وأن يكون موته عبرة، أو يجب أن يكون عبرة لنا..

فما الذى دفع هذا الضابط والجنود المزيفين إلى اغتياله؟..

هذه هى القضية. فليس أمراً عابراً اغتيال زعيم بهذه الصورة، وفى ذلك اليوم، وفى ذلك المكان. ولا يمكن أن يكون جواباً صحيحاً أن نقول: إنهم ليسوا إلا أربعة من المواطنين. وهذا عدد قليل. والإجابة صحيحة. ولكن يجب أن نتساءل: ولكن ما الذى استطاعه هذا العدد القليل الفدائى المنظم؟.. ولا يمكن أن يكون اغتيال الزعيم أمراً تافهاً، لأن الذين اغتالوه أربعة فقط من بين ٤٢ مليوناً من المصريين.. أو من ربع مليون جندى..

إذن فلابد من فهم سليم وتحليل دقيق لهذه الجريمة السياسية الاقتصادية الاجتماعية الدينية الوطنية العالمية..

نحن حين نفكر فى هذه القضية نكون عاطفيين. ولأننا كذلك فإن حساباتنا لا تكون دقيقة. فنحن الآن نتأرجح بين الحزن

والخجل - الحزن على العظيم الذى فقدناه، والخجل من أن يكون مصرعه برصاصنا فى يوم عيدنا وبين أشرف وأكرم رجالنا..

هل كان الزعيم الراحل يعلم أن حياته فى خطر؟..

من المؤكد أنه يعلم ذلك؛ لأن تحدياته هائلة. ولأن الأموال المرصودة لاغتياله أضعاف الأموال المرصودة لحمايته. ولأن الاغتيال من ملامح العصر. ولأن مصر أيضاً قد عرفت ذلك. فالرصاص انطلق على زعامات كثيرة: سعد زغلول وأحمد ماهر والنقراشى وحسن البنا وإبراهيم عبدالهادى وجمال عبدالناصر.. وحافظ الأسد وصدام حسين والإمام الصدر والملك فيصل وشاه إيران.. ومن قبل تمزقت قلوب الخلفاء الراشدين: عمر وعثمان وعلى.. وبعض الزعماء مثل لينين وتروتسكى وغاندى وبرنادوت وكنيدى والقس مارتن لوثر كينج والمطرب جاك ليمون وريجان والبابا..

إن الاغتيال أقدم من الموت فى التاريخ. فأول إنسان مات على الأرض كان قابيل ابن أبينا آدم عليه السلام. أما القاتل فهو أخوه. وكان الدافع هو الغيرة. ومعنى هذا القتل أن الأخ لا يريد أن يرى أخاه ولا يريد أن يسمعه. ولذلك اختصر وجوده بعنف فقتله. ومنذ ذلك الحين وأحفاد هابيل لايزالون يمسكون الأحجار والسكاكين والسيوف والرصاص والقنابل والرسائل المتفجرة..

أما أسباب ذلك فمختلفة..

وفى القاهرة تحدث السيد هانس جينشر وزير خارجية ألمانيا إلى السيد كمال على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، فروى له أنه كان وزيراً للداخلية، وعلى أيامه ظهرت جماعة

بادرمينهوف وغيرها من الجماعات الإرهابية. وقال: إنه مهما اتخذنا من احتياطات فسوف يجد بعض الناس ثغرة ينفذون منها. حدث ذلك كثيراً وسوف يحدث..

نحن إذن فى عصر الجريمة الفلسفية ـ أى أن المجرم يبرر لنفسه هذه الجريمة لأسباب دينية أو سياسية. أو لأسباب نفسية. أو لأنه تقاضى أجراً على ذلك..

وهم فى مصر قد ارتكبوا الجرائم لأسباب سياسية ودينية وإرهابية.. ولا نعرف بالضبط ما الأسباب الدينية مثلاً.. وكل ما نعرفه هو أن هذه الجماعات المنحرفة ترى أن دين اللّٰه ليس مطبقاً «حرفياً» على حياة الناس. وعلى ذلك فكل حاكم كافر. يجب القضاء عليه. فإذا فعلوا فجزاؤهم الجنة خالدين فيها ونعم أجر العاملين ـ ولذلك اتسمت أعمالهم أحياناً بالجرأة والانتحار.. أقول «أحياناً» لأن سلطات الأمن قد وجدت أناساً تستروا تحت اللحى السوداء والتردد على المساجد، وكانوا من اللصوص ومن أصحاب السوابق!..

ولابد من تفسير ذلك بوضوح علمى نشترك جميعاً فى فهمه والاقتناع به والبحث عن أسبابه تمهيداً لعلاجه. فبعد الذى حدث لمصر وفى مصر. يجب ألا يكون الأمر سهلاً عابراً!..

أما الخطأ الذى من الممكن أن نقع فيه، فهو «تهوين» أمر هذه الجريمة. لا من ناحية نتيجتها المروعة، ولكن لأن الذين اشتركوا فيها كانوا قليلى العدد، مع أنه لو كان واحداً فقط لكان شيئاً فظيعاً..

فالذى اغتال كنيدى واحد، والذى اغتال الخلفاء الراشدين واحد..

أما الخطأ الثانى فهو «تهويل» هذه الجريمة. فيقال إن الجيش كله مسئول عن هذه الجريمة. لأن القاتل ضابط جيش، وإن الذين شاركوا فيها جنود. وإنهم استطاعوا أن يخدعوا أجهزة كثيرة قبل الوصول إلى مكان الجريمة. وهذا ظلم شديد. لأن فساد ضابط واحد ليس معناه فساد الجيش كله.. كما أن ثمرة فاسدة على شجرة واحدة لا يعنى أن الحديقة كلها قد فسدت.. وخطأ مطبعى فى هذا المقال لا يعنى أن المقال كله بلا معنى، أو أن المجلة كلها لا تمكن قراءتها..

وخطأ ثالث يمكن أن نقع فيه، هو أن نقول إن الجريمة مستوردة، وإنه لا يوجد مجرم فى مصر. وإن الذين دربوا هؤلاء القتلة كانوا من خارج مصر. وعلى ذلك فهؤلاء القتلة قد استأجرتهم دول الرفض أو غيرها لارتكاب هذه الجريمة.

أما أنه لا توجد جريمة فى مصر فليس صحيحاً، فأينما يوجد الإنسان يوجد الشر والخير، ويوجد الاندفاع وضبط النفس، ويوجد الحب والكراهية.. وأما أن هذه الجريمة يمكن تدبيرها فى الخارج فهذا صحيح.. وأما أنه يمكن تكوينها وترتيبها فى مصر فهو ممكن أيضاً..

وقد يقال أيضاً إن القاتل له حساب شخصى مع الزعيم الراحل. وقد تكفل شخصياً بتصفيته. لأن له أخاً متطرفاً معتقلاً. ولكن كيف أقنع الآخرين بأن يموتوا معه من أجل حساب شخصى؟..

ويقال أيضاً إن أمن الرياسة أى حراسة الزعيم الراحل لم تكن

على مستوى الموقف الرهيب.. وقد نشرت كل وسائل الإعلام العالمية أن أمريكا قد دربت الحراسة الخاصة على مواجهة الجماهير وعلى الاتصالات السريعة وزودتهم بالأسلحة الحديثة. ولا يفهم الأمريكان كيف حدث كل ذلك، أى كيف انطلق الرصاص على الزعيم، وعلى المنصة، ولم يسمع مشاهدو التليفزيون فى العالم كله رصاصاً يرد على المعتدين بسرعة؟..

لقد سمعت من سفير أجنبى أنه لم يدر ماذا حدث له، ولكنه وجد فوقه كوماً من اللحم. ولم يعرف كيف يتنفس. وبعد دقيقة فوجىء بأن الذين سقطوا فوقه ولم يطاوعوه فى أن يتركوه يتنفس هما الحارسان المكلفان بحمايته!..

وسمعت من سفير أجنبى أن الأمريكان بعد اغتيال الرئيس كنيدى قد بحثوا فى كل شىء وفى كل الظروف وكل الاحتمالات. ولكنهم اكتشفوا بعد ستة شهور أن التحقيق قد فاته أن يتناول التكوين النفسى والعقلى لحراس الرئيس الأمريكى..

وأدخلوهم المصحة العقلية جميعاً. ووجدوا أنهم بلا لياقة جسمية أو نفسية. وإن «رد الفعل» عندهم أبطأ مما يجب. ولذلك فصلوهم جميعاً. فهناك شروط لحراسة الرئيس الأمريكى، من بينها: اللياقة البدنية والنفسية والعقلية.. وألا يدخنوا وألا يشربوا وألا يزيد وزنهم وألا يتعاطوا المنومات ولا المنبهات، وأن يعاد الكشف عليهم كل ثلاثة شهور ـ تماماً كالطيارين!..

فهل نلوم الزعيم الراحل على أنه كان قدرياً يؤمن بأن الأعمار بيد الله. وأن الحذر لن يحميه من القدر؟.. من الممكن أن

يكون هذا رأيه. ولكن الدولة يجب أن تحميه لمصلحتها وسلامة مسيرتها. وأن تكون هذه الحماية على الرغم منه. وقد استجاب الزعيم الراحل لذلك فى بعض الأحيان. ولكن أحداً لم يستطع أن يفرض عليه الحماية المطلوبة..

لابد من أن الزعيم الراحل كان يؤمن إيماناً مطلقاً بأنه ليس عدواً لأحد. فقد أدى لبلاده خدمات عظيمة. فأعداؤه وخصومه قليلون وليسوا من المصريين..

ولابد من أن يكون هذا المعنى قد تأكد عنده بسبب خروجه من سيارة مكشوفة يواجه الملايين.. ولم تنطلق عليه رصاصة واحدة. إذاً ـ وهذا منطقه طبعاً ـ لا خطر عليه!..

ولابد من أن يكون الزعيم الراحل قد مضى فى هذا المنطق إلى هذه النتيجة: إذا كان الناس لا يطلقون عليه الرصاص فى الشوارع، مع أن هذا ممكن جداً، فهل يطلق الجيش الرصاص عليه فى العرض العسكرى الذى نزع فيه السلاح الحى من كل جندى؟!..

والجواب: ليس معقولاً..

وقد يكون هذا المنطق قد انتقل إلى حراسته الخاصة. فآمنوا بما آمن به الزعيم الراحل ـ وهذه هى الغلطة التى وقعت فيها الحراسة الخاصة. لأن الاحتياط واجب.. وسوء الظن حكمة!..

ولجان تقصى الحقائق وتحليلها وصياغتها، لم يتسع وقتها لذلك. فقد تعجلت وأصدرت تشخيصها لما حدث، وافترضت علاجات كثيرة لذلك. وقد قرأت هذه التقارير، وأشرت إليها فى

هذا المكان، واعترف بأنها ليست دقيقة وليست كافية. وعلى ذلك فالقضية لاتزال بلا دراسة ولا تحليل. وهذه الدراسة تسبق كل ما حدث من رصاص وحرائق وضحايا واغتيال للزعيم العظيم أنور السادات..

فالرصاص قد انطلق على الزعيم الراحل منذ سنوات، ولكنه لم يصبه إلا يوم ٦ أكتوبر..

أما الغلطة التى أرجو ألا نقع فيها مطلقاً.. فهى أن نتصور أن الذى حدث هو فقط إخلال بالأمن.. أى أننا يجب أن نواجهه بقوات الأمن.. صحيح أنه لابد من أن تواجه قوات الأمن كل إخلال وكل إزعاج وكل اعتداء. ولكن هناك فرقاً كبيراً جداً بين وسيلة المواجهة، وأسباب ما حدث.. فإذا نشر إنسان مرض الكوليرا، وعرفنا ذلك، فلا يجب أن نواجهه فقط بقوات الأمن لأنه مجرم يريد القضاء على حياة الأبرياء.. وإنما الذى حدث هو مأساة طبية. ولذلك يجب أن يواجهها الأطباء والكيميائيون.. وبعد ذلك يجب أن يتدخل علماء النفس والاجتماع ورجال الدين؛ لنعرف ما الأسباب التى دفعت هذا المجرم إلى ارتكاب هذه الكارثة القومية؟..

إن فى خطاب الرئيس حسنى مبارك عبارات قوية تدعو إلى أن نطمئن جميعاً فقد صمم على مواجهة هذا العبث بحياة الناس وحرياتهم وصورة مصر.

وهذا ما يجب أن يفعله الرئيس الجديد.. وهذا ما يتوقعه الشعب منه. فأمام الرئيس الجديد لدينا شعوران: أحدهما أنه

ليس جديداً، فقد كان هناك منذ ست سنوات.. وفى نفس الوقت نشعر أن أسلوبه سوف يكون مختلفاً..

وإذا كانت الأيدى التى تمسك المسدسات والقنابل قد توارت.. فنحن لا نعرف متى تظهر بعد ذلك، ولا أحد - الآن - يستطيع أن يتخيل ما الذى كان فى مصر لو أن جمال عبدالناصر قد اغتيل سنة ١٩٥٤ - أى بعد عامين من ثورة يوليو؟!..

ولا أظن أن أحداً يسعدنى إذا قال لى: إن ما حدث بشع.. ولكن المرتكبين لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة...

ولا أظن أن أحداً يشقينى إذا قال لى: إن الذى رأيناه كان من فعل يد واحدة ولكن الأيدى وراء الظهور فى الظلام كثيرة وكلها تتربص!..

إنها حقيقة مرة ومفزعة.. ولكننى أفضل الحقيقة التى توجعنى على الأكذوبة التى توجع قلب مصر.

وليس الزعيم الراحل وحيداً بين الزعماء الذين يؤمنون بذلك إيماناً مطلقاً. إنهم جميعاً سواء. فهم قد هيأوا أنفسهم لأخطر النتائج ولكن وسط الحفاوة والسعادة، ينسون ذلك. وهذه هى الثقة المطلقة فى النفس وفى الناس، هى بداية المأساة فى حياة الزعماء!

وهذا طبيعى فى سلوك الزعماء الكبار، فآراؤهم فى أنفسهم وفى الناس من الممكن أن تكون قاتلة.. وكما يكون الظل عميقاً.. وقد كان!

ولذلك فإن عالماً فلكياً مثل جاليليو لا يصلح أن يكون زعيماً

أو على رأس الفاتيكان: لماذا؟ لأن هذا العالم الكبير عندما رأى البقع السوداء فى الشمس قال: إنها فى الشمس. وقال الناس: بل فى عينيك..

ولكنه لم يخدع نفسه، وأصر على أن يقول إنها فى الشمس. وأصرت الكنيسة والدولة على أن هذه البقع فى عينيه هو. وأنه لذلك يستحق الموت.

وهذا العالم الفلكى الإيطالى جاليليو لا يكون زعيماً سياسياً أو دينياً؛ لأنه لا يستطيع أن يخفى الحقيقة فى عبارة ناعمة جملة. يخفيها عن نفسه قبل أن يخفيها عن الناس.

أما زعماء السياسة والدين فقادرون على ذلك. والثمن: حياتهم!..

وأعتقد ان الزعيم الراحل كان يؤمن تماماً بأن «الفتنة» التى حدثت فى مصر لم تكن بهذه الخطورة!. إنما الزعيم هو الذى سبق الأحداث وخشى أن تكون أوسع وأعمق وأن تشوه صورة مصر عندنا وعند غيرنا. وعلى الرغم من أن الزعيم الراحل قد اتخذ إجراءات قوية فإن هذه الإجراءات لم تكن لمواجهة ما حدث، إنما لمواجهة ما قد يحدث.. ولذلك فإنه وضع الفتنة الدينية والسياسية فى سلة واحدة. ولو كانت الفتنة وحدها كبيرة فى حسابه. لانفرد بها وعالجها. ولكن الزعيم الراحل لم يرها كذلك.

فهل نحن بعد هذا الذى حدث، قد فهمنا بوضوح ما جرى؟..

هل التقارير التى أصدرها مجلسا الشعب والشورى بعد تقصى الحقائق، تحليل دقيق وسليم لما حدث، حتى لا يتكرر وحتى لا تكون نتيجته أعنف وأفدح؟

إن لجان تقصى الحقائق حسنة النية لاشك. ولكن رسولنا عليه السلام قد حذرنا من الاكتفاء بحسن النية فى معالجة حياتنا اليومية، فقال: إن الطريق إلى النار محفوف بالنيات الطيبة..

فالنية لا تكفى لمواجهة مرض، وإذا كانت تكفى لتشخيصه، فإنها ليست كافية لعلاجه وشفائه..

لقد فقدنا زعيمين فى أحد عشر عاماً. ويجب أن نحرص على ما أعطانا اللّه ووهبنا من قيادة صالحة. نرجو لها عمراً مديداً ومستقبلاً سعيداً..

# لأنهم لا يأكلون دقيق القمح !

فى العدد الأول من مجلة ـ «أكتوبر» ـ ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ ـ كان مقالى بعنوان: تعالوا نصنع مستقبل مصر.

ومن السطر الأول قلت: إذا سار اثنان فى طريق واحد، واختار أحدهما جانب الظل، والآخر اختار ضياء الشمس. فالذى سار فى النور: شاب.. لأن الشباب يبحث عن النور ليرى أوضح، ونراه نحن أيضاً. والبلد الذى يملك ثروة من الشباب: بلد قد ضمن الحياة والحيوية والمستقبل. فالشباب أوصياء على العرش، أولياء العهد، كنوز من ذهب. عيونهم نجوم الغد. قلوبهم توربينات الثورة والثروة..

وليس صحيحاً أن كل ما صنعناه هو الهزيمة، وأن الماضى كله أسود، وأن الحاضر كله أبيض، والمستقبل أكثر لمعاناً. فلا نحن آباء الهزيمة، ولا الشباب أبناء النصر، ولكن التاريخ كله شركة. ونحن جميعاً أطراف النزاع. نحن جميعاً القاضى والمتهم والجريمة. ولا أحد برىء! ولا أحد يتفرج على أحد. إنما نحن جميعاً أشخاص مسرحية واحدة ومؤلفوها والمتفرجون عليها.

ولذلك يجب أن نعمل معاً، على إكمال ما بدأنا، وتقويم ما التوى فى أيدينا، وما التوت به أيدينا. ولكن من الذى يقول لمن: اعمل فلا وقت للتثاؤب؟.. ومن الذى يقول: انهض كفانا نوماً؟.. ومن الذى يقول للشباب: انتهى اللعب ويدأ العمل.. أو تحقق الأمل، فليكن أمل جديد؟..

لا أحد يقولها لأحد. إنما نقولها معاً: كباراً وصغاراً. أبناء الأمس وأحفاد الغد. فالقضية واحدة. عندنا حياة وحيوية. ويجب أن تكون لدينا خطة. وتكون الخطة مثل أشرطة السكك الحديدية. مثبتة متينة متجهة إلى المستقبل. يجب أن نفرز قواعد العمل وأصول النجاح. تماماً كما تفرز دودة القز حريرها وسريرها..

فما المطلوب؟.. المطلوب هو أن نقترب من ١٥ مليوناً من شباب مصر.. تصور أن فى مصر أطفالاً، أى شباب الغد، وشباباً أى رجال اليوم، يبلغون هذا العدد العظيم.. تصور هذه الأعواد الخضراء، هذه الزهرات اليانعة.. كلها يجب أن نرويها وننتظر.. يجب أن نهب عليها نسيماً منعشاً وننتظر.. يجب ألا تتحول أيدينا حولهم إلى ديدان قطن.. يجب ألا تكون كلماتنا بينهم مبيدات حشرية، تأكل الدود واللوز والورق..

ولذلك: يجب أن نقترب منهم فى حنان الأم وحب الأب. ولكن ليس بالحب وحده والحنان وحده ينمو الأطفال وتزهر النباتات، إنما بالحب المضىء - أى بالعلم والتربية الوطنية والأخلاقية.

فمن أين نبدأ ؟ إن كل نقطة مهما اختلفنا أمامها، من الممكن أن تكون البداية.. إلخ إلخ..

ولست فـي حـاجـة إلى أن أذكر الأسـبـاب الـتـي دفـعـتـنـي إلى الاهتمام الشديد بالشباب أو القلق عليه. فهذا خط على جبيني. وأحد همومي العريقة. وقضية لم أنته إلى حكم نهائي فيها. وكثيراً ما توهمت أنني وجدت الحل. وكثيراً ما وجدت أنه من الضروري أن أستأنف الحكم. وقد جاءت حيثيات الحكم لقضية القلق والخوف والعنف في أكثر من ستين كتاباً بقلمي، وفي عشرات الألوف من المقالات. إنها - إذاً - مشكلة لم أصل فيها إلى حل..

هل سبب ذلك أنني عرفت قلق الشباب ولم أسترح بعد؟.. نعم. هل لأنني اشتغلت بالتدريس في الجامعة وعرفت من ويلات الشباب ما لم أكن أعرف؟.. نعم. هل لأنني كنت شاباً، وكانت لي عشرات الرؤوس فوق كتفي، وعشرات القلوب بين جوانحي، فتحيرت بين المذاهب الفلسفية والدينية، ثم فتحت نوافذ برأسي، وضربت أبواباً بقدمي. فارتدت الأبواب في وجهي جدراناً من الرفض، وتساقطت الأسقف على رأسي صلباناً من الهوان؟.. نعم.

ولا يمكن إلا أن أكون قريباً من الشباب لعلي أفهم ولعلنا..

وليس الذي عانيناه بالأمس، منذ انطلق الرصاص على النقراشي باشا وجمال عبدالناصر، إلا «سوء فهم» أدى إلى «أزمة تفاهم».. لأن الذي حاولناه قليل، والذي فهمناه قليل جداً. وألقينا بكل شيء وراءنا وعلى أكتاف الآخرين. وانشغلنا ونسينا. ولكن آخرين من أبنائنا لم ينسوا. فقضيتهم لم تنحسم، ومشكلتهم لم تجد حلاً. واتسعت المسافات بين الصغار والكبار. ورمينا بالوحل كل وجه. وألقينا الشوك في كل طريق. وطاشت أيدينا تشير

بالاتهام فى كل اتجاه. وهكذا ملأنا شوارع مصر وبيوتها بالمتهمين والهاربين من العدالة.. ولم نعد نعرف من هو الجانى على من؟ ووقفنا عند ذلك، ورفعنا الجلسة لكى ننطق بالحكم بعد المداولة. ولم ننطق بالحكم حتى الآن..

فما الذى حدث؟ أو ما الذى لم يحدث؟

إننا لم نفهم بدرجة كافية. ولذلك كان من الصعب أن نصحح أخطاءنا. لأننا لم نر الخطأ. فكيف نصحح ما لا نراه. أو ما لا نريد أن نراه؟!.. هذه هى قضية القضايا: الأمس واليوم وغداً وبعد غد..

ونحن الآن أمام أعمال عنيفة قام بها شبان من أبناء الطبقة المتوسطة، أى الذين يعيشون على الحافة بين الفقر والأمل فى التخلص منه. وعلى مرأى من الأغنياء جداً أصحاب الثروات الاستفزازية.. أى الذين فتح عليهم «الانفتاح الاقتصادى» كل أبواب السماء ذهباً وفضة، وأبواب الأرض غضباً وحسداً..

ولأنهم شبان فهم مثاليون.. ولأنهم شبان فهم مندفعون.. ولأنهم شبان فهم متعصبون..

فهم مثاليون، لأنهم يرون أنفسهم رهائن الوضع الراهن. وهم لذلك ساخطون على قيودهم. يريدون أن يتحرروا منها. فإذا تحرروا تحرر المجتمع أيضاً. وهم لا يصبرون على ذلك، فليس من صفات الشباب أن يصبر كثيراً. إنه يتعجل الحل. ويرى أنه لا حلول أخرى إلا التى يراها. وكل الحلول الأخرى كافرة. وهو يتعصب لرأيه. ويرى أنه على حق وأن غيره على باطل. وإنه وحده الذى يجب أن يغير الدنيا بالرصاص، ولذلك يطلق

الرصاص فى كل اتجاه. ونحو الهدف الذى يريد. وهو يعلم أن قوات الأمن التى هى أقوى منه، هى أضعف أيضاً. لأنها لا تستطيع أن تحمى أقوى الحكام من مواطن واحد مجهول قرر أن يغتاله!.. ولأن قوات الأمن لا تستطيع أن تطلق الرصاص فى كل اتجاه، فتصيب الأبرياء وهى تحاول أن تمسك إرهابياً واحداً. ولا تستطيع أن تنسف بيتاً أو قطاراً من أجل الإيقاع بمجرم واحد. بينما المجرم يفعل ذلك بسهولة!

وفى سنة ١٩٧٣ وحدها كانت حوادث الإرهاب قد بلغت ٢٢١ حادثاً. أكثرها فى أوربا وأمريكا و٤٧ فقط فى بلاد العالم الثالث. كما أن أهم حوادث الإرهاب فى المائة العام الماضية كانت فردية. فالرؤساء ماكنللى وكارنو وكنيدى والزعيم غاندى اغتالهم أشخاص لا ينتسبون إلى جماعات أو منظمات أو حركات تحرير وطنية أو عالمية.. وقد أثبت اغتيال هؤلاء العظماء قدرة الأفراد على النيل من أقوى الأقوياء، وعجز أجهزة الأمن كلها عن التنبؤ بذلك أو منعه قبل وقوعه.

وأمام إرهاب الجماعات السياسية والدينية نجد أننا أمام ثلاث نوعيات من الناس. النوع الأول: هو المؤمن بدين أو مذهب. ولكنه فى نفس الوقت يرى أن هناك مذاهب أخرى متعددة مختلفة. وأنه استراح إلى واحد منها. وأنه من الممكن أن يأخذ من التجارب الإنسانية العريضة تدعيماً وتأصيلاً لمذهبه السياسى.. ومعنى ذلك أنه يرى أن دينه ليس هو الدين الوحيد.. وأن مذهبه السياسى ليس الثمرة الوحيدة على شجرة التجربة الاجتماعية..

وأرى أن هذا شاب معتدل متوازن. وأنه اختار الموقف الصعب. لأنه اختار بيتاً متعدد الأبواب والنوافذ. وأنه اختار الكثير من الضوء، والشديد من الهواء، والعديد من الزوار.

والنوع الثاني: هو المتعصب، أي الذي يؤمن بمذهب في الدين أو في السياسة، ويمسكه كما يمسك سمك القرش فريسته لا يتركه إلا بالموت. ويرى أن مذهبه هو المذهب. أن دينه هو الدين، وأن الطريق إلى الجنة طريقه هو. وأن النار ملتقى كل المخالفين له، وأن في الدنيا حديقة واحدة. وفي هذه الحديقة شجرة واحدة. وعلى هذه الشجرة ثمرة واحدة. وأنه صاحب هذه الثمرة. وإذا كانت للآخرين حدائق فهي أرض خراب. وإذا كانت لهم أشجار فبلا أزهار ولا ثمار. وأنه كالذي اختار بيتاً له مدخل واحد ونافذة واحدة. وهو يقف وراء الباب متربصاً، فكل من يحاول أن يدخل فهو لص. وكل من يحاول أن يقترب فهو جاسوس. وهو قد اتخذ موقفاً معادياً من كل الناس. دون أن يدرى أنه هو نفسه يقف في مقدمة أعدائه.

وهذا أسهل الأوضاع وأسوأها أيضاً، فقد ضاق أفقه. واختنق عقله. فأصبح رأسه مثل عين الإبرة لا تتسع إلا لخيط واحد. وهو أيضاً قد أصيب بعمى الألوان. فلا يرى إلا لوناً واحداً، هو لونه السياسي أو الديني، ولذلك يجب أن يرى كل الذين مثله قد اتخذوا علامات تميزهم عن الناس. أي يجب أن يختلفوا بوضوح. فتكون لهم اللحية. أو يكون لهم القميص الأسود أو الرمادي أو الأزرق.. أما الذين بلا علامات تميزهم فلا وجود لهم، أو ينبغي ألا يكون لهم وجود!..

والنوع الثالث: هو الإرهابي أي الذي آمن بأن مذهبه في

الدين والسياسة واحد لا شريك له، وأن من واجبه هو أن يفرض هذا الرأى بالرصاص. أى أنه إنسان رفض الأوضاع. ويريد أن يغيرها بسرعة. وألا ينتظر التاريخ حتى يفعل ذلك. لأنه قادر على أن يغير التاريخ بنفسه، أو بعدد قليل من المؤمنين بدينه ومذهبه السياسى، وهؤلاء هم الذين يسمونهم «فلاسفة القنبلة» أى الذين استقرت فى رؤوسهم أفكار ثابتة متماسكة منسقة، وامتلأت أيديهم بالقنابل والرصاص.

وليس من الضرورى أن يكون الواحد من هؤلاء فقيراً ليكون ساخطاً. لأن السخط هو غضب فى مواجهة وضع. فمن الممكن أن يغضب الغنى كما يغضب الفقير. وليس من الضرورى أن يكون الساخط مريضاً عقلياً أو نفسياً. وإلا كانت كل الأوضاع الخاطئة خاطئة لعيوب فى الناس، وليست لعيوب فى الأوضاع.. فنحن لا نقول إن الشوارع امتلأت بالمطبات لأن هناك مطبات عقلية فى رؤوس الناس.. وإلا رجعنا مرة أخرى إلى العصور الوسطى التى اتهمت العالم الفلكى جاليليو بوجود بقع سوداء على عينيه، لأنه رأى بقعاً سوداء فى قرص الشمس.. فالسواد فى عينيه، وليس فى الشمس!!

وإنما هناك قدر من الشعور بخيبة الأمل فى كل عصر. وخيبة الأمل سببها أن الناس يريدون الكثير، فلا يحصلون إلا على القليل. فيكون سخطهم نتيجة لشعورهم بالفشل..

وهذا الشعور يلازم الإنسان فى كل مراحل حياته. والشباب خصوصاً..

فالذى يتمناه كثيرٌ. والذى يقدر عليه قليل. وفجأة يشعر الشاب: أن الحيوية لا ثمن لها. وأن التعليم لا معنى له. وأن الذكاء لا سعر له.. فليس الإنسان فى حاجة إلى كل هذه المؤهلات ليكون غنياً أو قوياً. فبين الأغنياء مرضى. وبين الأقوياء لصوص!

ويزداد شعور الشبان بالقلق فى المجتمعات غير المستقرة. تماماً كما يمشى أحد الركاب على ظهر سفينة فى بحر هائج. هو يهتز والسفينة تهتز.

وربما كان عدم الشعور بالاستقرار عند الشبان أكثر فى المجتمعات التى تتغير ببطء.. فالمجتمع الذى يتغير ببطء يهتز. ولكن المجتمع الذى يتغير بعنف، يثبت بعنف أيضاً.

والناس يقلقون فى مجتمعات السلام أكثر من قلقهم فى مجتمعات التعبئة الحربية.. فأثناء الحروب تقل الجرائم وترتفع نسبة الزواج. فالمجتمع كله قد ذاب فى صيغة واحدة، وهدف واحد. وتقارب الناس أكثر. وأحس الناس بالموت يهدد الجميع، فأقبل الناس على الحياة، كآخر تحدياتهم للضياع والفناء. فارتفعت نسبة الزواج.

ولم يكن من الصدف أننا عندما كنا نرفع أنقاض البيوت بعد الغارات الجوية، نجد الأزواج متعانقين تحت التراب..

بينما فى ظل السلام يتباعد الناس، ويتراخى المجتمع، وتظهر الخلافات وترتفع نسبة الطلاق.. ويزداد الشعور بالقلق، وتقوى الرغبة فى الانطلاق بعد الكبت الشديد أثناء الحرب وبعد قيود الطعام والشراب والحركة والإضاءة.. وتقوى النزعات الفردية..

وفجأة يقفز الشعور بالندم على الذى كان. ومن الشعور بالندم يتولد الشعور باتهام الآخرين بأسباب الهزيمة والنكسة والعار القومى. وتنبت للأيدى أصابع، وللأصابع مخالب. ويكون لها شكل المسدسات.. والهدف واحد: الأوضاع الراهنة!

وفى كل مرة يكون القمع صغيراً أو متواضعاً، يكون التحدى له أكبر. فالمجتمع الذى يواجه العنف بتوجيه اللوم، مجتمع لا يعرف معنى الحركات «التحتية» للغضب وينابيع الثورة التى تتوارى تحت الأرض، إلى أن تجد نقطة ضعيفة فى الأرض فتنفجر كالينابيع أو كالبراكين والزلازل..

ثم إن القمع الصغير يؤكد جهل الدولة بحجم الغضب.. وهذا الجهل يغرى الغاضبين بمزيد من التحفز والتربص.. ثم إن هذا القمع الصغير يكشف الدولة.. لأن الغاضبين لم يكونوا يعرفون بوضوح رد فعل قوات الأمن، فكلما كان القمع صغيراً، جاء ذلك دليلاً على أن هذا هو الحد الأقصى، أو الإجراء الأعنف.. أو آخر ما فى قدرة الدولة أن تفعله!

إذًا لقد انكشفت الدولة، وهان أمرها على هؤلاء الساخطين. ثم إن هؤلاء الساخطين المتعلمين قد اختبروا أجهزة الدولة وامتحنوها، ورصدوا عيوبها وعرفوا مداخلها.. فلا تجانس ولا وحدة بين كل أفراد أجهزة الأمن. بينما «الإرهابيون» لهم خطة واحدة وهدف واحد وعقيدة واحدة. فهم أكثر تماسكاً وأشد تقارباً. ولاتزال نصيحة الحكيم بوذا أعظم نصائح العنف، وإن لم يقصد ذلك. فقد وجد عدداً من تلامذته يثقبون جبلاً فى عشرين

موضعاً مختلفاً. كل أحد منهم أمسك مسماراً وراح يحفر فى جانب من الجبل، فضحك قائلاً: بل اجعلوا المسامير واحداً. ودقوا على رأسه معاً!

ولم يكن بوذا رسول السلام النفسى يعرف أنه قدم نصيحة خالدة لكل المنظمات الإرهابية فى العالم: أن يتحدوا حول مسمار واحد ليدقوا رأسه فى وقت واحد.. فذلك: أوجع وأوقع!

وكذلك فعلوا ويفعلون.

ولكن لماذا؟

هذا هو سؤال الأمس الذى بقى بغير جواب.. وسؤال اليوم الذى ننتظر الإجابة عنه، وليس أسهل من هذا السؤال، ولا من أى سؤال، وكلما كان السؤال سهلاً كان الجواب صعباً. مثل: كم عدد النجوم فى السماء؟ كم عدد المرات التى ذكر فيها الإرهابيون اسم الله منذ ولادتهم حتى اعتقالهم؟

لقد أدت حرب فيتنام إلى قلق فى شباب الشعب الأمريكى. هذا القلق اتخذ شكل التمرد على الأسرة والمصنع والدين والدولة. ورأى بعض الشبان أن الفرار من الخدمة العسكرية شرف عظيم. لأن الدولة لم تستشرهم فى دخولها فيتنام وضربها بالقنابل الميكروبية وإبادتها للإنسان والحيوان والنبات. ورأى شبان آخرون أن المجتمع الذى أخرج قادة هذه الحرب مجتمع متوحش.. ولذلك انسحبوا من حياة المدن إلى حياة الخيام والكهوف. وأنكروا حق المجتمع فى أن يفرض عليهم مبادئ الدين وقواعد الزواج والطلاق.. وشبان آخرون رأوا أن المجتمع الذى ليس إلا

مصنعاً للذخيرة يقتل بها الآخرين وأبناءه أيضاً، مجتمع يجب أن يذهب. ولما كانوا أضعف من هذا المجتمع، فهم غير قادرين على هدمه.. ولكنهم قادرون فقط على أن «يغيبوا عنه». فتعاطوا المخدرات وأقراص الهلوسة، وعاشوا غائبين: هم غائبون عنه، والمجتمع غائب عنهم..

واجتمع ٨٦٠ أستاذاً من علماء السياسة وعلم النفس السياسى و«علم نفس الصراع» - وهو أحدث المذاهب الفكرية فى دراسة الإنسان فى العصر الحديث - وكان سؤالهم: ولكن كل هذا لماذا؟

واختلفوا واتفقوا. ومازالوا مختلفين حول الأسباب التى أدت لهذا الاضطراب بين أبناء أغنى وأقوى دولة فى العالم. فهل كان هذا الاضطراب كامناً فى بطن المجتمع الأمريكى، فجاءت حرب فيتنام فأظهرته على السطح؟.. هل السخط بين الملونين والسود والمتعطلين فى أمريكا قد شجع غيرهم من الشبان على ذلك؟.. هل العدوى انتقلت إلى أمريكا من القارات الأخرى؟.. هل لأن أمريكا التى لم تعرف إلا الحرب خارج حدودها، كان لابد أن تعرفها على أرضها وتحت أرضها، وبين أبنائها، وإن هذه قاعدة نفسية، وظاهرة تاريخية؟

والإجابات كثيرة جداً. وهذا طبيعى. ولكن المهم هو: أن العلماء الأمريكان قد اتخذوا موقفاً جاداً من ظاهرة واردة عليهم، أو صادرة عنهم.. هذا هو الموقف. وهذا هو القرار. وهذا هو العلاج أو هو الطريق إليه.

وقبل ذلك حاول العالم الإيطالى شيزاره لمبروزو أن يفسر

للقرن التاسع، ولنا أيضاً، أسباب هذا الاضطراب الوطنى والإرهاب العالمى. فاتجه إلى الصفات الوراثية فى الأسرة. واتجه أيضاً إلى الملامح الجسمية، خاصة قسمات الوجه.

ولكن أطرف ما اهتدى إليه هو أن معظم أعمال العنف كانت فى دول أوربا الشرقية. ولم يجد تشابهاً بين أبناء هذه الدول لا فى الوجه ولا فى الطبقة ولا فى اللغة ولا فى المقومات التاريخية، ولكن وجد سبباً وحيداً اقتنع به، هو أن هذه الشعوب تعانى نقصاً فى الفيتامين. وأن بعض الثوار والإرهابيين كانوا مصابين بالبلاجرا.. (والقاموس الطبى لعلى محمود عويضة يعرف هذا المرض: بأنه خشونة فى الجلد بسبب نقص فيتامين ب).

ولكن لماذا يعانون من هذا النقص؟ كانت إجابة لمبروزو أنهم أبناء شعوب تأكل الذرة ولا تأكل دقيق القمح؟!

فأدت خشونة بشرتهم إلى خشونة أيديهم وطباعهم، واختلال ميزان الحيوية فى أجسامهم وعقولهم أيضاً!

ولم يضحك أحد لهذا التفسير فى ذلك الوقت. بل إن أحد القياصرة الروس قد أمر بمضاعفة تناول عجائن القمح فى القصر وعند كل الأمراء. وراح يتجسس عليهم، فإذا عرف أن أحداً، بسبب الإمساك، قد امتنع عن تناول القمح هدده بالطرد أو بالسجن.. لأن الامتناع عن أكل دقيق القمح هو استعداد للقيام بعمل إرهابى ضد القيصر!

وكل ما أرجو من أبناء وطنى ألا يذهبوا فى تفسير وتحليل وتشخيص هذا الذى جرى فى مصر، على أنه نقص فى تناول

الأطعمة المستوردة، أو لأن أمواس الحلاقة قد ارتفع ثمنها، فأطلق الشبان لحاهم.. وإذا اقتنع أحد بذلك فليضع إلى جانب الأمواس: ارتفاع تكاليف المعيشة والشقق التمليك والمفروشة والدروس الخصوصية فى الجامعات..

وإلى جانب ذلك أرجو أن يضاف هذا السؤال: وهل أنور السادات مسئول عن اغتياله بسبب القرارات التى حولت المجتمع سياسياً واجتماعياً إلى مسار آخر؟

ثم هذا السؤال الأخير: وهل هو أيضاً المسئول عن نكسة سنة ١٩٦٧ والشعور بالهوان القومى والعار الوطنى وخيبة أمل الشباب فى سقوط بطلهم جمال عبدالناصر؟

ولا يمكن أن تكون أمواس الحلاقة قد انخفضت أسعارها فجأة لأن عشرات الألوف من الشبان قد حلقوا لحاهم. ولا أن الماء فى الحنفيات قد تدفق لأن ألوف الفتيات قد أسفرن عن وجوههن. ولكن أمراً ما قد صدر بأن «يكمن» هؤلاء الشبان.. أن يزيلوا ما يتميزون به عن غيرهم. وفى ذلك إخفاء لهم و«كمون» بينهم. لماذا؟ هذا ما لا نعرف. وما يجب أن نعرف. وعندنا وقت لذلك، بل من الضرورى أن يتسع الوقت للفهم. ثم للتحليل والتفسير والتقارب والتقريب والحوار. فالذين أفزعونا مصريون، والذين أغضبوهم مصريون. ومن أجل مصر نسالم أعداءنا، وننتظر أشقاءنا.. فكيف لا نحتوى أبناءنا؟!

# يا سيدى تكلم حتى أراك!

نحن فى عصر «سبق الإصرار والترصد» - أى فى عصر الجريمة الكاملة. يقوم بها فرد أو عدد من الأفراد. أما سبب ذلك فهو أن واحداً، أو أكثر، قد قرر أن يقول: لا..

لا.. للدولة.. للنظام القائم.. أو القيم الأخلاقية أو الاجتماعية السائدة. وعندما قال: لا.. فقد أصبحت هذه الكلمة نوعاً من الحدود بينه وبين غيره من الناس، هو هنا.. وهم هناك، ولكنه لا يقول: لا.. دائماً. إنما يقول: نعم.. إذا كان المقصود هو ما يخصه أو ما ينفعه أو يؤيد وجهة نظره..

والذى يهمنا ليس هو القاتل العادى، أى الذى يقتل للانتقام الشخصى أو للحصول على ثروة.. إنما الذى يعنينا هو القاتل صاحب النظرية.. صاحب الرأى فى السياسة أو فى الدين. أو الذى أطلق عليه الفلاسفة الوجوديون من ثلاثين عاماً: إنه الفيلسوف صاحب القنبلة. فهو يرفض وضعاً. ويعمل على هدمه بنفسه. وينتظر حكم القضاء عليه. فهو لا يقتل ويهرب. إنما يقتل ويعلم أنه سوف يموت. وأن جثته سوف تتدحرج على جثة ضحيته،

ليكون فى وجودهما معاً: الجريمة والعقاب. القاتل والقتيل.. أى أن الفيلسوف صاحب القنبلة يريد أن يحقق لنفسه المساواة فى أعلى درجات العدل العنيف!

وجريمة العصر موجهة ضد الدولة. لأن الدولة أقوى من الفرد، وأقوى من المجتمع، فالدولة ذات القوة المطلقة هى التى استفزت الأفراد والجماعات. وأطالت لسانهم وسلاحهم لكى يقولوا لها: لا ـ مهما كان الثمن.

فثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ قد أتت بنابليون.. وثورة ١٨٤٨ جاءت بنابليون الثالث. وثورة ١٩١٧ قد أفرزت لينين. واضطرابات العشرينيات قد جاءت بموسولينى.. وجمهورية فيمار قد أظهرت هتلر.

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد شنقت الملك، فهى لم تكن تريد أن تقتل ملكاً.. شخصاً رفيع المقام. إنما أرادت أن تقضى على مبدأ أن الملوك يحكمون بتفويض من السماء. ولكن جاء بعد ذلك ملوك وحكام أعادوا نظرية «التفويض الإلهى». فكان لابد من السخط عليهم مرة أخرى.. ولكن الملوك والحكام قد خلعوا تاج السماء من فوق رؤوسهم، ووضعوه على رأس الدولة. فهى تحكم بالتفويض الإلهى.. ولذلك كانت الثورة على الدولة الحديثة. أو التمرد ضدها، أو الغضب منها، أو إرهابها، تحقق أهدافاً كثيرة فى وقت واحد: فهى ضد الدولة القوية التى ابتلعت كل إنسانية الفرد، وهى أيضاً ضد القوة المقدسة للدولة أو للفرد، ثم إنها مناسبة ليجرب الأفراد قدرتهم على القتل والاستشهاد برصاصة واحدة..

وجريمة العصر الحديث هى التى اتفقنا على أن نسميها: «الإرهاب» أى استخدام سلاح الخوف ضد الآخرين. أو ضد الدولة. بقصد أن يحقق الإرهاب هدفاً سياسياً أو دينياً..

ولم نقرأ عن هذه الكلمة فى الموسوعات الفلسفية إلا فى القرن الثامن عشر.. أى عندما «يحاول فرد أو أكثر أن يخيف الآخرين بسلاحه أو بجرأته الدموية».. وقد أطلقت كلمة الإرهاب، أو حكم الإرهاب والخوف، على بعض سنوات الثورة الفرنسية.. ثم انتقلت هذه الكلمة من القرن الثامن عشر، واستقرت فى القرن التاسع عشر، واستمرت إلى يومنا هذا. وهذا هو «الإرهاب من تحت». أى من الأفراد فى اتجاه الملك أو الحاكم أو مؤسسات الدولة.. ولكن الإرهاب من فوق هو الذى كان يرتكبه الملوك ضد الملوك وخصومهم السياسيين.. أو ضد الشعب نفسه.

وقد اختفى الإرهاب من فوق. فلم يعد الاغتيال هو الوسيلة الوحيدة للإتيان بملك بدلاً من ملك، أو رئيس بدلاً من رئيس آخر. ولكن الإرهاب من تحت هو أقدم ما عرفنا. فالمؤرخ اليهودى يوسيفوس يحدثنا عن جماعة «السيافين» أو حملة السيوف. عاشوا فى فلسطين (٦٦-٧٣م). وكانوا يهاجمون خصومهم نهاراً. ولكنهم يحتمون فى الجماهير. ولذلك كانوا يختارون أيام الأعياد حيث الناس كثيرون. وحيث الزحام شديد. والزحام يتستر عليهم كما لو كان ليلاً قاتماً. فلا أحد يعرف من هو القاتل، ولا أين ذهب إذا عرفه. وكان القتلة يمسكون سيوفاً قصيرة يخفونها وراء ظهورهم. وقد هدموا قصوراً، وأحرقوا الوثائق

الرسمية، وسدوا موارد المياه.. وكانوا يؤمنون بنظرية اسمها: «الفلسفة الرابعة»، وكان رأيهم أن اللّه لا يحتاج إلى واسطة رجل الدين، فكل رجال الدين كفرة، وكل أماكن العبادة ينبغى هدمها. فمن الممكن عبادة اللّه فى الأرض البور.

والمؤرخ يوسيفوس يقول إنهم جماعة من اللصوص والنصابين. فلا هم مؤمنون بإله أو دين. إنما هم تستروا وراء الدين. ثم إنهم عملاء يتقاضون أجورهم من دول أجنبية. فالدين والحرية والإصلاح مسوح كاذبة..!

وعندما طاردتهم الدولة اختفوا فى الجبال والكهوف. وبعضهم هرب إلى مصر!

ولم نعرف مزيجاً معقداً من الدين والسياسة إلا فى جماعة «الحشاشين» - والفرنسيون أول من أطلق عليهم لقب «الأساسان».. أى القتلة - وكان الحشاشون يقتلون، ابتداء من القرن الحادى عشر حتى أوائل القرن الثالث عشر. وكانت لهم بيوت وكهوف. وكانت لهم جبال أيضاً. وهم من الشيعة. وأشهر رجالهم «شيخ الجبل» وهو «سيدهم» الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميرى. وقد دخل السياسة مباشرة عندما ذهب إلى مصر، ونادى بإمامة الأمير نزار ابن الملك المستنصر. وقد تعصب أتباع الحسن بن الصباح لنزار هذا، حتى أصبح أتباعه يسمون بالنزاريين. وقد استولى على قلعة شهيرة على جبل آلموت بالقرب من أصفهان. ولسبب ليس واضحاً اتجه إلى اغتيال خصومه فى السياسة والدين، فاغتال

الوزراء والحكام، وحاول اغتيال صلاح الدين الأيوبى مرتين.
وكانت له طريقة خاصة، وهى أن يدعو رجاله إلى حفلة حشيش يتعاطونه، ويتمرغون على الفتيات الجميلات، ويقنعهم بأن هذه هى جنة الدنيا، وأنه يستطيع أن يعيدهم إليها إذا قتلوا فلاناً.. وكانوا يقتلون من يشاء ومتى وكيف يشاء.. ثم يدخلهم هذه الجنات مع البنات الجميلات والغلمان..

وظل شيخ الجبل يقتل من يشاء بأيدى أتباعه.. فقد تسلط عليهم تماماً..

وكان له أسلوب معروف. كان ينفرد بالقاتل، ويظل ينظر إلى عينيه وقتاً طويلاً، حتى يسقط عند قدميه ويقول له: سيدى.. اطلب ما تشاء فأنا خادمك وعبدك الذليل.

وكان سيده يجره من شعره إلى تناول الحشيش وإلى الفتيات. وبعد ذلك يعطيه الخنجر، ويتركه يتدحرج من القلعة ليتسلمه ثلاثة من رجاله، ويضعوه فى المكان المناسب ليرتكب جريمته. ويظل إلى جوار القتيل.. حتى يقتلوه، وبذلك يضمن «شيخ الجبل» أن القاتل لن يعترف بشىء!

وكان الخوف من جماعة الحشاشين هائلاً، لأنهم كانوا يرتكبون الجرائم فى أماكن متفرقة ومتباعدة وفى وقت واحد. فيخيل للناس أنهم جيش.. وأن هذا الجيش سرى. وأنه فى كل بيت، ووراء كل حجر، وأن لهم عيوناً وآذاناً، وأنهم لا ينتشرون هكذا إلا إذا كان هناك مئات الألوف يؤيدونهم ضد الملك أو الخليفة أو الوزير أو الدولة!

وكان من بين هؤلاء الحشاشين جماعة «الخناقين» - أى الذين يخنقون الضحية دون أن يتركوا أثراً لجريمتهم - وجماعة الخناقين هذه قد انتقلت إلى الهند وإلى الصين أيضاً فى ذلك الوقت. فكانوا يخنقون الخصم بحبل من الحرير.. وانتشرت فى اليابان أيضاً جماعة «الرمح الأحمر» يغمدونه فى بطون الخصوم..

واستطاع القائد المغولى هولاكو أن يقضى على جماعة الحشاشين تماماً. فهدم قلاعهم، وأحرق كتبهم. ويقال إن شيخ الجبل قد ألف كتباً عن المذهب الشيعى، وانتهت جماعة الحشاشين بمقتل آخر شيوخها ركن الدين بن محمد فى سنة ١٢٢٤ فى أصفهان.. ويقال إن لها أتباعاً فى سوريا وإيران!

ولكن أهم ما يميز هذه الجماعات: إنها قليلة العدد متماسكة. ونشاطها سرى. وتدين بالولاء المطلق والطاعة الكاملة لرجل واحد. هو شيخها أو أميرها. وإن أفرادها قد جردوا تماماً من الإرادة أو حرية التفكير، لسببين، أولاً: لأنهم يؤمنون إيماناً أعمى بنظرية وبصاحب هذه النظرية. وإيمانهم يجعل حياتهم ملكاً له. ولكن قبل أن يسلموه حياتهم، آمنوا بأن حياتهم من أجل مبدأ. ولذلك فإذا ماتوا فهم شهداء، ولأنهم شهداء فسوف يدخلون الجنة التى عرفوها، مرة أخرى، ولكن إلى الأبد.. وثانياً: لأنه كان يعطيهم المخدرات. فلا يملكون من أمرهم شيئاً!

وهذه الصورة لم تتغير كثيراً فى كل العصور. فلاتزال جماعة الإرهاب السياسى أو الدينى ترفض الواقع الذى تعيش فيه. وتقول لكل شىء: لا.. وتقول: نعم لكل ما تأمر به الجماعة أو شيخها أو أميرها. ومن أجل ذلك هانت عليهم الحياة وسوف تهون!

ومن أخطاء الدول فى مواجهة الإرهاب أنها تنظر إليهم نظرة «كمية» وليست «كيفية».. أى أن الدول نظرت إلى عددهم القليل، وقالت: إنهم ليسوا إلا شرذمة يمكن إحصاؤها على اليد الواحدة. وهذا صحيح. ولكن الدول نسيت أن شرذمة منظمة ومتماسكة أقوى من الألوف المبعثرة.

وقد وقع فى هذا الخطأ البانديت نهرو فى الهند. وكذلك الزعيمان جمال عبدالناصر والسادات.. فنهرو وصف هذه الجماعات الإرهابية بأنها «محاولة طفولية فاشلة من أجل قيام ثورة».. وقال أيضاً: «إن أعمال الإرهاب تستهوى الشبان من الجنسين لما فيها من مغامرة ومفاجأة وسرية.. إنها مثل القصص البوليسية الزائفة» ولكن البانديت نهرو لا يعرف كم عدد الذين يتابعون القصص البوليسية، وكم عدد الذين يقرأون الروايات الأدبية أو الترجمات الشخصية.. إن عشاق الروايات البوليسية بالملايين. أدمنوها قراءة، وأدمنوها على الشاشة. وهى نوع من تحقيق أحلام اليقظة عند كل إنسان يريد أن ينتقم من الأقوياء والظالمين والأغنياء..

ولكن الذى سخر منه البانديت نهرو وغيره من الزعماء المثاليين، قد مجده فلاسفة إرهابيون من مثل لينين وتروتسكى. فتروتسكى الذى اغتاله خصمه اللدود ستالين. كان يرفض أن يكون الإرهابيون كثيرين. أو يكون لهم حزب. إنما كان يؤمن «بالعنف التحررى» أو «التحرير العنيف» الذى يقوم به عدد قليل من الناس، فيحققون وحدهم ما تعجز عنه الجيوش. وهذه

النظرية أصبحت إحدى بديهيات الإرهاب. وفى نفس الوقت «مساحة من الرمال المتحركة» تتزحلق عليها الدول فلا تحسن تقدير خطورة الإرهاب.. وهذا ما رآه الزعيم الإيطالى موسولينى أيضاً. ومن بعده هتلر.. ولكن عندما أصبح كل منهما حاكماً مطلقاً لبلاده، تولت الدولة هذا الإرهاب المنظم. فكان إرهاباً من فوق إلى تحت. وإرهاب الدولة لا يوصف بأنه إرهاب. إنما يوصف بأنه قهر واستبداد!

وقد واجهت مصر الإرهاب فى السنوات الأخيرة. ولكن لم تستطع أن تحملق فى وجهه بوضوح. لم تعرف الوجه الحقيقى للإرهاب المصرى. لقد عرفت اغتيال بطرس غالى والسردار وأمين عثمان وحسن البنا والنقراشى وأحمد ماهر والدكتور الذهبى.. والاعتداء على جمال عبدالناصر واغتيال السادات..

فهل أخطأنا حقاً فى معرفة ما حدث؟.. أو أننا لم نعرف ما حدث، ولذلك لم نتمكن من علاجه أو حتى تشخيصه؟ هل نحن وقعنا فى نفس الخطأ التاريخى التقليدى، فنظرنا إلى المتطرفين أو المنحرفين أو الإرهابيين أو المتهوسين على أنهم «شرذمة» ضئيلة يسهل القضاء عليها.. ثم قضينا عليها؟ وهل صحيح أن الإرهابيين بجماعاتهم المختلفة، مثل جبال الجليد، قليلها فوق سطح الماء، وكثيرها تحت الماء؟..

وفى التاريخ غرقت أكبر باخرة فى العالم اسمها تيتانيك؛ لأنها اصطدمت بأحد جبال الجليد، فانكسر جزء من الجبل، ولكن بقية الجبل خرجت بقوة عنيفة من تحت الماء، فأغرقت السفينة.

فكان لابد أن تغرق أجمل سفينة صنعها الإنسان لنكتشف إحدى بديهيات تكوين جبال الجليد.. وعلى ذلك فمن الذى أطلق الرصاص على الأبرياء من المواطنين ورجال الدين والزعيم الراحل؟ هل هو الجانب الظاهر من جبل الجليد.. أو هو الجانب الخفى منه؟

ومن الذى يقول لنا ذلك؟ ومن الذى يؤكده حتى نصدقه؟

وأنا أعود وأعيد ما كتبته فى هذا المكان كثيراً، من أننى أفترض أن شاباً مؤمناً ذاهب إلى الجامعة وترافقه فى الطريق واحدة مثله، وكلاهما يسكن فى السيدة زينب. وفى الطريق يتخبطان فى الزحام. ويريان أن الزحام أرخص من المواصلات المزدحمة. ثم يقع الشاب فى نقرة ويتساند على الفتاة.. ويريان فى هذا السقوط فى حفرة رمزاً لمعنى: إنهما فى مواجهة مطبات الحياة، لابد أن يتساندا على سنة الله ورسوله بالزواج.. ولكن الزواج كيف يمكن مع المرتب الصغير؟ وإذا أمكن فأين الشقة؟ وإذا وجدت فكيف يعيشان إذا قررا أن يكون لهما طفل؟.. وفى الطريق إلى الجامعة يتفاديان سيارات عريضة فى مثل طول طابور الواقفين على محطة أتوبيس.. وعيون الواقفين أكثر لمعاناً من ألمونيوم الشقق الجديدة التى تنشر الصحف أنها تباع بمئات الألوف فى عمارات تتكلف الملايين يدفعها أصحاب محلات الجزم والحلاقون والترزية ومهربو المخدرات.. والدولة لا تسأل أحداً من أين له هذا - بل إن الدولة على مدى عشرات السنين قد حرصت على بقاء قانون يستحق الاحتقار والدفن فى جنازة

مهيبة.. اسمه: من أين لك هذا؟.. فهل لو غضب وسخط وثار هذا الشاب على كل الذى يحس به كل يوم هو وأسرته التى تنام فى غرفة واحدة يكون كافراً أو منحرفاً؟.. (ملحوظة: لقد نشرت الصحف أن نصف سكان القاهرة يسكنون فى غرفة واحدة.. ولا أدرى إن كانت هذه حقيقة. فكلنا نجتهد. ولا توجد أية بيانات صحيحة رسمية يستفيد منها المشتغلون بالتخطيط لحاضر ومستقبل مصر. وسوف أرجع إلى ذلك فيما بعد!).

فهل لو اعتقد هذا الشاب أن الظلم من سمات المجتمع، وكذلك الفساد والرشوة والانحراف، وأن الإيمان كالجريمة لا يفيد.. فهل تراه مخطئاً؟ وإذا كان هذا هو الخطأ فما هو الصواب؟ وإذا كانت الدولة تطالبه بالإيمان.. أى بالتمسك بالخلق الكريم والمثل العليا، فأين القدوة الحسنة؟.. إذاً فما تقوله الدولة ليس إلا شعراً أو كالشعراء.. والقرآن الكريم.. يقول و(الشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون.. وأنهم يقولون ما لا يفعلون)؟..

إن الذى نطلبه من أنفسنا كثير، ولكنه ليس صعباً فنحن لم ندرس ماذا حدث. ولكن يمكن أن نفعل ذلك. وأن تحشد الدولة قواها كلها من أجل رسم خريطة مصر - أعماق المجتمع المصرى - فبغير هذه الخريطة الروحية والاقتصادية والاجتماعية لمصر، لا علاج لشىء.. وهذا ما يفعله الطبيب كل يوم. إنه يقلب فى المريض. وقبل أن ينطق بالداء والدواء فإنه يأمره أن يأتى له بتحليل للدم والبول والبراز ورسم أشعة لكل جسمه. إنه يطلب منه بطاقته الشخصية.. فهو بذلك يعرفه أكثر وأوضح؛ لكى يتمكن من علاجه!

وليست فى مصر بيانات رسمية عن عدد الشبان. لا نعرف. ولا أحد يعرف. نحن لا نعرف كم عدد الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٣٢ سنة.. نحن لا نعرف إن كانوا يعيشون فى غرفة أو أكثر.. ولا نعرف كم عدد الذين يعيشون مع زوجات أبيهم.. ولا عدد اليتامى.. ولا عدد المرضى منهم.. نحن لا نعرف كم عدد الذين يدخنون منهم أو عدد الذين يتعاطون المخدرات.. ولا عدد الذين يتمسكون بتعاليم الدين.. ولا عدد المنضمين إلى جمعيات دينية. نحن لا نعرف كم عدد الأبناء الوحيدين.. نحن لا نعرف عدد الطلبة الذين ينفقون على أنفسهم أو على أهليهم، وفى نفس الوقت يدرسون، نحن لا نعرف عدد الذين هاجروا أو الذين يريدون أن يهاجروا.

ثم هل صحيح أن الذى نواجهه فى مصر هو أزمة ثقافة أو ثقافة أزمة؟ - وهى قضية تبنيتها فلسفياً ونفسياً منذ أكثر من عشرين عاماً - هل هى أزمة تعليم أو أغلبية أمية؟.. هل هى الفجوة التى اتسعت بين الطبقات بسبب الانفتاح الاقتصادى المستمر؟.. هل هى قضية المجتمع الذى يتحرك بسرعة أكبر من أن يستوعبها الفرد؟.. هل هم الأمريكان أو هو الخومينى؟.. هل هو القذافى أو ماركس؟.. هل هو طابور الجمعية أو خطب الجمعة؟.. ولأن أحداً لا يعرف. ولأن أحداً لم يسأل فإن أحداً لم يجب!

ولأضرب مثلاً: كنت فى مدينة سمرقند بجمهورية أوزبكستان السوفيتية، وخطر لى أن أعرف كيف يعالج الروس مرضاهم - وهى مادة أكتبها - فطلبت أن أقابل الطبيب، فدفعونى إلى

طبيبة، وضعت لها يدى على بطنى وقلت: آه.. وعلى عينى وعلى دماغى.. ووصفت لها كيف تتراقص الأشياء أمام عينى، وكيف أشعر أننى فى مركز الأرض التى تدور حولى، فأدوخ وأقع.. وكنت حريصاً فى هذا التشخيص على ألا أختار أعراضاً تنقلنى إلى المستشفى، فيكون ذلك عقاباً على أكذوبة مستمرة. واستمعت الطبيبة إلى كل الذى قلت، وسجلت، وفكرت. ثم اختفت لتأتى بثلاثة أقراص فى ورقة صغيرة. وقالت: واحدة عند النوم..

وسألتها: ولكن ما اسم هذا المرض الذى أعانى منه؟ لابد أنه ليس خطيراً. مادام علاجه هكذا بسيطاً!

ولم تشأ أن تقول شيئاً.

وفى اليوم التالى سألتنى: كيف حالك؟ قلت: لم أعد أشكو من شيء.. فما هو هذا المرض؟

فأجابت: لا يهم اسم المرض. المهم أنك استرحت.

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٩ انتهت رحلتى حول العالم التى استغرقت ٢٢٣ يوماً، بأن توقفت فى واشنطون. وقد تعبت كثيراً من رحلة بلا توقف بين آسيا وأستراليا، وكنت أتنقل فيها بين الدول بالطائرات ليلاً ونهاراً. وكنت أخرج من صيف الهند العنيف، إلى شتاء أستراليا الجليدى فى يوم واحد.. من برودة أستراليا إلى حرارة الفلبين.. وهكذا. واستطاع السفير المصرى أن يدخلنى «مستشفى البحرية» الأمريكية. لا أعرف ما الذى قاله السفير المصرى لإدارة المستشفى. ولكنى دخلت. وخلعت ملابسى. وأعطونى رقماً. وأجلسونى على مقعد له عجلات.

ووجدتنى أتنقل من ممرضة إلى ممرضة.. ومن طبيب إلى طبيب، تحاليل دم وأشعة ووزن وقياس ضغط على الظهر وعلى البطن.. وشواكيش تدق ركبتى وظهرى وكتفى.. ولم تتوقف تنقلاتى بين الغرف المضاءة والغرف المظلمة.. وكل وجوه الأطباء واحدة. أو لم أعد أعرف أحداً من آخر.. وبعد أسبوع أعطونى كراسة، هى تسجيل لحالتى الجسمية كلها. وقالوا: فى استطاعتك أن تذهب إلى أى طبيب.. فهذه بطاقتك الشخصية!

والآن: أمامنا ثلاث طرق لعلاج المريض: إما أن نعالج المريض، أخذاً بأقواله هو، ودون تشخيص أو دراسة.. وإما أن نشخص المريض ونرسمه ونحلله دون أن ننتظر منه كلمة واحدة.

أما الطريقة الثالثة فهى: بما أن هذا المريض ليس مصاباً فى جسمه فقط، فلابد أن نعرفه، ولن نعرفه دون أن نلتقى به. ولن نلتقى به دون أن يكون آمناً على الذى يقول، ولن يتحقق هذا الأمان إلا إذا كان الذين يتولون الحوار معه هيئات علمية محترمة. كما حدث فى أمريكا بعد حرب فيتنام. وكما حدث فى بريطانيا بعد العدوان الثلاثى على مصر، وكما حدث فى فرنسا بعد وفاة ديجول.. وهذا هو الذى ينقصنا، وليس يكفى أن نعترف بالنقص، ونكافئ أنفسنا على ذلك بأن نقول: إن الاعتراف بالرذيلة فضيلة، إنما يجب أن نعالج أنفسنا قبل أن نعالج غيرنا. أن نزيل نقصنا قبل أن نعرف «النواقص» فى حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية.

إن المثل الذى دخل به التاريخ رجل اسمه «سبارتاكوس» على

أنه محرر العبيد، يحب أن نذكره فى مناسبات عديدة. فهذا الرجل أتى بجيش من العبيد ليحرر العبيد. وكل الذى فعله أن وضع السلاسل فى أيدى السادة، وجعلهم عبيداً للعبيد.. إنه لم يحرر العبيد، إنما أضاف إليهم عبيداً آخرين.. فكأنه انتقم من الهوان الذى لحقه، بأن خلعه على الآخرين.. فلا حرر العبيد من عقدة أنهم عبيد، ولا استطاع أن يغرس فى السادة أنهم ليسوا كذلك وأنهم عبيد. فنحن نريد أن نحرر أنفسنا من نقص المعلومات، والجهل بمجتمعنا، لكى نصبح قادرين على تصحيح الأخطاء وتقويم المسار الطويل وتجفيف الدماء.. ولكن إذا نحن لم نكن جادين فنحن إذًا كالطبيب الذى يجرى عمليات جراحية بأدوات ملوثة.. ومهما كان الطبيب بارعاً. فإنه سفاح قد ارتدى ملابس الأطباء.. وهو قاتل يطبق أحدث نظريات الجراحة!

فإذا كان الملل قد تسرب إلى نفسك من كثرة ما يقال عن أزمة الشباب، وعن انحراف بعض أبناء مصر، وعن المسدسات التى نبتت فى الأيدى الناعمة، فأنت قد ضقت بهذه القضية، وإذا أصبح الضيق بها عاماً. كان هذا الضيق نوعاً من حفظ القضية. ومقدمة للإفراج النفسى الاجتماعى عن الجريمة المستمرة.. عن جبل الجليد الذى انقض وحشاً خارجاً من الأعماق ليقتل بكل حجمه ووزنه..

وليس أكثر خطورة على دراسة هذه القضية من الملل عند سماعها أو قراءتها.. إلا استعجال حلها.. كأن المرض معروف، والتشخيص معروف، ولم يبق إلا العلاج. والمرض هو أى حل سريع؟!

وقديماً تعلمنا من أستاذنا العظيم سقراط، أن عدداً من تلامذته التفوا حوله. كلهم تكلموا.. إلا واحداً. فقال له سقراط: يا سيدى تكلم حتى أراك!

لقد طلب إليه أن يتكلم حتى يعرفه. فلا وسيلة لأن يعرفه إلا إذا قال شيئاً!

ويقال إن الإمام الشافعى قد لاحظ هو الآخر أن واحداً من مريديه لم يتكلم. وقد تهيب الإمام الشافعى أن يجلس على راحته فى مواجهة هذا الرجل الذى يبدو مهيباً وقوراً.. ثم طلب إليه الشافعى أن يسأله ما شاء. فما كان من هذا الرجل إلا أن قال له: إذا وجد الإنسان نفسه فى الشمس ولم يجد ماء يتوضأ به أو تراباً يتيمم به، ولم يصلِّ مدى الحياة.. فهل يدخل النار؟

وقال الإمام الشافعى: الآن يحق للشافعى أن يمد رجليه!

فقد اكتشف الإمام الشافعى أن الرجل تافه، وأنه لا يستحق الاحترام.. وأن من حق الشافعى أن يمد رجليه وقدميه ويضعهما فى عينيه!

فلابد لكى نعرف الشباب أن نسمعهم. ولكى نسمعهم فلابد أن نقترب منهم، وأن نؤمنهم، لكى نأمنهم ـ إنهم مصر: حاضرنا ومستقبلهم!

# إنها فرصة لتصحيح كلمات في «قاموس الشيطان»!

هناك شعوب ترى «العصر الذهبى» وراءها، وشعوب تراه أمامها: مثل أمريكا وروسيا..

وهناك شبان يبكون على الذى فات ومات، وشبان يتطلعون إلى الفردوس الذى هو آت..

والذى تعانى منه مصر الآن: هو أن شبابنا المتطرفين يبكون على الذى مضى ولن يعود. ولذلك يحاولون أن يعيدوه بالقوة. فهم يرون أنه لا أمل فى الحاضر، وأن المستقبل يجب أن يكون إحياء للماضى..

وكل الناس يتكلمون عن الشباب - إلا الشباب أنفسهم!

ولم يبق إلا أن نفتح الحنفيات فنجد الماء أحمر اللون يكتب كلمة: الشباب. فقد أسرفنا فى الكتابة والحديث عن الشباب، حتى وقع ما تخوفت منه فى هذا المكان أكثر من مرة: أن نمل الحديث عنه. وأن نضيق به. وأن نقفل الراديو والتليفزيون والصحيفة وأن نقول: لدينا مشاكل أخرى!..

وهذا «الضيق» يتفق مع المزاج المصرى. فنحن نتحمس بشدة. ونفتر بسرعة. ونسرف إذا تحمسنا، ونبالغ إذا مللنا. ونحن الآن فى مرحلة تتجه إلى القرف الذى هو مقدمة الليل الذى هو بداية الانصراف عن الشباب إلى أى شىء آخر..

والذين يحفظون تاريخ النغمات الفكرية، والإيقاع الجدلى، يجدون أن هناك تشابهاً بين الذى يقال الآن عن الشباب والذى قيل بعد اغتيال الدكتور الذهبى، وبعد «انتفاضة الحرامية» فى شوارع مصر سنة ٧٧، وبعد نكسة سنة ٦٧، وبعد انفصال سوريا عن مصر سنة ٥٨، والعدوان الثلاثى سنة ٥٦..

والمؤرخان عبدالرحمن الجبرتى وعبدالرحمن الرافعى يصفان شيئاً من ذلك عند دخول الفرنسيين القاهرة واقتحام نابليون للأزهر بخيوله - أى بعد الهزيمة والإذلال لمصر..

ومثل ذلك حدثنا عنه الفيلسوف الوجودى سارتر عندما دخل الألمان باريس.. وأعلن أنه منذ تلك اللحظة أصبح الفرنسيون أحراراً من كل قيد، وكل قيمة، وكل تراث، وأن فى استطاعتهم أن يفعلوا أى شىء، ولا لوم عليهم. لأن الألمان قد جردوهم من الشرف والكرامة، فعليهم أن يفعلوا بالضبط ما يفعله الإنسان الذى لم يعد شيئاً، ولم يعد كريماً على نفسه أو أحد..

وبعد النكسة كانت هناك مناقشة عن «أزمة الثقافة» فى مصر. أى أن المثقفين قد تأزمت حالتهم المعنوية، وارتعدت أقلامهم، وارتجفت الأرض من تحتهم. فهم ضحايا الهزيمة ورهائن العار. ولكنى فى ذلك الوقت كان لى رأى آخر، وهو أن

الذى كنا نعانى منه، لم يكن «أزمة ثقافة» إنما كان «ثقافة أزمة». فالأزمة التى أحرقتنا لم تقض علينا، والهوان الذى لحقنا لم يجعلنا تراباً تدوسه الأقدام. وتحيرت الأقلام وتعذبت بهذه الأزمة. فكان الأدب والفن والسياسة تعبيراً عن الأزمة، فكان ثقافة مختلفة، ولم يكن إفلاساً فى الثقافة.

وإذا كان هذا الذى يقال فى كل مجال الآن عن الشباب، هو تكرار لما قيل، ولكن بصورة أخرى أوسع وأعنف، فمعنى ذلك أننا قادرون على أن نقول كلاماً مكرراً وبحماسة شديدة، كأنه شىء جديد. والتكرار هو أسلوب المطرب والسياسى والمدرس. فهم جميعاً خبراء فى التكرار. لا يملون. ولا يضيقون. بل يجدون فيه لذة متجددة ـ لقد أصبحنا جميعاً كذلك!..

وسبب ذلك أننا ننسى بسهولة، أو نريح أنفسنا بأن ننسى الذى يضايقنا. وهذه هى النعمة الكبرى للنسيان. ومعنى ذلك أيضاً أننا لم نستفد من الأحداث التى جرت وجارت علينا. فلا الذى حدث كان درساً، ولا نسيانه كان عبرة لأحد. ومعنى ذلك أن أحداث التاريخ قد علمتنا ألا نتعلم منها شيئاً. وهذه خصلة مصرية.

ولذلك كان موشى ديان على حق عندما قال: إن إسرائيل هزمت مصر فى ١٩٦٧ تماماً كما هزمتها فى ٥٦ وبنفس الطريقة. وقال ما هو أكثر سوءاً من ذلك: إن إسرائيل لو حاربت مصر مرة ثالثة وبنفس الطريقة فسوف تهزمها أيضاً. فالمصريون لا يتعلمون، استخفافاً بنا، أو غروراً زائداً.

ولم يحدث ما توقعه ديان فى حرب ٧٣، لأننا تعلمنا هذا

الدرس الصغير الفادح. فقد غيرنا أسلوبنا، بينما لم تغير إسرائيل أسلوبها. فحاربنا عدواً نعرفه، وحاربنا عدو لم يعد يعرفنا!..

وبعد اغتيال الرئيس السادات ارتفعت النبرة – وهذا طبيعى – واتسعت مساحات الكلام، وطالت ساعات الحوار. أما الموضوع فهو: الشباب..

ولم يحدد لنا أحد حتى الآن من هو الشاب بالضبط، هل بالضرورة يجب أن يكون جامعياً؟ وهل من الضرورى أن يكون متديناً، أو متديناً متطرفاً؟ وهل صحيح أنه فاشل فى حياته وفقير دائماً؟..

لقد أصبحت كلمة «شاب» مثل كثير من الكلمات التى تملأ أفواه الناس. ولكن أحداً لا يعرف حدودها. وعندما سئل الأديب الفرنسي استندال عن الحب قال: إن الحب مثل العفاريت، يتحدث عنها الناس، ولكن أحداً لم يرها!..

وكذلك الشباب، فالكل متخصص فيه وفى مشاكله. ولكن لكثرة الصفات التى وضعت للشباب، لم يعد أحد يعرفه إذا رآه. وإذا رآه لم يعد أحد قادراً على أن يتحدث إليه، وإذا فعل فلن يفهمه. وإذا فهمه فإنه يدينه.. وحين يدينه يرفضه. وتبقى الفجوة بين الأجيال، أكثر اتساعاً وعمقاً. وعندئذ نفكر من جديد فى بناء الجسور للعبور إلى الشباب الذى ابتعد عنا ـ مع أننا نحن الذين أبعدناه!..

ومادام الشباب قد أصبح بعيداً، فنحن لم نعد نراه بوضوح، حتى أصبحنا ننظر إليه على أنه كائن حى مختلف عنا تماماً.. وبذلك تكون الكائنات الحية ثلاثة: الإنسان والحيوان والشبان؟!..

فنحن قد اخترنا لأنفسنا الخطأ، واخترنا أن نقع فيه. فالإنسان عدو لمن يجهل. ونحن أصبحنا نجهل الشبان. وعلى ذلك فنحن أعداؤهم. ونتوهم أنهم هم الذين اختاروا العداء لنا. وهذه غلطة أخرى باهظة الثمن. لأن الشباب ليس مختلفاً تماماً عنا، إنه أكثر حساسية. والشباب ليس معناه أن يكون الإنسان بين العشرين والثلاثين.. أى أن الشباب إحدى مراحل العمر. والحقيقة أن الشباب هو إحدى حالات العقل. أو أن الشباب هو نشوة العقل وانتفاضة الإرادة وشطحات الخيال. ولم يتحقق فى التاريخ شيء عظيم. لم يكن صاحبه شاباً!..

ودهشتنا لما يفعله الشباب تدل على أننا نسينا كيف كنا ونحن صغار، وماذا قلنا، ولماذا اختلفنا مع آبائنا. والذين يحتفظون بمذكراتهم عندما كانوا شباباً، لو عادوا إليها لوجدوا أشياء عجيبة. قرأت فى مذكراتى عندما كنت تلميذاً بمدرسة المنصورة الثانوية، يوم قررت الانتحار، أن أسباب ذلك كانت هى أننى كنت تلميذاً متفوقاً، ولكن مرض أمى، وغياب أبى، جعلنى أرى أن الانتحار هو الوسيلة الوحيدة للخلاص. ولم أشرح لنفسى معنى «الخلاص». ولكننى أفهم الآن أننى كنت أفتقر إلى التقدير. ولم يكن أحد من أهلى على استعداد لأن يصفق. فقد كانت العين بصيرة واليد قصيرة ـ أى أن العين ترى ولا تجد شيئاً يستحق الاهتمام، واليد كانت أقصر وأضعف من أن تمتد ناحيتى. فقد كان تشجيعى ـ إذاً ـ نوعاً من المشاعر الأجنبية على أسرة سحقتها الظروف فى أحد أركان المجتمع..

وتقول لنا الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار إنها قررت أن تكون رجلاً. فحلقت شعرها، ودخلت فى البنطلون، وراحت تتكلم بصوت غليظ، لأن أمها لم تستمع إليها وهى طفلة سعيدة بنظم أولى قصائدها. ولم يشفع للأم أنها كانت تسعل بشدة، وأن ارتفاع درجة حرارتها قد جعلها لا تقوى على الرؤية ولا على السمع ولا على الفهم!..

ولكننا نحن الكبار ننسى الفعل ورد الفعل على ما كنا نقوم به. ولو تذكرنا ذلك لحظة واحدة، لوجدنا لشباب اليوم ألف عذر.. ووجدنا أن الذى كنا نفتقده هو ما يفتقده أيضاً. ومطالب الشباب متواضعة. ولكننا نبالغ فيها، حتى نجد لأنفسنا مبرراً فى الاعتذار عنها أو رفضها أو إدانته تماماً. وفى ذلك راحة لنا من التفكير لهم والحوار معهم، وإلقاء الوحل عليهم أو إلقائهم هم فى الوحل، ولكننا نستطيع أن نلقى عشرة ومائة وألفاً، ولكن ما الذى نستطيعه أمام مليون طفل يولدون كل عشرة شهور، سيصبحون شباباً بعد مائة شهر؟!..

إن أديب ألمانيا جونترجراس وجد حلاً خطيراً. ولكنه قمة السخرية من العصر الحديث كله. لقد كتب رواية جعل بطلها شاباً توقف نموه. أى أن هذا الشاب قرر ألا يكون شاباً فيكون عبئاً على أحد، فأصبح طفلاً فى العشرين والأربعين والخمسين. فلا كان طفلاً ولا شاباً ولا شيخاً. إنما هو محذوف من جداول الجميع.. ثم إنه عبء على الناس. فالأديب الألمانى عرض مشكلة الشباب فى هذا العصر، بأن أعفى «النظم القائمة» من المسئولية. وسجن الشبان فى جلودهم، وأوقف تاريخهم. فجعلهم نكتة بيولوجية يضحك لها العلماء، ويبكى عليها السياسيون ورجال الدين!..

فهل نحن أيضاً، نحاول بالبكاء المستمر على الشباب والبكاء خوفاً منهم، أن نوقف نمو الشباب، لأننا لا نريده أن يكبر، ولأننا لا نريد أن نتقدم؟..

دعانى الصديق محمد رشوان وزير الدولة لشئون مجلسى الشعب والشورى إلى إلقاء محاضرة موضوعها «ثقافة الشباب». وكان يهمنى أكثر أن أسمع الشباب، إيماناً منى بأننى لا أعرفك حتى تتكلم. فإذا تكلمت فقد عرفتك. واسترحت إلى أسئلة الشبان. لأنها تطابق تماماً ما يدور فى رأسى. فما الذى طلبه الشبان؟.. طالبوا بمزيد من المكتبات العامة، وبكتب أرخص. انتهى كل الذى يريده الشبان.

ولا أعرف ما الذى كان يطلبه الشباب لو كان موضوع المحاضرة هو أزمة الإسكان، أو ارتفاع الأسعار، أو صعوبة المواصلات، أو الفوارق الهائلة بين الأثرياء والفقراء، أو عن العمل والأجور، وعن الهجرة، وعن الإيمان، ومن هو المسلم حقاً؟..

وفى نفس الليلة جاءنى ثلاثة من الشبان من كليات الهندسة والعلوم والحقوق. وكانت لهم أسئلة أخرى، لم يتسع الوقت المخصص لأن يتقدموا بها. بدأوا حديثهم هكذا: نحن مسلمون. وإسلامنا صحيح. ونحفظ القرآن الكريم لأننا من أبناء الريف. ومن عائلات غنية والحمد لله. ومن المنصورة والإسكندرية وأسيوط. وقد تعارفنا وتآلفنا فى نقاش حول ثمن اغتيال الرئيس السادات، ومن الذى سوف يدفعه: الشباب أو مصر أو العرب.. أو أن الرجل قد دفع عنا الثمن: حياته.. ثم أقفل هو

الحساب؟.. فهل هو أقفله حقاً؟.. وهل من حق أحد أن يستأنف الحكم فى قضية السادات؟..

وانتقلنا إلى «قاموس الشيطان» - إن صح هذا التعبير - أى قاموس الكلمات الخطرة على الحياة والسلام والدين والمستقبل.. فقد وجدوا، وأنا أيضاً، أن الرد على الجماعات الدينية سهل، بشرط واحد هو أن ينشر فكرهم كله، وينشر الرد عليه. ولا خوف على أحد من الفتنة مادام الرد مقنعاً..

وكنت قد قرأت الكثير من منشورات جماعة «التكفير والهجرة».. وكان د. سعد الدين إبراهيم الأستاذ بالجامعة الأمريكية قد سألنى منذ سنوات إن كنت على استعداد للقائهم فى السجن.. فوافقت فوراً. وقال إن هذه رغبتهم بعثوا بها إلى مباحث أمن الدولة..

وجاءنى خطاب من د. أحمد خليفة يعلق على ما كتبته عن الشباب فى هذا المكان، وأنا أشكره على تقديره الكريم لما قلت. وفى خطابه أيضاً قال لى: إن جماعة التكفير والهجرة قد طلبت أن تلتقى بى. وأن يكون بيننا حوار. لأسباب من بينها أننى أكتب كثيراً عن الشباب، وإننى كنت مدرساً فى الجامعة، وإننى أحفظ القرآن الكريم، وإننى كنت من الإخوان المسلمين. وإن تجربتى الدينية كانت عبر هضاب ووديان وكهوف وغابات فلسفية ودينية..

ويوم أدين شكرى مصطفى وأعدم، كتبت دفاعاً عنه، لا باعتباره قاتلاً، ولكن باعتباره مؤمناً من نوع خاص. ولكنه لم

يلق من يحاوره. ولأن تمرده ليس دينياً كله. ولأنه يستحيل أن نفصل بين الوجدان الدينى والعقل السياسى والوضع الاجتماعى والمرحلة التاريخية..

ووجدتنى أتحدث إلى هؤلاء الشبان الثلاثة عن مفردات فى «قاموس الشيطان» ـ أى قاموس التطرف الدينى ـ وهو فى نفس الوقت تطرف فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والارتباطات الدولية العربية وغير العربية.

مثلاً كلمة «الإمام» وهى مرادفة لكلمة «أمير الجماعة». هذه الكلمة أخذوها عن المذاهب الشيعية. فالإمامية هى التى ترى أنه فى غياب النبى عليه الصلاة والسلام، وفى غياب الخليفة على ابن أبى طالب وأحفاده، يكون الإمام هو النبى المعصوم من الخطأ. ولديهم أحاديث غريبة أكثرها مدسوس على الإسلام تؤكد هذه المعانى. وتسعفهم الآيات القرآنية ذات التفسيرات الغريبة فى تأييد هذا المعنى..

وشكرى مصطفى كان يرى أنه هو هذا الإمام. وعلى ذلك فلا يحق لأحد أن يعارضه أو يرد عليه. هو القانون مادام القانون الإسلامى غائباً، وهو الإمام أو الرسول، مادام الرسول أو الإمام غائباً..

أما «التكفير» فهو أن المجتمع المصرى كله كافر. لأنه لا يحكم بكتاب اللّه. وحتى النص فى الدستور على أن الإسلام أساس التشريع ليس كافياً. لأن فى الدستور نصاً يطالب «بالرجوع إلى الشعب». يرون أن الرجوع لا يكون لغير اللّه وإلى كتاب اللّه، وإلى

سنة رسوله. وعلى ذلك فمصر دولة كافرة. والمساجد التى تقيمها الدولة الكافرة لا تصح فيها الصلاة. ولذلك فهم يصلون فى بيوتهم. لماذا؟ لأنه لابد من «التمكين» أو «التمكن» - أى أن يتمكنوا من السلطة المطلقة فى حكم البلاد - فإذا حدث ذلك، فالصلاة فى المساجد حلال!

ويرون أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. ولو كان الله يريده قارئًا أو كاتباً لجعله كذلك. ويقولون إنهم لم يقرأوا أن الرسول قد بنى مدرسة واحدة. إذًا فلا داعى للتعليم. إنما الأمية سنة عن رسول الله وأمر من الله ولذلك كانوا يشجعون الشبان الصغار على ترك المدرسة أو الجامعة؟!

أما «الهجرة» فهى أن يهاجر المسلم بدينه بعيداً، لأنه لا يطيق أن يعيش فى مجتمع كافر، لما كانت الهجرة إلى دول أخرى أمراً صعباً، فهم يهاجرون إلى الكهوف. وفى الكهوف يتحقق لهم أمران: «الهجرة» و«الكمون» أى الاختفاء والتربص.. أو أن الهجرة هى ما يسمونه «التقية» أى أنهم يختفون أو يتنكرون فى أية صورة أخرى. ومن بين هذه الصورة إنهم يمالئون النظام القائم ويخدعونه. ولا يكون ذلك كذباً اجتماعياً أو نفاقاً، إنما هو نوع من التلون الذى تلجأ إليه الحشرات والحيوانات. فالتقية هى نوع من التمويه من أجل ألا يرصد حركاتهم أحد.. وفى الكهوف جمعوا السلاح وتدربوا عليه..

أما من الذى يمولهم: فهم شبان آخرون فى مصر أو فى البلاد الأخرى. أو أنهم ماداموا فى حالة حرب وجهاد مع المجتمع، فكل الذى يخطفونه ويسرقونه هو «غنائم حرب»..

ومادامت الدولة كافرة فقضاياها أيضاً. فالحرب بين مصر وإسرائيل لا يدخلونها. لأنها حرب بين جيشين كافرين. ولذلك يهربون من الجندية ويستنكرونها!!..

وكلمة «الجماعة» هي من أكثر الكلمات غموضاً. فهناك أحاديث دينية تتحدث عن «الخروج عن الجماعة». والمقصود بالجماعة في هذه الأحاديث: جماعة المسلمين أو إجماع المسلمين. ولكن التفسير الذي يراه هؤلاء المتطرفون هو أن الجماعة معناها «جماعتهم». لأنها هي وحدها الجماعة المسلمة إسلاماً صحيحاً في مجتمع كافر كفراً صحيحاً!

أما «القتل» فهو أكثر الكلمات وضوحاً. فالكافر لابد من قتله!..

ولا خلاف بين كل الجماعات المتطرفة على هذه المعاني وغيرها. وهي معان خطرة. أما مناقشتها والرد عليها وتفنيدها فسهل جداً.

ولكن يعيب موقفنا اليوم وغداً أننا بدأنا نضيق بالكلام الكثير والتحليل والتطويل. وبدأنا نتخوف أيضاً من تصورات وتطورات جديدة ترى أن كل الذي ينقص هؤلاء الشبان هو الدين. أي أننا سنواجه الدين بمزيد من الدين. أو نواجه الدين المرفوض بمزيد من الدين الرافض له. وبنفس العنف.

فهل ترفع المصاحف على السيوف، أو ترفع السيوف بلا مصاحف، أو المصاحف بلا سيوف؟

إن أحداً لم يقل لنا شيئاً بعد!..

أما فورات وثورات الشباب في الغرب في نهاية القرن

التاسع عشر وفى عشرينات وخمسينات وستينات هذا القرن. فقد وجدت من يدرسها ويحللها بالعقل. أى دون حاجة إلى «ندابة» فكرية، أو «البكائين» على الشباب وعلى مصر - والندابة هى سيدة تحترف البكاء والعويل فى الريف. فعندما يموت أحد يأتون بهذه السيدة لتقود جموع الباكيات لأنها أقدر على «التعديد» - أى تعديد مزايا الفقيد، وتعديد الكوارث التى سوف تصيب أهله من بعده. وبذلك توجع القلوب، وتعتصر الدموع، وتتقاضى أجراً على ذلك!..

فعندما نظر الكاتب الروسى تورجنيف إلى ثورات الشباب، اقترب منهم واستمع إليهم. ووجد التشخيص المناسب لذلك. فقال: إن كل شاب يجب أن يختار بين أن يكون «هاملت» بطل مسرحية الشاعر الإنجليزى شيكسبير، وبين «دون كخوته» بطل رواية الأديب الأسبانى سرفانتس. أما هاملت فهو مثقف مدمر. ثم إنه شخصية انتحارية. أما دون كخوته فهو ذلك الإنسان المتفانى من أجل المثل العليا، والمعادى لكل النظم الاجتماعية، والذى يطالب بضرورة «العودة إلى الشعب».

ويكون العنف والإرهاب أو الانتحار أو الاستشهاد هو الذى يهدف إليه الشبان. أى أن النهاية ليست انتحار هاملت، إنما انتحار دون كخوته - أى الإنسان المثالى هو الذى ينتحر فى النهاية. لأنه لا يقوى على تبديل المجتمع كله. ولأنه لا يستطيع أن يقضى عليه، فإنه يقضى على نفسه. وبدلاً من أن يكون موته بلا مقابل، فإنه يمنح نفسه لقب شهيد فى سبيل الحرية أو فى سبيل الله!..

ومن مظاهر الملل أخيراً أن الناس عندما رأوا المتهمين باغتيال الزعيم الراحل يضحكون وراء القفص الحديدى.. وعندما وجدوا المحكمة تتلطف أو تتبسط فى الحديث إليهم ضاقوا بالمحكمة والمحاكمة.. فالناس يرون أن اغتيال السادات يجب أن يؤدى إلى إعدام المئات. وأن الإعدام يجب أن يكون فوراً وبلا محاكمة!! والناس هنا عاطفيون.. وقد دفعهم الحزن إلى الغضب. والغضب إلى نسيان أن هناك قانوناً، وأن الشهيد كان ينادى بسيادة القانون. وأن أحداً لا يحاكم أحداً أو لا يتحفظ على أحد إلا إذا كان هناك ما يبرر ذلك..

وإذا كان الإرهابيون يضحكون فتلك حالة هستيرية. والضحك هنا نوع من التعويض عن الشعور بالخزى والفشل. فما من قاتل واحد لا يريد أن يهرب بعد ارتكاب جريمته ليشعر بالنصر الثانى على القتيل..

أما النصر الأول فهو أنه قتله. وأما الثانى فهو أنه استطاع أن يهرب وأن يستأنف حياته سعيداً بهذا الإنجاز العظيم. وقد حاول بعضهم أن يهرب. وهرب. وأمسكوه..

ثم إن اليأس من النجاة هو الذى يدفع الإنسان إلى أن يفعل ما يشاء من الضحك واللهو والسخرية بالمحكمة وبالناس وبالنظام، لأنه يعرف أن النهاية هى الموت أو السجن المؤبد.. وإن حسن السلوك والأدب لن يخفف عنه شيئاً.. ثم إنه لم يعد يخاف، فليس بعد الموت ولا قبله شىء يخفيه. انتهى كل شىء. وهو الآن حر من كل قيد، لأنه إن لم يكن ميتاً فهو فى عداد الموتى!..

وإذا كان للشبان المتطرفين قاموس نحن نسميه «قاموس الشيطان» فيجب ألا ننسى أننا نحن أيضاً قد شرعنا فى تأليف قاموس أكثر سوءاً.. ومن أهم معانيه الخاطئة: أن هؤلاء الشبان حيوانات شرسة متوحشة.. وأنه لا قانون ولا سيادة للقانون عند محاكمتهم.. وأننا قد مللنا من الكلام عنهم، وبعد الملل لن نهتم كثيراً بدراسة أحوالهم أو بهم، لأن هذا قد حدث كثيراً وسوف يحدث كثيراً.. وإذا كان الشباب مرضاً، فقد أصبح الاهتمام بهم مرضاً. وأصبح الملل وقاية، والنسيان ضرورة. وعلى ذلك فبدلاً من أن نتهم الشبان، يجب أن نتهم الآن أنفسنا؟!

وهذا الذى بدأ يصيبنا هو أخطر من هذه الأفكار المتطرفة. أخطر على مصر من هؤلاء الشبان. لأننا الأغلبية القوية التى تنهار وتتفكك أمام الأقلية الشابة..

وإذا كان المرض من عندنا، فإن الشفاء من عند «اللّه» ـ مع رجاء خاص بالنظر إلى معنى كلمة «اللّه» فى قاموس القاتل وقاموس القتيل!..

# من أين نبدأ ؟
# سؤال يجب ألا يظل تقليديًا!

أنت كإنسان متحضر من أين جئت؟.. والسؤال ليس متأخراً.. فنحن نتساءل عادة في مواجهة الأزمات والكوارث الكبرى.. ويكون السؤال مثل مظلة واقية ننشرها حتى نهبط بسلام.. وقد اعتاد الإنسان على أن يقف بثبات في وجه المصائب. وأن يتساءل: إلى أين؟.. أو على الأصح: أنا إلى أين؟..

أي في مواجهة: أزمة عدم الثقة.. أو فجوة الأجيال.. أو أزمة الشباب والعنف.. أو التطرف الديني..

ولولا حاجة الإنسان إلى النجاة من الموت والمرض والكوارث ما تولدت الاختراعات. فالحاجة هي أم الاختراع، وهذا هو جوهر الحضارة الإنسانية.

ولما سئل الأديب الفرنسي فيكتور هيجو عن كيف ولدت الحضارة؟ أجاب: من دموع المسيح ومن ابتسامة فولتير ـ أي من المثل الأعلى للإيمان والرحمة، ومن العلم والفلسفة والسخرية من أن تمشي طول الطريق وراء أي مسيح!

ولما سئل الفيلسوف الأمريكى فرانكلين عن معنى الحضارة قال: أن تتوافر للإنسان كل أدوات العمل والحياة، وأن يتوافر له الوقت لكى يستريح من كل ذلك..

والفيلسوف الإنجليزى كارليل قال: الحضارة هى البارود والطباعة والثورة على سلطان الدين..

وأستاذنا العقاد قال: أن تشعر الأقلية بالأمان فى حضن الأغلبية - أياً كانت الأقلية، وأياً كانت الأغلبية..

ففى مواجهة الأزمات يكون رد الفعل غريزياً. فالإنسان يخشى أن يموت فجأة وأن تتلاشى دنياه. ولذلك فعندما يتساءل عن مستقبل حياته، يكون التساؤل دليلاً على التفاؤل. لأن معناه أن هناك وقتاً للحياة وللتخلص من هذه الأزمة.. ففى ألف ليلة وليلة عندما طار النسر وبين رجليه أحد التجار فزع التاجر. ولكنه وجد ما يسعده حين قال: الحمد لله أننى لم أملأ بطنى طعاماً وإلا لسقطت من بين مخالبه محطماً!

مع أنه لو سقط جائعاً فسوف يتحطم - تكفى جاذبية الأرض!

وفى «كليلة ودمنة» نجد الأسد عندما مرض لم يعد أحد يزوره. فلم يعد قوياً. وفى نفس الوقت لم يعد قادراً على أن يصيد فرائسه، فكان يأكل زواره من الحيوانات. ولما انقطعت الحيوانات عنه قال: لو بقيت فإننى سوف أموت جوعاً.. ولو خرجت وسقطت من الإعياء فإن الطيور سوف تنهشنى.. إن غلطتى أننى لم أكن كريماً مع هذه الحيوانات.. وهذا ما سوف أفعله عندما أنهض من رقدتى!

ولم ينهض. ولكنه فى مواجهة الموت جوعاً، تساءل مقدماً عن الذى فعله والذى ينبغى أن يفعله..

وابن بطوطة فى رحلاته يروى أنه عندما كان فى بحر الصين هبت عليهم عاصفة عنيفة أطاحت بركاب السفينة. وراح كل واحد ينذر لله إن وصل إلى البر سالماً أن يصلى ويصوم ويتوب.

يقول ابن بطوطة: لو كان هذا حال كل الناس إذا هاج البحر أو هبت العواصف ما خرج الإنسان من بلاده، ولما اكتشفنا مجاهل الدنيا، ولما عرفنا عادات الناس.

إن الثبات ضد البحر والموج والمرض والجوع والظلم والظلام، هو جوهر الحضارة!

كأنما أراد أن يقول: إن هذه هى تحديات الإنسان التى صنعت حضارته!

وقد عرفت الحضارة الإنسانية كل أنواع التحديات: الحروب والأوبئة والجوع والبطالة. ووجدت طريقاً للخلاص منها، لتقع فيها من جديد. ولتقيم فوقها الجسور وتحتها الأنفاق وتتجاوزها بالطائرات.. وإلى ما لا نهاية.

فكيف نبدأ شيئاً جديداً فى مواجهة القديم الذى لا يعجبنا!

يقول برنارد شو: إن آدم عندما نزل إلى الأرض وجد زوجته تسوى شعرها، فراح يقلدها. وفجأة أمسك فأساً وراح يقلب الأرض. وأمسكت زوجته أوراق الشجر وراحت تصنع ملابسها.

يقول شو: ولم يكن لدى الإنسان وقت لأن يتساءل.

أى أنه بدأ أية بداية. واستمر فى ذلك..

فما هى هذه البداية التى نتحرك إلى ما بعدها؟..

عندما سئل أحد الفلاسفة الألمان عن سر عبقرية الشعب الألمانى. قال: إننا قبل أن نذهب إلى الجامعة، نمر على الثكنات!

أى أن المجتمع الألمانى به جامعات وبه ثكنات. وقبل التفرغ للعلم، لابد أن يتعلم المواطنون النظام والطاعة والانضباط وروح الفريق.

وعندما سئل الأب توماس الأكوينى الفيلسوف الفرنسى: إن كان الإيمان كافياً للتفوق فى العلم. أجاب: لا تفوق فى شيء بغير إيمان!

وقال: إن الوسيلة الوحيدة لأن تكون لنا حياة، هى أن نعيش فى الأديرة، ثم نعود إلى الناس وقد زدنا إيماناً ورغبة فى تحسين ظروف الحياة.

ولا تختلف حياة الدير عن حياة الثكنات: فهى عزلة وتفرغ وانضباط وزهد وتضحية..

وحياة العلماء الآن فى الدول الصناعية الكبرى هى العسكرية والرهبانية. فالعلماء يعيشون فى أماكن بعيدة عن ضوضاء المدن وعن الإرهاق الذى تسببه العلاقات الاجتماعية. فهم يعيشون فى «سجون علمية» ـ وهذه السجون هى مصدر النور والحرية لكل الشعوب.

ولما سئل «دوكو» أبو الاقتصاد اليابانى عن عبقرية الشعب اليابانى، كان من رأيه: أن المصانع ليست إلا أسرة. إنها حياة العائلة الواحدة بكل ما فى كلمة العائلة من معنى ريفى قديم. فالمصنع عائلة مرتبطة تماماً!

وعمال المصنع قد ولدوا ليموتوا فى داخله. وإذا ترك الواحد منهم هذا المصنع فإنه لن يذهب مطلقاً إلى مصنع منافس. لم يحدث، وإذا حاول أحد عمال هذه المصانع أن يذهب إلى مصنع منافس، فإن المصنع لا يقبله. لأن العائلات أسرار. والعائلات اليابانية تتنافس ولكنها لا تتصارع.. إنما تتفوق على المصانع الأوربية والأمريكية من أجل رفاهية وعظمة الشعب اليابانى كله..

وقد حدثت فى الثلاثين عاماً الأخيرة تطورات هائلة.. اختفى ما كان يسمى بالتحدى الأمريكى.. فقد كانت أمريكا هى أقوى دول العالم صناعة وأكثرها تطوراً. ولذلك كانت روسيا أكثر تطوراً فى السلاح وعلوم الفضاء. ولكن بعد أن ظهرت دول صناعية أخرى متطورة مثل فرنسا وألمانيا واليابان، لم يعد أحد يتحدث عن التحديات الأمريكية أو الروسية. فقد استطاعت هذه الدول أن تبلغ ما بلغته أمريكا وأن تهدد مصانعها وأن تخطف مئات الملايين من المستهلكين فى العالم كله.

- فكيف حدث ذلك؟

فى عبارة قصيرة: حدث فى القرون الثلاثة الماضية أن كانت الزراعة هى النشاط الإنسانى الغالب، وبعد أن كان العامل الزراعى هو الأغلبية جاءت الثورة الصناعية باستخدام الحديد والفحم. ولم تؤد الثورة الصناعية إلى تطوير العمل الزراعى. ولكن المنافسة الزراعية والرغبة فى الإنتاج الأوفر، أدت إلى أن دخلت الميكنة فى الزراعة. فتطورت الزراعة. ولكن الصناعة انتقلت إلى مراحل أكثر تقدماً، وزاد عدد عمال الصناعة. وظهرت أعمال

أخرى جديدة: كالإدارة والتسويق والتمويل والصيانة والتطوير. وفى العشرين عاماً الأخيرة قفزت صناعة الإلكترونيات، وبلغت قمتها عند صناعة العقول الإلكترونية التى بدأت بعقل إلكترونى أمريكى فى حجم الغرفة.. إلى أن أصبح العقل الإلكترونى فى حجم علبة الكبريت.. وفى العشر سنوات الماضية زاد عدد العمال الذين يشتغلون فى صناعة العقول الإلكترونية والآلات الحاسبة وساعات الكوارتس.. وسوف يؤدى ذلك إلى ثورة خطيرة جداً ترفع عدد العمال وتخفض استخدام الطاقة. وهذه الثورة التى انتقل إليها العالم اسمها «ثورة المعلومات».. لأنه أصبح من الممكن اختزان أكبر كمية من المعلومات فى أصغر الأجهزة، وهذه الأجهزة لا تعمل بالبترول إنما تعمل بمصادر أخرى جديدة.. إن المجتمع الذى نعيش فيه الآن اسمه: مجتمع المعلومات تنقلها وتحفظها وتعرضها العقول الإلكترونية.. هذه العقول الإلكترونية هى التى اتخذت شكل الإنسان الآلى فى كل المصانع الكبرى!

وفى قصة حياة المخترع الاقتصادى اليابانى «دوكو» يقول: إن هذه التطورات الهائلة تدل على عظمة العقل الإنسانى. وإن المصدر الحقيقى لكل شىء هو هذا الجهاز الأعجوبة الذى على كتفيك. إنه المخ الإنسانى. وإلى هذا المخ يجب أن نتجه بأفكارنا. فإذا عرفنا المخ الإنسانى، وهو المصدر الذى لا ينفد للإبداع، فكل شىء بعد ذلك هين تماماً! وهذه هى البداية لكل عمل عظيم أو مجتمع يريد أن يكون عظيماً!

يقول السيد دوكو: لو كنا عرفنا طبيعة خلايا المخ الإنسانى لوفرنا على البشرية عشرات السنين فى بحث قضايا لا جدوى منها.. وهى قضايا الصراع والنزاع والخوف من الحياة والخوف من الموت.. بل لقضينا على الحروب.. ففى كل دولة فى العالم ما يكفيها ويزيد عليها من كل احتياجاتها.

يقول أيضاً: عندما يولد الطفل يكون مخه مكوناً من عشرة آلاف خلية. هذه الخلايا منفصلة بعضها عن بعض. ولكن هذه الخلايا لا تستطيع أن تعمل وحدها. لابد أن تتشابك وأن تتماسك، بل إن هذه الخلايا تشبه الأيدى عندما تتداخل أصابعها.. وتشبه الكبارى التى تربط بين الشواطىء.. والصورة التى التقطت لخلايا المخ عند ميلاد الطفل تؤكد هذا المعنى، وتؤكد أن هذه الخلايا تمارس كل قدراتها فى السنوات الثلاث الأولى للطفل.. فهى تتماسك وتستجيب للمؤثرات الخارجية التى تأتى بها الحواس..

ويقول: هذه الخلايا تشبه أجهزة الترانزستور تماماً.. هذه الترانزستورات فى أى جهاز لابد أن تعمل معاً. تتبادل المعلومات والفعل وردود الفعل. ولا يوجد ترانزستور يعمل منفرداً ـ تماماً مثل كل خلية فى المخ.

والعلاقات المتشابكة والترابط بين الخلايا تشبه بالضبط الأسس الأولى لبناء أى مصنع.. الآلات الحديدية والقواعد الخرسانية.. ولكن بعد ذلك يجب أن ننتقل من وضع الأساس الضرورى، إلى «التشغيل» وكيفية استخدام الآلات وتطويرها بعد

ذلك، ولا يمكن أن نصل إلى نتائج رائعة، إذا كانت العقول الإلكترونية رديئة!

المعنى: البداية هى الطفل. البداية هى المخ ومعرفته وتشغيله!

وفى آخر محاضرة ألقاها فى طوكيو فى العام الماضى قال: إن مجموع العمليات التى يستطيع المخ الإنسانى أن يقوم بها ١٢٥ ألف عملية، فما الذى يعجز عنه الإنسان.. أى إنسان؟!

وفى آخر دقيقة فى محاضرته التاريخية الثورية، التفت إلى الكرة الأرضية التى وضعت فى القاعة وقال: إننا هكذا نقضى على قلق الشباب وسخطهم فى العالم كله!

وليس شيئاً جديداً أن أقول إن اليابان دولة ليست لها موارد من الفحم والحديد والبترول. وإن مناجم اليابان هى التى استقرت فوق أكتاف أبنائها.

ويوم كان الرئيس السادات، يرحمه الله، يتمنى أن تلحق مصر باليابان كان حالماً. ولكن أحداً لم يتول تفسير حلم الرئيس الراحل. ولا كيف يصبح الحلم حقيقة..

وبعض المتسرعين فى تفسير الأحلام، رأوا أن نبدأ من جديد.. أى نبدأ من كل البدايات العلمية لنعرف معنى التطور.. فنبدأ بالعربة البخارية ثم بالسيارة البترولية ثم بالطائرة وهكذا.. وليكن ذلك فى عشر سنوات.. وفى هذه السنوات العشر تكون اليابان قد تقدمت مائة عام أخرى!!..

وأيسر وسائل الاستفادة من الحضارة هى أن نستورد آخر ما وصلت إليه، وهذا ما نعمله. ولكن المشكلة دائماً: ليست الذى

نستورده، ولكن كيف نصونه، وكيف نستفيد منه، وكيف نرتفع إلى مستواه العلمى!.

إن رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس فى منتصف القرن الماضى، قد بهرته الحضارة الفرنسية، وسجل ذلك فى كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص بارين». ويوم رأى عربة رش الميادين فى باريس توضأ وصلى لله ركعتين. «لعله أن يقيض للكنانة مثل هذا الاختراع اللطيف».. ولكن أحداً من المصريين لم يقتبس هذا الاختراع، وظللنا عشرات السنين بعد ذلك نرش شوارعنا وميادينا بالجرادل والبلاليص!.

وفى آخر أيام المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى، لاحظ أن الفرنسيين يضعون ورق عباد الشمس فى كوب به سائل. يدخل الورق أبيض ويخرج أحمر، فبهره ذلك. ثم وجد عندهم المطابع للكتب والصحف..

ورغم هذه الأشياء الباهرة فقد رآهم غزاة ظالمين، ولما ذهب إلى المحكمة وجدهم عادلين فى محاكمتهم للمصريين.. واستنتج الشيخ الجبرتى أن الفرنسيين «رغم أنهم مسيحيون فهم متحضرون حقاً» عندهم علوم زاهرة، ثم إنهم يؤمنون بالعدل والحرية والمساواة أمام المحاكم - وهذا معنى آخر للحضارة الإنسانية..

وقد سجل لنا ذلك فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»..

ويوم شهدت مصر عربات الرش وعباد الشمس كان الفرنسيون قد وضعوا أسس علم الديناميكا الحرارية - التى اكتشفها العالم الكبير كارنو..

فمن أين نبدأ؟

من عشرين عاماً وقف الرفيق خروتشيف وراء الزعيم ماوتسي تونج، لعله ينهض بألف مليون صيني..

ووقف الرئيس كنيدى وراء البانديت نهرو، أملاً في نهضة خمسمائة مليون هندى..

ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق. فالنهضة لا تكون باستيراد المصانع والأدوات. إنما النهضة تبدأ بالإنسان.. ولذلك أفلتت الصين من قبضة الروس.. واتجهت إلى اليابان، وعرفت اليابان بسرعة ما الذى يجب عمله.. فقد أدخلت الصناعات التى يمكن أن يتعلمها الصينيون دون مساس بكبريائهم القوميه، ثم تولت الصين تدريب شعبها وتطويره علمياً وتربوياً.. حتى وقفت الصين وطالت أعناقها.. وقفت على قدميها.

وكانت بدايتها: الإنسان على أرضها. وليس الإنسان على أرض غيرها..

وكذلك فعلت الهند أيضاً.

ولنعد لآخر مرة إلى تقرير السيد دوكو، فهو يتضمن نظرة يابانية إلى الحياة الغربية كلها.

يقول: إن هناك شللاً فى التفكير والإبداع، وسببه: الصراع المستمر والخوف من الموت والتوترات الدولية.. ثم تلك الهوة العميقة المظلمة بين دول الشمال ودول الجنوب.. أى بين الدول التى تستورد المواد الخام، لتبيعها إلى صاحبة المواد الخام بأسعار مرتفعة.. وملفوفة فى ورقة أنيقة اسمها: الجشع وعدم الامتنان!

وقد تأكد هذا الشعور الكريه عندما التقى تشرشل وروزفلت أثناء الحرب.. كان من رأى روزفلت أن الدول الغربية يجب أن ترفع أيديها عن المستعمرات، وأن تترك لهذه الدول حقها فى تقرير مصيرها واستئناف تطورها بحريتها.. ووعد تشرشل بذلك.. ولكنه لم يفعل ولا الدول الغربية.. فتأخرت دول العالم الثالث عن التطور واستدراك ما فاتها عشرات السنين..

ولكن التجربة اليابانية العظيمة هى أحسن نموذج للبداية بشجاعة وقوة وصبر، بشرط..

بشرط أن يختفى الصراع والخوف والقلق الذى يؤدى إلى الشلل - فى الدولة الواحدة وبين الدول أيضاً!

# شجرة محمد نجيب ومقشة توفيق الحكيم ومأساة بشير الجميل!

عندما تشاهد الأفلام المصرية القديمة. أو عندما تكون عائداً من الخارج. فإنك تتساءل: لماذا كل هذه القذارة في شوارع مصر؟

وأنت لا تسأل عن طبيعة القذارة. ففي كل بلاد الدنيا شيء من ذلك. ولكن في كل البلاد ما ليس في مصر.. وهو سرعة إزالة هذه القذارة. والسؤال معناه: أنك تريد أن تعرف طبيعة المصريين التي جعلتهم هكذا. ولكي تهتدي إلى «طبيعة» المصريين أو عاداتهم وتقاليدهم. فأنت في حاجة إلى أن تعود إلى التاريخ. أي كيف كانوا ثم كيف أصبحوا ومعنى ذلك أيضاً أن المصري كان نظيفاً. ثم تغير: يده وشارعه ومدينته. وأصبحت القذارة منظراً اعتاد عليه. فالغريب أن تجد البيوت والشوارع قد خلت من القذارة.

فإذا أنت وقفت أمام كوم زبالة، وتساءلت عن أسباب هذا الذي تراه ولا تحب أن تراه. فأنت هنا تبحث عن التاريخ المصري للقذارة أو التاريخ القذر للحياة المصرية. ولكن إذا أمسكت مقشة وأزلت الزبالة فوراً. فأنت رجل عملي وأنت مصلح، ولكنك متفائل

جداً، أى أنك لم تحسن التقدير فليست مشكلة مصر أن تمسك أنت مقشة وتتفرج عليك وليست مشكلة مصر هى كوم زبالة واحداً تمكن إزالته فى يوم. ولكنها مشكلة ملايين الأكوام تتكدس وتزول. أو يجب أن تزول. كل يوم.

ونحن نظلم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأنفسنا كثيراً. إذا قلنا إن هذه المناظر الكريهة لشوارع مصر قد بدأت معها. كأنها كانت ثورة على النظافة والنظام مع أنها كانت من أجل النظام والعمل ونظافة اليد. ولكن ربما كان المقصود من هذه العبارة أنه مع بداية الثورة بدأ الاعتماد الكامل على الدولة فالجيش هو الذى ثار شبابه وهؤلاء الشباب هم الدولة الجديدة، وعلى الدولة الجديدة أن تعتمد عليهم لكى تحقق المعجزات اليومية.. مثل خروج الإنجليز وتأميم قناة السويس والمكاسب الاشتراكية وحكم العمال والفلاحين وتحديد الملكية الزراعية وإلغاء الألقاب. فمع الثورة عرفنا أن كل الحكومات التى سبقتها كانت فاسدة. وكذلك كل الأحزاب وكل النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومع الثورة خرجت الشركات والبيوت الأجنبية التى كانت نماذج للإدارة والنجاح والنظام والنظافة.

ولكن كيف نفسر نظافة الدول الرأسمالية والاشتراكية - أو بعبارة أخرى: نظافة كل دول العالم إلا مصر؟!

ففى الدول الرأسمالية التى نراها فى الأفلام وفى الواقع. تجد كل مظاهر الحضارة الإنسانية. ومن مظاهر الحضارة: نظافة الشوارع والبيوت والمرافق العامة كالمحطات والمطارات

والمطاعم والفنادق والحدائق والإسطبلات وفى الدول الاشتراكية التى لا فرق فيها بين الشعب والحكومات. فالشعب حكومة والحكومة شعب والدول الاشتراكية هى نموذج لما لا نراه فى مصر ففى مصر نجد أن كل المؤسسات التى تملكها الدولة. هى أكثر نصيباً من الدمار والقذارة والخلل. ونعبر عن ذلك فى مصر: أنها مؤسسات ليس لها صاحب.

فكيف نفسر قذارة المؤسسات المصرية التى لها مالك واحد أو أسرة؟! إنها أيضاً قذارة.

إذن: ليس السبب هو الاعتماد على الدولة أو اعتماد الشعب على نفسه. وإنما شىء آخر يتعلق بطبيعة المصريين. فهل المصريون حقاً بهذه القذارة. وإن هذا طبع قديم. وعلى ذلك فثورة يوليو بريئة من كل ذلك؟!

هناك اجتهاد آخر بأننا لو عدنا إلى «الصدمة الحضارية» التى تولدت بدخول الفرنسيين إلى مصر. لوجدنا شيئاً عجيباً. ففى ١٥ يونيو سنة ١٧٩٨ جاء نابليون أعظم أبطال الحروب إلى مصر موفداً من أعظم دولة أوروبية وأصدر نابليون أول بيان له إلى الشعب المصرى. وتلقف البيان المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى فكان تعليق الجبرتى على هذا البيان نموذجاً لصلابة المؤرخ والمصريين. وفى نفس الوقت يبين مدى انبهاره بالحضارة الفرنسية. ولم يحجب عنه هذا الانبهار كذب نابليون والفرنسيين أيضاً. ففى كتاب الجبرتى «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر» نجده يتهم نابليون بالكذب والكفر بكل الأديان. لأنه استهل بيانه هكذا

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، لا إله إلا اللّه لا ولد له ولا شريك فى ملكه». وقد فند الجبرتى هذا البيان بأنه كافر تماماً. فقال: «فى ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للملل الثلاث ومخالفون لها. بل لجميع الملل. فهم موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ونفى الولد والشريك. ومخالفون لهم فى عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة.. وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم. ومخالفون لهم فى القول بالتثليث».

ولمثل هذه المواقف من الحضارة الفرنسية. اعتبر المؤرخ الكبير توينبى الشيخ الجبرتى أعظم المؤرخين فى كل العصور.

ومضى الجبرتى يناقش أحوال الفرنسيين وعاداتهم فرآهم يرتدون الملابس النظيفة. وقال: إنهم ليسوا كذلك دائماً. ورآهم يخلطون الطعام بعضه ببعضه. فيضعون القهوة مع الخمر مع الليمون المخلل مع اللحم فى طبق واحد ورآهم يتبولون فى الشوارع أمام الناس. ورأى الرجال والنساء يذهبون إلى الحلاق لإزالة شعر أجسادهم!!

لقد رآهم الجبرتى – رغم علمهم وقوتهم وإيمانهم بالحرية والعدل – قذرين وأن المصريين أنظف من الفرنسيين. وأنه ليس صحيحاً أن مصر كانت قد اتسخت قبل مجىء الفرنسيين.

فإذا كانت فرنسا قد جاءت إلى عبدالرحمن الجبرتى. فلم تجعله يراها شيئاً باهراً. ومصر شيئاً حقيراً. فإن مصرياً آخر قد ذهب إلى فرنسا بعد ذلك بعشرين عاماً إنه الشيخ رفاعة الطهطاوى لقد كانت دهشة الطهطاوى لفرنسا مثل دهشة آدم

عليه السلام عندما انتقل من الجنة إلى الأرض - إلى عالم جديد مع فارق واحد: أن فرنسا هى الجنة ورغم أنه رأى فيها كل ما ليس فى مصر من علم ونور وعدل وحضارة فإن سلوك الفرنسيين وعاداتهم قد أسخطته عليهم. أول ما شاهده الطهطاوى هو أن الفرنسيين لا يجلسون على الأرض إذا أكلوا ولا ينامون على الأرض أيضاً فلابد أن يأكلوا وينامو على مكان مرتفع وكل إنسان له شوكة وسكينة وملعقة وطبق ولا أحد يأكل بيديه مطلقاً وإن كان هو يفضل أن يأكل بيدين أنظف من الشوكة والسكينة وعندما تحدث عن باريس وجد بها الميادين. وحاول أن يقربها إلى خيال القارئ. فراح يذكر عدداً من ميادين القاهرة وقال إنها تشبهها إلا فى القذارة وتغنى طويلاً. شعراً ونثراً. فى جمال الحدائق والشوارع والغابات والأنهار والشواطىء ورأى فى باريس شيئاً بهره. هو «عربة الرش» وكأن الطهطاوى قد عز عليه ألا تعرف مصر عربة الرش. فحمد الله على أن جو مصر ليس حاراً لدرجة أن تحتاج القاهرة إلى عربات الرش مثل باريس؟!

يقول الطهطاوى فى كتابه: «تخليص الإبريز فى تلخيص بارين»: «أما مصر فإنها سليمة من مكاره برد باريس. كما أنها خالية أيضاً من الأمور المحتاج إليها فى وقت الحر فإن أهل باريس سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر. فإنهم يصنعون دناً عظيماً ذا عجلات. ويمشون العجلة بالخيل ولهذا الدّن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة. تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع فلا تزال ماشية والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى

أبلغ من ساعة ولهم غير ذلك من الحيل. فمصرنا أولى بهذا الدن لغلبة حرها - وقد صار الآن جل ذلك بمصر».

والطهطاوى قد أعجبته عربة الرش. وأنكرها على باريس أول الأمر.. تمناها لمصر، واستراح إلى أنها قد ظهرت فى ميادينها وشوارعها، وقد اختفت الآن!

وبعد الطهطاوى بعشرين عاماً أخرى جاء إلى مصر المستشرق الإنجليزى إدوارد لين وكان رجلاً حسن النية صادقاً أراد أن يقدم مصر إلى العالم الخارجى فأصدر كتابه الممتاز عن عادات وتقاليد المصريين، وهو الذى رسم لوحات هذا الكتاب أيضاً وهو لم يختلف كثيراً عن الجبرتى والطهطاوى إلا فى أنه أجنبى وهو محب لمصر. ولكن هذا الحب لم يعمه عن عيوبها وعن انتشار العمى فى مصر، فأكثر المصريين فى رأيه مصابون بالعمى الكامل أو بإحدى العينين وسبب ذلك انتشار الرمد ونقص الدواء والعلاج ولكن عيون النساء أصح وأجمل، والسبب هو أن الرجل أكثر تعرضاً للذباب والتراب خارج البيت، ويرى إدوارد لين أن كل مزايا وعيوب الشرق موجودة فى مصر: القديم والجديد والمستقبل أيضاً.

وفى عبارة بها كثير من الصدق والخجل يقول لين، ولكنهم نشطون فقط عندما يطردون الذباب عن وجوههم. أنه إذا لم تأت ذبابة ظلت أيديهم لاصقة بأجسامهم - إلى هذه الدرجة من الكسل!

وهذه هى البداية الحقيقة للإجابة عن السؤال الذى بدأنا به هذه السطور إنه الكسل الذى جعلهم يلقون العبء كله على الآخرين، على أجهزة الدولة بعد ذلك.

ولكن فى تلك الأيام من الاحتلال الفرنسى والبريطانى بعد ذلك كان الناس يعتمدون على أنفسهم فى تنظيف الشوارع والحوارى بل إن جمعية تكونت أيام الحملة الفرنسية فى مدينة القاهرة. وكان هدفها إلقاء جثث الكلاب بعيداً عن وسط المدينة. ولم نجد تفسيراً واضحاً لموت الكلاب كثيراً هكذا ولكن المهم أن جمعية أهلية جعلت مهمتها إخفاء جثث الكلاب فى مكان بعيد عن قلب العاصمة. وأن رئيس الجمعية لم يكن من رجال الدين كما هى العادة. وإنما من التجار، ولم تكن لتجارته علاقة بالكلاب حية أو ميتة، وإنما هو رجل أحب النظافة. وأراد أن يكون قدوة حسنة. وقد انحلت هذه الجمعية من تلقاء نفسها. عندما لم يعد الناس في حاجة إلى مساعدتها، ففى كل مرة يجد أحد من الناس حيواناً ميتاً فإنه يقوم من تلقاء نفسه بنقله ودفنه فى مكان بعيد.

وهذا هو النجاح وهذا هو الأسلوب.

ويصبح النجاح مؤكداً إذا فعل الناس ذلك بلا سند من أجهزة الحكومة!

ونسمع كثيراً من الأكبر سناً يقولون لقد كانت شوارع القاهرة نظيفة لأن الناس كانوا يغسلونها بالصابون. ويقول آخرون أكثر واقعية وتواضعاً إن صاحب المحل يغسل البلاط أمام دكانه حتى يلمع كالمرآة. وكان أصحاب المحلات يتنافسون فى ذلك!

فماذا جرى لمصر؟

أهو موقف التواكل التام على الدولة.. أو هو الموقف غير

الودى من الحكومة؟ من أية حكومة!.. أهو الجهل بأضرار القذارة.. أو هو اللامبالاة بالضرر والنفع ويمصر كلها؟ هل النظافة نوع من الترف لا يقدر عليه الفقراء؟ أهو الفقر؟ أهو الضيق باتساع المسافة بين الأغنياء الجدد والفقراء القدامى؟ هل هذا الضيق هو السبب الحقيقى وراء القلق السياسى والعنف الدينى؟.. أهو ذلك الشعور بالغربة: أى أن يشعر المواطن كأن هذا البلد بلده أو البلد الذى تمناه، أو كأنه ملك لغيره.. وأنه يحلم ببلد آخر، ولذلك فهو يغمض عينه عن الواقع فلا يراه، ويحلم بما هو أفضل؟..

بسبب تراكم هذه الأسباب والعلل والتعليلات تكدست الزبالة فى كل مكان. حتى أصبح من السهل أن نعرف مصر من مجرد النظر إلى شوارعها.. فشوارعنا هى وجهنا القبيح الذى لا نحب أن نراه. ولكننا اعتدنا عليه.. أى اعتدنا على هذه الصورة المشوهة لمصر، والتى ارتضيناها أيضاً. ونحن ارتضيناها لأننا لم نفكر فى غسلها وطلائها وتجميلها.

أو هو سبب آخر: انعدام الجدية، أو انعدام الموقف الجاد المستمر، أى إذا بدأنا شيئاً، فإننا لا نكمله.

أى أننا أبناء «اللحظة» الجادة.. وليست الساعة الجادة أو السنوات الجادة.. فعندما زرع الرئيس محمد نجيب شجرة فى كوم أوشيم. لم يكن القصد من ذلك أن يصبح كوم أوشيم غابة من شجرة واحدة.. ولكن أن تكون هذه الشجرة هى البداية لغابة فى هذه المنطقة وفى كل منطقة جرداء قحلاء.

وعندما أمسك كاتبنا الكبير توفيق الحكيم مقشة وكنس متراً

من أرض القاهرة. لم يكن المقصود أن نعطيه فرصة لكنس القاهرة كلها.. وإنما كان الهدف أن يبدأ أحد بعمل مفيد.. وأن نمشى وراءه.. فيمسك المقشة كل قادر عليها من الأطفال والشباب. وتوفيق الحكيم لم يكنس أمام بيته.. فليس المقصود أن يبدأ بعتبة بيته. وإنما المقصود أن نقوم بحملة قومية للنظافة فى أى مكان.

وكما ماتت شجرة محمد نجيب وغابة كوم أوشيم. وعاد النسيان تراباً وذباباً يلف كل شيء. وأصبحت البيوت تزحف على الأرض المزروعة. والصحراء تزحف على ما تبقى منها. وأصبحت الأرض المزروعة مساوية لما كانت عليه أيام الطهطاوى أى أربعة ملايين فدان. وتكومت القذارة والزبالة واتسعت الخرابات وتوالدت الحشرات والقوارض. وأكلت فيما أكلت مقشة توفيق الحكيم.

إنهم فى هولندا يكتبون الأساطير عن الطفل الصغير الذى وجد ماء البحر يكاد يغرق إحدى المدن متسللاً من إحدى الفتحات. فوضع الطفل إصبعه يسد الماء، وغلبه الماء ومات الطفل وأنقذت المدينة. إن الإنقاذ بدأ بإصبع طفل. بشجرة رئيس، بمقشة أديب.. والبداية مهمة، ولكنها تصبح أكثر أهمية إذا كانت متجددة.. أو إذا ظلت بداية بغير نهاية!..

وهذا عيب عيوب مصر أو الخلق المصرى: عدم القدرة على الاستمرار!

وإذا كنت قد وصلت فى قراءتك لهذا المقال إلى هذا الحد. فهى

شجاعة وصبر منك على النصيحة. فالقارئ كان يفضل أن يقرأ عن اغتيال بشير الجميل وترشيح والده أو أخيه - إنها أسرة كنيدى اللبنانية المنكوبة - أو كميل شمعون لرياسة الدولة الممزقة التى سوف تزداد تمزقاً. وقد كتبت هنا كثيراً أن الأوضاع الدستورية تراعى نسبة: المارون إلى الكاثوليك إلى الروم الأرثوذكس إلى الشيعة إلى السنة إلى الدروز. ولكن لبنان الآن تقبل القسمة على ألوف العائلات والعشائر والقبائل السياسية والاقتصادية ومرتزقة الدول العربية والدول الكبرى والعظمى وإسرائيل - فعلى لبنان السلام، بل لن تعرف السلام حتى نهاية هذا القرن. ورغم أن هذه العبارة أقرب إلى وضع لبنان فى كفن من الحرير الرقيق الأسود ودفع الكفن إلى نعش الصراعات الدولية وإنزال الستار على جثة الشرق الأوسط. فإن القارىء كان يفضل البكاء من جديد على لبنان وعلى العرب لماذا؟ لأن الحديث عن قذارة مصر فيه فضيحة للمصريين ومواجهة قاسية لهم، وتعريتهم أمام أنفسهم: لأن القذارة والكسل والتواكل والحماسة المؤقتة من أهم عيوبنا التى أودت بمصر.. فكل كلمة من هذه الكلمات إن لم تكن شلوتاً للقارئ فهى صفعة على قفاه. وتلطيخ لكبريائه. وهتك لعرضنا أمام العرب.

ونسيت أن أقول وأمام السياح الأجانب أيضاً. فقد اعتدنا على الخوف من الأجانب، ونحن معذورون فى ذلك.. فقد جاءوا مصر غزاة محتلين. وقد غزونا لأنهم أقوى وأكثر تطوراً.. وقد كرهنا الأجنبى وإن كنا نعترف مثل الطهطاوى والجبرتى بأنهم أكثر علماً. ولذلك فالسائح الأجنبى له ألف حساب عندنا. وكثيراً ما نقول لأنفسنا ماذا

يقول عنا السياح الأجانب؟ أو حتى لا يقولوا شيئاً يجب أن نكنس ونرش الأرض. ويجب أن نقدم للأجانب من الخواجات أو من الضيوف المصريين أفضل ما عندنا من أطباق وطعام.. لأن رأى الآخرين يهمنا جداً.. وصورتنا عند الغير تكلفنا كثيراً.. ومعنى ذلك أننا لا ننشد النظافة لذاتها. ولكن لأن النظافة دعاية لنا.. أو تزوير جميل لحقيقة قبيحة: هى أننا كسالى لا مبالون.

ومنذ أيام عدت من يوغوسلافيا ورومانيا وباريس.. وهى جميعاً تتفق فى شىء واحد: أنها نظيفة. والنظافة هى أول كلمة تخرج من فم أى مصرى عائد من الخارج. وهى صفة للبلاد التى رآها. وأمل فى أن يجد لهذه الصفة معنى فى مصر.. ونحن الآن فى أيام الخريف. وشوارعهم الواسعة جداً قد امتلأت بالأشجار من كل لون وكل نوع.. ولكن الذى أدهشنا هو أننا لم نجد أوراق الخريف على الأرض. وليس معنى ذلك أن الأشجار لا تتساقط أوراقها. وإنما معناه أنها تساقطت على الأيدى التى تنتظرها حتى لا تتسخ الشوارع بألوانها الصفراء!..

وهذا هو التشابه الوحيد بين شوارعنا وشوارعهم: فنحن لا نجد أوراق الخريف فى شوارعنا، لأن شوارعنا قد أكلت أشجارها.

ولكن حدث فى بوخارست أن التقيت بعدد من الدارسين.. وكان الحديث كله عن مصر، وكيف يمكن أن نجعلها جديرة بهذا الاسم العظيم. كيف ننظفها مثلاً. قال أحد الدارسين إنهم فى رومانيا لا يدخنون فى الأماكن التى تمتلئ بالناس.. لا فى المحلات ولا فى الصيدليات ولا فى قاعة الاجتماعات.. وفى

نفس الوقت لا تجد لافتة تنبه أحداً إلى عدم التدخين. ولم يكد يفرغ من عبارته هذه حتى لمحت واحداً من الدارسين قد أشعل سيجارته. فداعبته قائلاً: ألا ترى أنكم غير جادين؟.. إن واحداً يدخن فى غرفة بها خمسون مصرياً!

وضحكوا جميعاً.

وكان هذا الضحك دليلاً على الشعور بالخجل. تماماً كما تنظر إلى إنسان قد سقط بنطلونه.. ولكن رغم هذا الشعور فقد مضى المدخن يملأ صدره وأنفه والغرفة بالدخان.. وقلت معلقاً على ذلك: هكذا.. إننا غير جادين، فأنتم تريدون إقناعى بأن نفعل مثل أهل رومانيا.. وأنتم تريدون ذلك.. ولكن هذا الأمل قد سقط عند أول امتحان له!؟.

ومنذ أيام رأيت فى التليفزيون تجربة قام بها بعض المواطنين فى تحويل مناطق المجارى إلى حدائق صغيرة، دون مساعدة من الدولة!

إنها المرة الأولى التى تزحف فيها الأرض الخضراء على أرض المبانى، الأرض المزروعة على البيوت المخنوقة.

وسمعت أن عشرين حديقة صغيرة قد زرعت فى مناطق أخرى. وأن هذه تجربة عمرها خمس سنوات.. نمت ونمت فى الظل والظلام. ومن الممكن أن تموت التجربة سراً كما عاشت سراً. يكفى أن تتوقف عند هذا الانتصار الذاتى - أى انتصار بعض الناس على كسلهم وتواكلهم ولا مبالاتهم..

ولكن لكى يكون هذا الانتصار ساحقاً، يجب أن نشجعه فى كل

مكان، أن نشجعه نحن المواطنين والهيئات والجمعيات والشركات والبنوك والمؤسسات الإعلامية ونحن جميعاً الحكومة والشعب. أو الشعب الحكومة.

وبغير مثل هذه التجارب الرائدة، فلا أمل في شيء يبقى أو يزول، إن الذي رأيته في التليفزيون شيء عظيم - ولا أقصد أن المساحة عظيمة. فالمساحة لا تتعدى المئات من الأمتار.. ولكنه نموذج عظيم، ويصبح أعظم إذا انتقلنا به ومعه ووراءه من حي إلى حي ومن مدينة إلى مدينة.

ومن الممكن أن نشعر بهول ما سوف يحدث، فالقاهرة ضخمة، وأكوامها بالملايين. ومن الممكن أن نصاب باليأس.. ولكن الذين حققوا هذه النماذج الناجحة هم أفضل قدوة لنا وأكبر دليل على أنه إذا كانت اللامبالاة من أخلاق المصريين. فهي قد أصابت «بعض» المصريين.. وإذا كان التواكل أسلوباً. فإن مصريين آخرين قد رفضوه.. وإذا كان اليأس عاماً. والأمل خاصاً، فإن الأمل من الممكن أن يكون عاماً - وهذه التجارب الصغيرة ليست إلا مثل شجرة محمد نجيب ومقشة توفيق الحكيم، بدايات ناجحة.. أو يجب أن تنجح!..

# نعم.. يجب أن نزرع أكثر من شجرة . ولكن أين ؟!

ما الذى نزرعه عندما نزرع شجرة؟..

نزرع حياة. نزرع لوناً. نزرع هواءً نقياً. نطلق عطراً ذكياً. نزرع زهرة. نزرع ثمرة. نفرش ظلاً. تبعث طيراً. نزرع سفينة ونصنع شراعاً. نزرع كتباً وصحفاً وفاكهة. نزرع الجمال والحب. نواجه البوار بالحقول والغابات. نتحدى الصحراء. نتحدى الفناء.

تساعد الأرض والسماء من يزرع شجرة. لأنه يزرع معنى للحياة والأحياء ولسكان السماء..

وإذا كانت منظمة السياحة العالمية قد اتخذت شعارها القادم: فلنزرع شجرة، ثم اتخذت وزارة السياحة المصرية هذا الشعار أيضاً، فالعالم كله يريد أن يتمسك بالحياة.. يريد أن يعود إلى الطبيعة.. إلى الفطرة. إلى عصر ما قبل الأسلحة النووية، والصواريخ التليفزيونية، والليزر السرطانية، وسفن الفضاء الجاسوسية..

ولا يفلت من السخرية من يجعل شعارنا أن نزرع شجرة. فمصر بلد زراعى. هكذا تعلمنا فى الكتب. وقيل لنا أيضاً إن النيل قد أهدى مصر إلى شعب مصر. أهدانا الماء والأرض. ولم يحرص

أبناء مصر على الهداية. لقد بددوها. أضاعوها. رهنوها. دفنوها تحت بيوتهم الجديدة. والذى لم تدفنه البيوت بعد، تركناه لرمال الصحراء. وزحف الصحراء على الوادى اسمه «التصحير» وزحف الوادى على الصحراء اسمه «التشجير». فلم تتسع الأرض تحت أقدامنا. لقد بقيت كما تركها لنا الخديو إسماعيل، بينما زاد الناس خمسة وثلاثين مليوناً.

فنحن لم نزرع شجراً ولا أصلحنا أرضاً ولا وسعنا وادياً وإنما حصرنا أنفسنا بالرمال، وخنقنا آمالنا على ضفتى النيل. ولم يفكر أحد فى الإفلات من هذه الضائقة الزراعية المالية الاقتصادية الاجتماعية.. ومع بداية ثورة ١٩٥٢ كان الضيق بكل شىء شعار العصر. وأول ما اهتدينا لتفريج هذا الضيق: أن نزرع شجرة.. وذهب الرئيس محمد نجيب ليزرع شجرة. واختاروا له «كوم أوشيم» وزرع شجرة، وترك الشجرة. وماتت الشجرة. الفكرة. القدوة. الأمل. ولم نفلح فى أن نجعل زرع الشجرة واجباً على كل زائر لمصر أو كل زائر لأية مدينة أو قرية.. ولم نستهل كل مشروع جديد بأن نزرع شجرة. تماماً كما نستهل كل شىء بتلاوة من القرآن الكريم أو بذبح خروف أو صنع طاجن من الأرز باللبن.

ولم يفضحنا شىء كما فضحنا «كوم أوشيم».. فقد كنا نظن أننا نبنى الحياة. فتركنا الحياة تموت. كنا نظن أننا فلاحون نحب الأرض الخضراء. فأثبتنا أننا نفضلها جرداء. كنا نظن أنا نقدس موتانا كالفراعنة، فلم نقدس موتانا من الأشجار. ولم نقدس موتانا من الذين ماتوا من أجلنا. إننا ننبش قبورهم ثم نأكلهم. وبذلك

يعيش الموت فى دمائنا. وهكذا نضيف نوعاً جديداً من القبور: القبور المصنوعة من الطين وأجسادنا. فنحن الأحياء قبور لموتانا. وإذا كانت بعض القبائل البدائية تأكل مرضاها وشيوخها، فنحن لا نأكل إلا العظماء من موتانا. وأحط الحيوانات المفترسة هى التى تأكل الجيف.. ونحن أيضاً لا نحب أن نأكل الأحياء، وإنما نحب أن نقتل الأحياء. ثم نجعل لهؤلاء الضحايا رائحة كريهة، فإذا كانت لها هذه الرائحة، أقبلنا عليها بشهية مفتوحة.

إن «كوم أوشيم» هو علامة من علامات التاريخ الفاضح لأنفسنا. ولذلك فنحن - عادة - لا نشير إلى ذلك. وإنما نتستر عليه. فعلى هذا الكون وفى الطريق إليه، افتضح كذبنا. عندما ادعينا اننا قد اتخذنا شعار زراعة الأشجار. وفضحنا أنفسنا لأننا مدمنون للشعارات. ولأننا مدمنون فنحن لا ندرى ما الذى نقول وما الذى نفعل. ولأننا مدمنون فإن هذه الشعارات قد فقدت معناها. وليس شعار «ازرع شجرة» إلا شجرة هو الآخر. زرعناها. ثم تركناها لتموت. حيث ولدت. لتموت واقفة كالأبطال. ولتدفن حيث ماتت كالأنبياء.

وهكذا أصبح «كوم أوشيم» من علامات العصر.. وبعده عرفنا مشاريع كثيرة لها نفس المعنى..

فنحن لم نكن جادين يوم زرعنا «كوم أوشيم». ولا كنا جادين عندما تمزقت قلوبنا حزناً على أشجار فى أحد شوارع الجيزة. قطعوها ليوسعوا الشارع. أو قطعوها حتى لا يختبىء وراءها أحد فيطلق الرصاص على أحد.. إنها أشجار قد زرعها الخديو إسماعيل أيضاً..

وعندما أمسك أديبنا الكبير توفيق الحكيم مقشة ليكنس جانباً من أحد الشوارع، كان يحاول أن يجدد ما حدث فى «كوم أوشيم».. أن يبدأ شيئاً ليكمله الناس من بعده.. فيتعاونوا على نظافة شوارع القاهرة.. فقذارة شوارعنا من علامات المدينة. كما أن الرمال الزاحفة من علامات الريف.. وكما أن التخريب من علامات الروح المصرية..

وعندما ألقى توفيق الحكيم بالمقشة جاءت الرياح وقذفت بالمقشة إلى كوم أوشيم. فالمقشة التى هى بقايا شجرة ميتة. قد ماتت مرة أخرى.

ونحن صغار كانوا يعلموننا زراعة القمح فى أوراق النشاف. أما الآن فلا نشاف ولا قمح. ومن الغريب حقاً أن أحداً منا لم يزرع شجرة على أرض أو على ترعة أو فى الصحراء.. ولما زرعنا مديرية التحرير والوادى الجديد. أفسدنا كل ذلك بالتشهير والتشنيع والتنكيت. ولما رأينا الرهبان يزرعون الصحراء فى صمت، ولما رأيناهم يصدرون الفاكهة إلى كل فنادق مصر، ولما وجدناهم يستوردون أحدث الآلات، تعجبنا لذلك. وأطلقنا الشائعات.

وأدهشنا أن اليهود قد زرعوا صحراء النقب. وزرعوا سيناء. وتجددت عندنا أحلام «كوم أوشيم».. وتقدم شبان كثيرون يغامرون يزرعون ويصنعون ويبنون، ولكن ليس كثيراً ما فعلوه. وإن كانوا رواداً يحتاجون إلى أن نشجعهم على زراعة شجرة فوق كل صخرة، ولكن بقيت المشكلة كما هى: شبان يزرعون الصحراء، وأهل المدن يأكلون الأرض المزروعة، وبدلاً من أن

نبنى بيوتنا على الرمال، فإننا أقمناها على الأشجار. وبدلاً من أن تتسع المدن، فإننا ضيقناها على أنفسنا وحشرنا أجسادنا فى العمارات العالية.. هل نحتاج إلى قانون؟ نعم.. ولكن ما أكثر القوانين، وما أقل الذين يطبقونها!..

وكان الرسول ﷺ ينصح بألا يقطع الناس الأشجار. بل إن له حديثاً حكيماً معناه: ترفقوا بأخواتكم النخل..

وقد روى عنه ﷺ أن النخل يسمع ويتألم. وذهب هذا الحديث على أنه معنى جميل. وأن الرسول يطلب من الناس الرحمة بالأحياء من الأشجار والحيوانات والإنسان. وأن الذى يترفق بالنخيل - أى بهذا الكائن الحى - هو الذى سوف يكون رحيماً مع غيره من الأحياء. وأن الرسول هو أول من نصح المسلمين بأن يعيشوا وأن يدعوا غيرهم ليعيش أيضاً..

وفى السنوات الأخيرة أثبتت الدراسات العلمية أن الأشجار تتكلم، وأن لها لغة، وأن هذه اللغة على شكل موجات صوتية وضوئية. وقد سجلت هذه اللغة، وقد نشرت المجلة العالمية «بارى ماتش» منذ خمس سنوات صوراً بالألوان لما تقوله الأشجار والأزهار عندما تدخل إحدى الفراشات، وما الذى تقوله هذه الأشجار إذا كان القادم عصفوراً أو غراباً أو كلباً.. وكيف تحس الزهور بالفراشة التى سوف تحط عليها، ثم تستدرجها الزهور برائحتها لكى تعصرها وتمتصها.

وقد نشرت المجلة أيضاً صوراً بالألوان وبالأشعة للنزيف الباطنى لإحدى الزهور عندما قطعت.. وكيف أن الزهرة نفسها

تبكى وأن الشجرة أمها تبكى أيضاً. والذين كتبوا هذا المقال الطويل ليسوا من دراويش المسلمين ولا من الشعراء الرومانسيين، ولكنهم علماء آمنوا بأن للكون كله لغة مشتركة، كما أن له قوانين صارمة تمسك كل أطرافه. وهذه القوانين هى «حكمة» اللّٰه التى وسعت كل شىء. والتى أحكمت رباط كل شىء بكل شىء وكل حى: من الأشجار والأحجار والحيوان والإنسان.

وفى أواخر القرن السابع عشر فى أوروبا تعالت الدعوة إلى الطبيعة.. إلى الحياة بعيداً عن المدن.. فى الحقول والغابات.. وقد فزع الناس من العصر الصناعى بعد ذلك.. مع أن الصناعة فى ذلك الوقت ليست إلا محاولات بدائية. إذا قورنت بما بلغته الصناعة الآن.. وراح الشعراء الرومانسيون يتغنون بالنباتات وبالحياة البدائية هرباً من الحياة الأوروبية.. وكان المثل الأعلى عندهم: مجاهل إفريقيا والحياة البدائية والنسيان، فقد ضاقوا بحياة المدن وقيود الحضارة وضوضاء الصناعة وجبروت الآلة وسيطرة العلم والعقل والحساب والاقتصاد.

وظهرت جماعة «الطبيعيين» التى تطلب من الناس أن يقفوا فى وجه السياسة والتجارة. أو التجارة والدعارة الفكرية، وأن يعودوا إلى الحقل، إلى الزراعة، إلى الفلاحة..

وقد تزعم الفيلسوف الفرنسى فرنسوا كيناى هذه الدعوة الثورية، ولم يكن من السهل عليه أو على أى أحد، أن يوقف الزحف العلمى والتوسع السياسى والجشع الاقتصادى. ولكنه كان جرساً يدق باقتراب الخطر الذى استشرى الآن.. حتى ضاقت المسافة

بين المدينة والقرية، بل لم تعد هناك قرى، وإنما مدن صغيرة، ومصانع ومدافن، وهواء ملوث وماء فاسد وأطعمة مسمومة.

وليست «الثورة الخضراء» فى أوروبا وأمريكا الآن إلا ضيقاً بالقضاء على الحياة باستخدام أسلحة الدمار. أو بالتوسع العمرانى الذى أزال الغابات والحقول. وفى ألمانيا جماعات شابة، «جماعات خضراء» أو جماعات الغاضبين الخضر، إن شعارهم هو أن تترك الأشجار تعيش كما نعيش نحن..

وفى أمريكا تزعمت السيدة راشيل كارسون هذه الثورة الخضراء، وكان دستور هذه الثورة كتابها الممتع «المستنقع الهادئ». أما هذا المستنقع فقد اتخذته رمزاً لما أصاب الحقول والحدائق فى أمريكا بسبب المبيدات الحشرية التى قضت على الطيور والفراش. فسكتت هذه الجنة الخضراء. وسوف تؤدى هذه المبيدات أيضاً إلى القضاء على الأشجار، وبعد الأشجار سوف تقضى على الأطفال. لأن هذه المبيدات تنتقل مع الأعشاب والثمار إلى لحوم الحيوانات وألبانها.. وبعد ذلك إلى الإنسان، وهكذا يتم خنق الإنسان: فالهواء ملوث والماء ملوث والطعام ملوث. فالإنسان هو الذى يصنع أدوات موته، وهو الذى جعل من نفسه مقبرة لنفسه.

وهكذا تتحول الحياة إلى مستنقع مات فيه وحواليه كل الأحياء!..

وفى أمريكا يجعلون مقابرهم فى حدائق جميلة وتحت غابات كثيفة وحول بحيرات ساحرة، وتجارة دفن الموتى هى من أكثر الصناعات رواجاً. ففى الصحف إعلانات عن المقبرة النموذجية

التى تحب أن تدفن فيها أعز الناس لديك.. أو تختارها لنفسك.. تحت شجرة أو فى غابة أو على شاطئ بحيرة.. كم طولها.. كم عرضها.. كيف تكون مستريحاً حتى بعد موتك.. إنها الأشجار التى تبهر الأحياء فى طريقهم لزيارة موتاهم.. والبكاء على مقعد أنيق ومشهد جميل!..

ولكن أين نزرع هذه الأشجار؟..

إن قلت نزرعها كما زرعنا «كوم أوشيم» فقد أضعنا الوقت فى كلام قديم. وإن قلت بل نزرع كوماً جديداً. كانت هذه العبارة شعاراً جديداً. وكان تكرارها دليلاً على أننا لم نستفد مما كان، ولم نمل نفس الكلمات ونفس المعانى..

ولذلك يجب أن نبحث عن مكان آخر لزراعة هذه الشجرة..

يجب أن نزرعها هنا - وأنا أشير إلى رأسى وإلى قلبى - يجب أن تكون الشجرة حية فى أفكارنا. يجب أن نقتنع تماماً بأن الحياة يجب أن تستمر. وأن الحياة ليست الإنسان فقط. ولكنها الإنسان والحيوان والنبات. يجب أن نتعلم أن الحياة ضرورة. وأن تدفق الحياة فى كل اتجاه واجب قومى. وأن هذا الواجب يجب أن يتحقق بالقوة. بقوة الإقناع والإصرار والاستمرار. ولكى يكون ذلك ممكناً يجب أن نبدأ بغرس الأشجار عند الأطفال، الذين هم أشجار صغيرة أيضاً. يجب أن تتغير مناهج التربية والتعليم. وأن يكون البناء والزرع وتربية الطيور والرفق بالحيوان وتذوق الجمال واحترام الآخرين: هى أهم مبادئ الحياة فى كل مراحلها..

إذًا يجب أن نزرع الشجرة فينا. فى الطفل. وبيننا: بين الأب والابن وبين الجار والجار. وبين كل المواطنين. وإذا كان من الواجب أن نزرع الصحراء، فمن الواجب أيضاً أن نزرع العلاقات البور، وأن نستصلح الروابط الجافة، وأن نروى اللامبالاة بالأمل، وأن نبذر الأرض الخراب بالإيمان..

ولذلك فأنا لا أجد الدعوة إلى زراعة شجرة إلا صرخة بلا صدى، وإلا آذاناً فى مالطة، وإلا تقديساً لكوم أوشيم، وإلا شلوتاً لتوفيق الحكيم، وإلا تطاولاً على الخديو إسماعيل.. وإلا دعوة لثورة مضادة اسمها «الثورة الصفراء» - أى تحويل كل شىء أخضر إلى رمل أصفر.. وإلا نسياناً أو سهواً غير مقصود، لجهود رائدة قام بها شبان جامعيون فى الوادى الجديد وفى سيناء.. فهم أيضاً يحلمون كما كان يحلم الرئيس السادات بأن يقفز بكل شىء وبكل أحد إلى الأمام، لعله، ولعلنا نستدرك ما فات..

وفى قلب القاهرة أناس زرعوا الأرض، وبالقرب من مدينة الإسماعيلية زرعوا غابة صغيرة، وفى استطاعة كل المدن على حافة الصحراء أن تفعل ذلك، ولكن شيئاً ما يجعلنا نقف ولا نذهب إلى أبعد مما فعلنا. هذا الشىء: إن هؤلاء الرواد المتواضعين يجدون أنفسهم وحدهم. لا أحد يشجعهم. لا أحد يعمل مثلهم. لا رأى عاماً. لا سياسة قومية. لا شعوراً عميقاً بأن هذا هو الواجب، وهو الضرورى. وهو واجب لأنه من أجل مصر. وهو ضرورى لأن الحياة ضرورة والجمال ضرورة.

أما الذى نزرعه عندما نزرع شجرة، فهو مصر كلها..

وليست هذه دعوة سياحية فقط، بمعنى أننا نزرع الأشجار حتى يراها السائح. ويعد ذلك يعود كل عام ليرى هذه الأشجار قد زادت.. فمن عاداتنا أن نقدم أحسن ما لدينا من طعام وأدوات طعام وملابس من أجل الضيوف. وإنما نحن نزرع شجرة من أجل أن نضاعف متعتنا فى الحياة. فإذا جاء السياح بعد ذلك، كانت فلوسهم مكافأة لنا على ما قدمنا لأنفسنا وغيرنا..

إن شجرة على الأرض لن يزرعها ويرويها ويحميها إلا شجرة أخرى تحت الجلد. فلنتجه إلى نفوسنا الخاوية، وضمائرنا البور، وقلوبنا الخراب، وعقولنا الجرداء. فنزرع فيها ٤٥ مليون شجرة!..

# مؤتمر الفلسفة الوجودية في مبنى الجامعة العربية ترك وراءه النمل في كل مكان!

## ١

جمع الفلاسفة أوراقهم وعادوا إلى بلادهم. ولم ترفع القاهرة حاجبيها دهشة لأنهم ناقشوا موضوعاً هو «الفلسفة الوجودية ورجل الشارع» ولم تصفق لهم إعجاباً لأنهم اختاروا مبنى الجامعة العربية. فقد التقى الفلاسفة العشرة في كبرى القاعات، فلا استطاع أحد أن يراهم أو يسمعهم. وأكثر الذين سمعوا لم يفهموا.

فانتقلوا إلى قاعة أصغر. وفي هذه القاعة رأينا وسمعنا. وأكثر الذين حضروا لم يفهموا. فالفلاسفة أقلية في كل الدنيا، إلا إذا عقدوا مؤتمراً، فهم أغلبية ساحقة - لأن أحداً لا يقوى على متابعة ما يقولون. وهذه هي النكتة.

فقد دخلوا الجامعة العربية التي كانت، والمبنى الذي اعتاد أن يموج بالأشكال والألوان، ويضج بالأموال والمذاهب، ويختنق بروائح البترول وزيت الفول والعرق الزحلاوي والفستق الحلبي والكسكسي المغربي والشكشوكة السودانية والمنسف الأردني

والهريسة الليبية والدموع الفلسطينية.. لقد أصبح المبنى الكبير مثل الكثير من المصطلحات الفلسفية خالياً من المعنى. مليئاً بالفراغ. كان له ماض وليس له مستقبل. أو يريد أن ينسى الماضى أملاً فى أن يكون له مستقبل.

فما الذى قاله الفلاسفة؟. لقد كان أول المتحدثين وأوضحهم.. فيلسوفاً جاء من سويسرا هو «اندريه مرسبيه». أما موضوعه فهو: «رجل الشارع فى الفلسفة الوجودية».. ووجد هذا الفيلسوف أن «تل النمل» هو أوضح صورة لحياة الإنسان فى العصر الحديث..

فالإنسان اليوم ليس إلا نملاً يزاحم نملاً.. يطارد نملاً.. يقتل نملاً. لا عقل لديه؟ لا عقل. لا إرادة؟ مسلوب الإرادة! لا حرية عنده؟ نعم. لأنه ليس مسئولاً عن الذى يفعله. فهو مسوق مدفوع محشور. وهناك قوى جبارة تجنده للعمل وللحرب.. وترميه فى الدمار..

هذا الإنسان النمل هو رجل الشارع.. هو الإنسان العادى. الإنسان الصغير.. هو الذى فقد كل اسمه، ولم يعد له إلا اسم واحد هو: فلان ابن علان.. هو النمرة التى لا وجود لها إلا فى بطاقته الشخصية وبطاقته النقابية وتذكرته الصحية.. وأحسن مثال لذلك ما يفعله عسكرى المرور، فهو ينادى السيارات وأصحابها هكذا: أنت يا فيات.. أنت يا مرسيدس.. أنت يا تاكسى.. أى يا صاحب الفيات أو سائقها أو سارقها.. وفى السجون ينادونهم بأرقامهم، فيقال: أنت يا ٢٣٥.. اخرج يا ٤٧٠.. ويعدين معاك يا ٩٥٠.. إنهم أرقام.. وفى المستشفيات ينادونهم بأمراضهم فيقال: أنت يا مصران.. أنت يا لوز.. أنت

يا عمود فقرى.. أنت يا فقرى.. ونحن عادة نقول: من فضلك يا.. تسمح يا - وهى إهانة مهذبة!

إذن فالإنسان الصغير قد أهين.. لم تعد له كرامة ولا حرية..

وبداية الفلسفة الوجودية كانت فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. وكان الفيلسوف الألمانى هيدجر أول من فزع لهذا الهوان الذى أصاب الإنسان العادى.. أصاب «أى واحد».. ومادمت أنت قد أصبحت «أى واحد» فليست لك شخصية ولا مواصفات.. ولا فردية.. أنت مثل الأكواب والسيارات والعجلات.. كلها متشابهة.. ما الذى جعلها كذلك؟ المصنع.. المصنع الذى أنتج الأدوات بالجملة، وهذا هو الفرق بين الصناعات الميكانيكية والفنون اليدوية.. فالأجهزة والآلات والمصانع قد جعلت الإنسان عبداً لها.. هى التى تتحكم فى حياته.. وتحتم عليه أن يكون مثلها. بلا دم ولا لحم. ولا إرادة ولا إنسانية.. لقد أصبح آلة تقف أمام آلة. ثم إن هذه الآلات قد قضت على العمال. اختصرتهم.. أى أنها لم تكتف باستبعاد الإنسان وإذلاله، وإنما اتجهت إلى القضاء عليه..

وفى ألمانيا ظهرت النازية - أى الفلسفة القائمة على عبادة الفرد الذى يملك كل المصانع والأجهزة وأسلحة الدمار.. فهذا الفرد المطلق قد استعبد الشعب، والأجهزة التى فى يده استعبدت الشعب مرة أخرى. لقد اعتقل الناس سياسياً، ثم اعتقلهم فى المصانع. اعتقلهم مرتين. وكان لابد من الطاعة العمياء فكانوا جيوشاً للخراب والدمار..

لقد انعدم وجود الإنسان. وأصبح للإنسان كيان فقط.. أصبح اسماً.. رسماً.. «نفراً» أو «دفعة» ـ كما فى القاموس العسكرى..

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت الوجودية فى فرنسا: سارتر وكامى ومارسيل.. وفى إسبانيا: أوناموتو.. وفى روسيا: برديائف.. وفى مصر: عبدالرحمن بدوى.. وفى إسرائيل: بوير.. وفى إيطاليا: أبانيانو.

ونحن مثل النمل يسكن فى أى مكان. ويأكل أى طعام. ولا يكف عن العمل.. وفى جامعة النمل ـ أى مكان تجمع النمل ـ يوجد ثلاثة أنواع من النمل: النمل الشغال.. والذكور.. والإناث.. أما النمل الشغال فهو بلا أجنحة. وهو يجمع الطعام.. ويخزنه ويقوم بزراعة حقول وتربية حشرات أخرى يرضعها ويسمنها ثم يأكلها.. والنمل الذكور له أجنحة.. والذكور عمرها قصير.. فهى تطير وراء الأنثى التى لها أجنحة.. وبعد عملية تلقيح الأنثى التى سوف تكون ملكة فالذكر يجب أن يموت.. فقد انتهت مهمته البيولوجية.. أما الأنثى فهى تأكل وتنام وتبيض.. هى أم الجامعة. أم المستعمرة. أم تل النمل ـ وكذلك فى مملكة النحل فالذكور تطارد الملكة وتسقط جميعاً من التعب. حتى يبقى ذكر واحد يلقحها ويموت. وحتى إذا لم يمت ويحاول أن يدخل الخلية قتلوه.

وهذا الذى يحدث فى عالم النمل، يحدث أيضاً فى عالم الإنسان. فعندنا التلقيح الصناعى. أى أنه يمكن تلقيح الأنثى من ذكر لا تعرفه. وما يفرزه الرجل يكفى لتلقيح ملايين الإناث فى وقت واحد. إذن فالذكر يمكن الاستغناء عنه. وقد تخيل الكاتب

الإنجليزي هسكلي في روايته «عالم جديد شجاع» أن الذكر الإنساني لن تكون له أهمية في المستقبل. وإذا كانت العناكب الإناث تأكل الذكور أثناء اللقاح، فسوف يكون ذلك حال الرجال!

إذن فلم يعد الإنسان في حاجة إلى الحب لكي يكون أباً. فالجنس يتم بغير متعة. كأن الإنسان لم يعد قادراً على الحب، إنه قادر على الكراهية فقط، لأن العلاقة بينه وبين فلان وعلان هامشية.. تجاور في المكان.. تتابع في السطور والأرقام.. فهو يقف في طابور الكتيبة وأمام الجمعية التعاونية وعند محطة الأتوبيس.. لا أحد يكلم أحداً، ولا ضرورة لذلك، فهم الأغلبية الصامتة. وهي صامتة لأنه ليس عند أحد شيء يقوله. كل المعلومات لدينا واحدة متشابهة. وكل أجهزة الدولة الحديثة قد استولت على علامات الاستفهام والتعجب.. تركت النقط في نهاية كل سطر. بل لم تعد هناك سطور.. وإنما نقط فقط. كأن الناس جميعاً قد استحالوا إلى نقط إلى أشكال، لا عبارات مفيدة.. نقط تضعها الدولة تحت الحروف وفوق الحروف التي تعجبها!

## ٢

منذ أيام أعلنت الصحف المصرية أن النمل الأبيض يزحف على القاهرة. نمل جديد يزحف على نمل. أي بعد أن انتهت غارات الفئران جاءت غزوات النمل. أما النمل فلا يحلم بأن يكون إنساناً، فلا عقل له ولا تاريخ.. أما الإنسان النمل، فهو يحلم بأن يسترد إنسانيته. ولذلك ظهر في كل تاريخه الأنبياء المزيفون في السياسة والعسكرية والصناعة. كلهم يوهمونه بأنهم نوح، وأنهم

قادرون على نجاته من الطوفان.. طوفان التفاهة واللامعنى واللاإنسانية واللامبالاة!

كلهم مثل يوحنا المعمدان الذى وصفته التوراة بأنه «الصارخ فى البرية».. أى الصارخ فى الصحراء.. النافخ فى قربة مقطوعة فى مبنى الجامعة العربية بالقاهرة وتونس.. وفى الأمم المتحدة بنيويورك!

## ٣

وفى فندق هيلتون المجاور لمبنى الجامعة العربية جاء دافيد قمحى، مبعوثاً من إسرائيل لعله يقنع وزارة الخارجية المصرية بأننا دولة مصرية. ولتؤكد له الخارجية المصرية أنها مصرية عربية، وسوف تبقى كذلك. جاء يدافع عن عدالة الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان. وان الرئيس الجميل ورجاله هم الذين يقبلون أقدام إسرائيل لكى تبقى هناك، حتى لا تأكله سوريا، وتفترسه المنظمات الفلسطينية، وتمزقه القبائل اللبنانية.. أما مصر فلم يكن عندها إلا رأى واحد: اخرجوا من لبنان.

وبعدها سوف تخرج سوريا.

ولكن سوريا تطلب من مصر: اخرجوا من سيناء، أى مزقوا اتفاقية السلام مع إسرائيل، لتعود إسرائيل تحتل سيناء وحقول البترول وتسد القناة وتضرب السويس وبورسعيد. وهنا سوف تقف سوريا والأمة العربية وراءنا تطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء!

ويـرد المبـعوث الإسرائيـلى بـأن الصـحف المصريـة والإذاعة تتحدث من حين إلى حين عن «العدو» الإسرائيلى..

شىء عجيب: إن إسرائيل لم تنس، ولن تنسى ما فعله هتلر بهم من خمسين عاماً. ما فعله مرة واحدة. وتريدنا نحن العرب أن ننسى ما تفعله إسرائيل على مدى ثلاثين عاماً كل يوم.. أو ما تفعله من سنتين فى لبنان كل ساعة؟!

فلا أقنعنا المبعوث الإسرائيلى، ولا نحن أقنعناه.

ومن الغريب أن الصحف المصرية تتحدث كثيراً عن كل ما يجرى فى إسرائيل.. أما الصحف الإسرائيلية فلا تتحدث إلا عن الفرق بين الملوخية فى مصر والملوخية فى لبنان.. ويتحدثون عن الذى فعلته المجندات السوريات يوم الاحتفال بمرور عشر سنوات على حرب أكتوبر. فقد ظهرت فتيات الصاعقة يأكلن الثعابين أمام الناس. وظهرت فتيات أُخريات يستخرجن الدم من تماثيل من القماش الإسرائيلى - إنها الحرب والدم والعداء الذى فى المنطقة كلها..!

وفى القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ .. وفى لبنان جنود سليمان وداود وشارون. وسليمان يسوق النمل الإسرائيلى ليقضى على النمل العربى. إنه النمل يغزو النمل توسيعاً لحدود مملكة على حساب مملكة أخرى..

وقد أدمن النمل تعاطى السموم.

فقد استطاع علماء الكيمياء أن يخترعوا سموماً لذيذة يحرص

النمل على التهامها ونقلها إلى داخل جامعة النمل ليقدمها للملكة. وهكذا تموت كل مستعمرة النمل!

وكما أدمن النمل الحشرى هذه السموم، فقد أدمن النمل الإنسانى سموماً أخرى: هى المخدرات. فلا توجد عاصمة ليس بها حى مثل «الباطنية»، فى هذا الحى كل تجار المخدرات وكل الذين يتعاطونها، ويخاف الناس أن يمشوا ليلاً فى أحياء مونبرناس فى باريس وسوهو فى لندن وريبربان فى همبورج والشارع ١٥ فى واشنطن. فالمدمنون قد وقفوا والسكاكين والخناجر فى أيديهم، يقتلون ليحصلوا على المال.. فما معنى ذلك؟.. معناه أن الجسم أقوى من العقل.. أن الحيوانية أعنف من الإنسانية.. وأن هذه المخدرات هى ضرورة جسمية وليست ضرورة عقلية..

وهناك مخدرات أخرى، سياسية وعسكرية ودينية.. هذه المخدرات تجرد الإنسان من عقله ومن إرادته، فيكون مرة أخرى ذليلاً للكيف.. فكم عدد سجون الهوان التى يعيش فيها الإنسان الحديث؟ كان شاعرنا العظيم أبو العلاء المعرى يصف نفسه - وكذلك طه حسين والأعشى - بأنه رهين المحبسين: العمى والفقر.. ولكن إنسان العصر الحديث قد ارتدى الملابس الحديدية وأدخلوه فى السجن.. ثم إنهم وضعوا حول رأسه كمامةً فلا يرى ولا يسمع.. إنه مثل الثيران التى تدور فى الساقية، والخيول التى تجر العربات، والفراخ التى نحبسها فى «البياضة» تأكل لتبيض!

# ٤

نحن لا نعرف ما الذى يقوله النمل عن نفسه ولا عن الإنسان. ولو قدر للنمل أن يفكر لظن أن اللّه قد خلق المزارع والبيوت، لكى يعيش فيها النمل.. ولو أسقطنا كوباً من الماء على إحدى مستعمرات النمل لظن أن هذا هو الطوفان.. كالطوفان الذى يتحدث عنه الإنسان.

بل إن الكاتب السويسرى «فون دينكين» لا يستبعد أن تكون الكرة الأرضية مزرعة لتربية العجول الإنسانية، وأن أصحاب هذه المزرعة هم سكان الكواكب الأخرى الأكثر تطوراً. فسكان الكواكب الأخرى فى رحلاتهم بين الكواكب اختاروا هذا الموقع المناسب، وأتوا بآدم وحواء من كواكب أخرى ثم تركوهما على هذه الأرض. ومن حين إلى حين يجىء سكان الكواكب الأخرى في أطباقهم الطائرة يلقون نظرة على هذه الحظيرة، ونحن لا نعرف بالضبط ما الذى يفعلونه بنا.. ولأننا نفكر، فقد أقمنا لأنفسنا تاريخاً وحضارة. وجعلنا لوجودنا معنى. ولمذاهبنا دوراً مقدساً فى إصلاح الكون كله..

فمن يدرى؟.. ربما كانت أفكارنا إذا قورنت بأفكار سكان الكواكب الأخرى.. تشبه أفكار النمل إذا ما قورنت بأفكارنا. ولكن الذى نعرفه عن يقين هو أننا جميعاً نمل يغتال نملاً!

وكما أن للنمل غزوات على الحقول والبيوت والمدن، فكذلك كان ولايزال للإنسان.. فقد عرفت الامبراطورية الرومانية غزوات البرابرة.. وعرفنا الغزوات الصليبية لفتح بيت المقدس.. وعرفنا غزوات الدول الأوربية بعضها لبعض.. والدول الأمريكية

والبريطانية والفرنسية والبرتغالية على الشرق، واليابانية على كل آسيا.. والروسية على دول أوربا الشرقية..

وكل هذه الشعوب والجيوش على لبنان!

٥

وفى هذه المنطقة من العالم: ما الذى لدينا؟ لدينا التاريخ الواحد واللغة والأرض الضيقة، وعقول أضيق من هذه الأرض، وثلاثة أديان. وكل واحد يحاول أن يضع يده على قلبه يخفى دينه، ويده وراء ظهره يخفى سلاحه لأنه يريد السلام..

فضد من ومع من يقف هذا النمل الإنسانى؟

إن إسرائيل تقتل أبناء الخومينى لأنهم يقفون مع سوريا ضد لبنان والشعب الفلسطينى.. وإسرائيل تساعد الخومينى نفسه لأنه يقف ضد العراق!

وتقف إسرائيل وسوريا ضد الشعب الفلسطينى، وذلك من أجل أن تحل المشكلة الفلسطينية بالقضاء على الشعب نفسه!

ولو وقف جندى فلسطينى فى وجه جندى إيطالى أو فرنسى وسأله: لماذا أنت هنا؟ لماذا تريد أن تقتلنى أو تريدنى أن أقتلك؟

فلا داعى لأن يجيب. لأن هؤلاء الجنود «نمل» شغال يجب أن يدافع عن الخلية. وهذه الخلية ليس هو الذى حدد موقعها. إنما الدولة بكل أجهزتها.. مرة تجعلها فى أوربا، ومرة فى آسيا، ومرة فى إفريقيا..

بل لا داعى أيضاً لأن يتساءل الجندى الفلسطينى: وأين هم

العرب؟ فلا معنى للإجابة لأنه لا معنى للسؤال. فالشعوب مسلوبة الإرادة. فقد استولت عليها كل وسائل الإعلام. وجعلتها مقاعد خشبية تجلس أمام صناديق خشبية.. جعلتها سلالاً للمهملات تلقى فيها أجهزة الدولة بزبالة الكلام ونفاية الفكر، وأقراص الهلوسة!

## ٦

أمس سقط معسكر البداوى؟.. فما الذى ومن الذى سقط؟!

أرجو يا حضرات النمل أن تفكروا طويلاً فى هذا السؤال. أما الإجابة فهى: لقد سقط المعسكر الفلسطينى أمام القوات الفلسطينية إنقاذاً له من المنظمات الفلسطينية: وعودة به إلى الضفة الفلسطينية، لتقوم الدولة الفلسطينية!

لا يمكن أن يكون جاداً تماماً صاحب هذه العبارة ولا هازلاً إطلاقاً. فعبارته صورة جادة للهزل وصورة هازلة للجد!

فبالله عليك ما الذى سقط ومن الذى سقط فى معسكر البداوى؟ ومن الذى انتصر ومن الذى انكسر؟ ومن الذى بقى وما الذى بقى؟ ثم ما اسم هذه الكوميديا أو التراجيديا التى جلس الناس يتفرجون عليها من فوق ظهور حاملات الطائرات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية؟

اسمها هو الذى تردد ألف مرة فى قاعات مبنى الجامعة العربية منذ أيام: النمل.. غارات النمل على النمل من أجل ملكات النمل.. سيدات الجيوش. صانعات المخدرات..

إذا كان منظر النمل تحت قدميك يثير اشمئزازك، فلابد من أننا نبدو كذلك لسكان الكواكب الأخرى..

## ٧

كأن الفلاسفة الذين رحلوا عن مبنى الجامعة العربية قد أدركوا حقيقتهم تماماً، فقد أعلن واحد منهم: إننى أعرف أن رجال السياسة والحرب يرون أن الفلاسفة لا ضرورة لهم.. ولا أعرف ـ حقاً ـ إن كانت لنا ضرورة أو فائدة عند أحد سوانا!

وكما ترددت أصداؤهم وارتدت عليهم، ومن قبلهم مئات الزعماء عشرات السنين، عادوا إلى بلادهم.. بعد أن وضعونا فى قائمة النمل. وكأن النمل الأبيض قد سمع ذلك، كما سمع النمل صوت سليمان عليه السلام، فقرروا الزحف على القاهرة.. إلى مبنى الجامعة العربية.. ومن هذا المبنى الفخم الرطب المظلم المطل على النيل، يواصل النمل دعوته إلى التضامن العربى من أجل فلسطين!

شكراً للنذرة العاقلة فى هذه الدنيا، فقد فتحوا عيوننا على الذى أفزعنا من أنفسنا وأحزننا عليها.. فليتقدم النمل من كل لون إلى أى مكان!

## تعليقاً على فيلم "اليوم التالى"

# فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من ألف ليلة وليلة تحول العفريت إلى رماد.. وبنت السلطان أيضاً

الشعب الأمريكى لا يتصور إلا نوعاً واحداً من الحروب: النووية.. ويعدها نهاية العالم. ولذلك فكل الإدارات الأمريكية. قبل الانتخابات تؤكد للشعب الأمريكى والحلفاء أن الحرب النووية غالب ومغلوب. وأن الغالب أمريكى والمغلوب شيوعى. وقد استراح الأمريكان إلى نهاية السوفيت. لأن الأسلحة الأمريكية النووية سوف تسحق الروس فى أى وقت وفى أى مكان..

ولم أجد قصة خرافية تصور لنا هذا الواقع العالمى، وكيف تتصاعد اساليب القتال والموت، مثل الليلة الخامسة عشرة فى «ألف ليلة وليلة». وهذه الليلة هى أقرب شبهاً بالفيلم الأمريكى «اليوم التالى» وهو الذى أفزع الملايين وملأ بهم الشوارع صراخاً وعويلاً فى أمريكا وبريطانيا وألمانيا.

ولما شاهدت الفيلم تلفت ورائى، إن كان أحد يشاركنى الفرجة عليه، فلم أجد أحداً ـ فهو إذن فيلم يتحدث إلى غيرنا.. فلما

كانت الليلة الخامسة عشرة قالت شهرزاد للملك شهريار: بلغنى أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أن بنت السلطان أمسكت سكيناً عليها أسماء عبرية ورسمت بها دائرة على الأرض. فأظلمت الدنيا. واهتز القصر، وظهر عفريت انقلب إلى أسد، وقال لها: يا خائنة.. ألم نتحالف معاً على ألا يتعرض أحدنا للآخر؟. فقالت بنت السلطان: وهل مثلك من يصون العهد ويفى بالوعد؟..

ثم نزعت شعرة من رأسها تحولت إلى سيف وقطعت رقبته. فتحولت رقبة الأسد إلى عقرب، وانقلبت بنت السلطان إلى حية. ودارت معركة بينهما. وانقلبت العقرب إلى صقر، وانقلبت الحية إلى نسر. ودارت معركة. ثم تحول الصقر إلى قط أسود، وتحولت الحية إلى ذئب. واستأنفا القتال.. وتحولت القطة إلى رمانة كبيرة تدحرجت إلى الماء، وطاردها الذئب، وقفزت الرمانة إلى أعلى ثم سقطت على الأرض فانفرطت حباتها فى كل اتجاه. وانقلب الذئب إلى ديك يلتقط حبات الرمان، ولكن حبة سقطت فى الماء.. فصرخ الديك حتى زلزل المكان وانقلب إلى حوت يطارد حبة الرمان.. ثم انقلب الحوت إلى عفريت مرة أخرى تخرج النيران من عينيه وشفتيه ومن أنفه.. وتحولت بنت السلطان إلى موجة من النار تضرب العفريت. ويضربها. وظلت النار تأكل النار، حتى تحول العفريت إلى كوم من الرماد. وإلى جواره سقط كوم آخر من الرماد. إنه بقايا بنت السلطان.. أما أبوها السلطان فراح يلطم خديه ويشق ثيابه ويبكى على ابنته. ثم أقام فوقها قبة وجعل تحت القبة شموعاً.. أما رماد العفريت فراحوا ينثرونه فى الهواء.. لعنة الله عليه.. إلخ.

ونهاية العفريت وبنت السلطان هى النهاية التى يؤمن بها كل أمريكى وغربى. فالحرب تطورت وتهورت حتى أصبحت نووية، والنهاية تراب ذرى لكل الحضارة الإنسانية..

ولكن الأمريكان يرون أنهم قد استعدوا لكل شىء. وما من نملة تتحرك على حائط فى الكرملين، إلا قد اتجهت إليها عيون نووية فى أمريكا. وقبل أن تتحرك هذه النملة يصبح الاتحاد السوفييتى رماداً!..

حتى كان فيلم «اليوم التالى». وقد رأيته.. مرة مع مدنيين ومرة أخرى مع عسكريين..

الفيلم يبدأ بالحياة العادية فى أمريكا. الناس يلعبون ويأكلون ويزرعون ويحصدون ويحبون ويتخانقون على نتائج كرة القدم وأسعار البورصة.. والذين شاهدوا نشرة الأخبار فى التليفزيون لم يفهموا شيئاً من الخبر الذى أعلن أن ألمانيا الشرقية قد أغلقت الحدود بينها وبين ألمانيا الغربية.. فالناس قد اعتادوا على «الإثارة» حتى لم تعد تثيرهم مثل هذه الأخبار.. ثم إن أكثر الأصوات إثارة وإزعاجاً، هى التى تعلن عن السلع الأمريكية، فالمذيع يتكلم بسرعة، حتى لا يستغرق وقتاً طويلاً غالياً، وفى نفس الوقت يريد أن يهز المتفرج النائم لكى ينهض بسرعة ويشترى سيارة أو يحجز له مكاناً على أرض القمر.. وعاد التليفزيون يقول إن هذا القرار من جانب الروس معناه قطع العلاقات. ومعناه إعلان الحرب على أمريكا. ولم يصدق الناس ذلك. اندهشوا.. واتهموا شبكات التليفزيون المجنونة التى لابد من

أنها تروج لحبوب مهدئة جديدة أو رحلة سياحية لإراحة الأعصاب.. حتى الجنود أنفسهم لم يصدقوا. وفجأة انطلقت الصواريخ النووية من مدينة كانساس فى اتجاه الاتحاد السوفييتى. وقف الناس يتفرجون على الصواريخ. كما نتفرج نحن على مدفع الإفطار. وعادوا إلى التليفزيون.. إنها الحرب. وهجم الناس على السوبر ماركت يخطفون ويكدسون ما يجدونه من طعام. ويدوس بعضهم بعضاً، وانطلقت السيارات تزحم الطرقات، والناس فى حالة جنونية من الفزع، وقد تعلموا من الإذاعة والتليفزيون ومناقشات البرلمان أن روسيا تحتاج إلى ٢٢ دقيقة للرد على الصواريخ الأمريكية. وجاءت الصواريخ الروسية النووية. واكتسحت الإشعاعات كل أحد وكل شىء.. وتحول الجميع إلى رماد. وهرب بقية الناس تحت الأرض، إلى المخابىء والمستشفيات. وتعطلت كل الموتورات والمحركات والمولدات الكهربية بسبب الإشعاع الذرى. وانقطعت المواصلات من مدينة كانساس وإليها.. وفى أحد المستشفيات كانت سيدة حامل تصرخ وتبكى. وتطلب إلى الطبيب ألا يولدها.. فأى عالم هذا الذى سوف يعيش فيه ابنها؟ بينما سيدة أخرى راحت تصرخ وتئن وتتوجع وحدها دون أن يقدر أحد على مساعدتها.. حتى ولدت وحدها ففى قلب الموت تولد الحياة.. وفى هذا الفزع يرتد الناس إلى غرائزهم الحيوانية فى القتل والخطف والخوف والفردية ويا روح ما بعدك روح، ويبقى طبيب يعود إلى بيته فيجد أناساً قد احتلوه.. حاول إخراجهم.. تذرع بكل ما تبقى فيه من حيوانية وإنسانية، ثم سقط ميتاً.

ويعد أن يهدأ الإشعاع (؟!) ويسكن الرماد الذرى تتحرك بعض الموتورات وتلتقط الراديوهات صوت الرئيس الأمريكى - وهو سلطان هذا الزمان - هادئاً قوياً يقول للشعب الأمريكى: إنها تجربة قاسية، ولكن أمريكا قد انتصرت. إن مدينة واحدة قد تهدمت. ولكن الولايات المتحدة لاتزال قوية قادرة على مواصلة الكفاح من أجل الرفاهية الأمريكية والديموقراطية الغربية!

ولا يلقى صوت الرئيس أى اهتمام فلا يعنيهم كثيراً أن تبقى الولايات المتحدة أو العالم كله إذا كانوا هم يموتون أو سوف يموتون.. وينتهى الفيلم!..

وقد رآه الرئيس ريجان قبل أن يعرضه التليفزيون. ولم يستطع أن يمنعه، ولكنه استطاع فقط أن يحصل على موافقة شبكة التليفزيون التى أذاعته، على أن يناقشه أعضاء مجلس الأمن القومى. وظلت هذه المناقشة التى رآها ١٨٠ مليون أمريكى إلى الثالثة صباحاً تحاول تهدئة الشعوب الأمريكية والغربية التى تسابقت فى تطوير أسلحة الدمار من البندقية إلى الصاروخ إلى القنبلة الذرية.. أملاً فى أن يؤدى التسابق والتعادل النووى، والخوف من الدمار إلى استحالة الحروب. فنحن إذن نعيش فى ظل الرعب النووى؛ أى فى ظل التصعيد المستمر حتى يكون الجنون فقط هو الذى يدفع أى الطرفين إلى إشعال الحرب.

ولكن من قال إنه لا يوجد مجنون هنا أو هناك؟ ومن الذى قال إن هذا التكديس المستمر ليس جنوناً مؤكداً؟.. ومن الذى قال

إن أى خطأ فى العقول الإلكترونية التى تدير كل المعارك لا يؤدى إلى نهاية العالم؟..

فمنذ اعتقل الخومينى خمسين أمريكياً رهينة فى سفارتهم فى طهران، ومنذ الغزو الروسى لأفغانستان، تغيرت الخريطة الاستراتيجية فى أمريكا. واعتمد الرئيس السابق كارتر ميزانية للأسلحة النووية زادت على ألف ألف ألف مليون دولار. لماذا؟ لأن الأمريكان أصبحوا يؤمنون بنظرية جديدة هى: ادفع بليون دولار دفاعاً عن المصالح الأمريكية، ولا تدفع دولاراً واحداً لمساعدة الدول الحليفة على حماية نفسها!..

ولذلك انتشرت الأسلحة الأمريكية فى أوروبا وفى كوريا وفى البحر المتوسط وبحر العرب - أى عند الدول الحليفة..

فما المعنى لهذا الفيلم؟..

الفيلم يؤكد للشعب الأمريكى أنه غارق فى سعادة كاذبة. وإنه لا أمان له. وإنه من الممكن أن يكون تراباً فى أية لحظة.. وإن فى استطاعة روسيا أن تصيبه فى أى مكان. ولأن أمريكا ليست لديها معلومات مؤكدة عن الذى يحدث فى داخل الاتحاد السوفييتى، فكل الخطط الأمريكية «تخمينية» تتردد فيها مثل هذه العبارة «على أسوأ الاحتمالات» - فليست لدى أمريكا أية قدرة على اختراق حوائط السرية السوفييتية من أجل معلومات مؤكدة عن مدى استعدادهم النووى وتطويرهم للأسلحة المضادة. وأخطر من ذلك أنه لا يوجد سر فى أمريكا.. فكل شىء يذاع ويشاع. وأول من يفعل ذلك مديرو المخابرات الأمريكية!!..

الذين نشروا مذكراتهم وفضحوا أسرار مؤامراتهم واغتيالاتهم ومصانعهم وقواعدهم الخفية..

إذن فالشعب الأمريكي يجب أن يخاف وأن يفزع. وأن يطالب حكومته بأن ترد على هذه الاحتمالات الخطيرة التى جاءت فى هذا الفيلم. وإلا سقط الرئيس ريجان فى الانتخابات. وعلى الحكومة أن تواجه المظاهرات الهزيلة فى بريطانيا وفى ألمانيا ضد الصواريخ الأمريكية النووية التى انتشرت، وقد اتجهت رؤوسها إلى المدن الروسية!..

أو أن هذا الفيلم هو بداية المعركة الانتخابية فى أمريكا؛ وطبيعى أن يبدأ النجم السينمائى رونالد ريجان حملته الانتخابية بداية تليفزيونية مثيرة. وهى فرصة لكى يؤكد للشعب الأمريكى ضرورة زيادة ميزانية الدفاع وضرورة التمسك بنشر الأسلحة النووية فى أوروبا، وبقاء الأساطيل الأمريكية فى مواجهة الخطر السوفييتى فى لبنان وأفغانستان وإيران وليبيا وكوبا. خاصة أن الحلفاء لم يعودوا حلفاء. فليس لدى دولة واحدة أية رغبة فى أن تحارب من أجل المصالح الأمريكية.

ولكن أحداً فى أمريكا لا يرفع صوته عالياً غاضباً بالاحتجاج على حكومته التى تتورط فى الدفاع عن الأطماع الإسرائيلية فى الشرق الأوسط؟!..

إذن فالدولة الأمريكية العظمى تخاف.. رئيسها انطلق عليه الرصاص. وبيت الرئيس تكدست حوله اللوريات وأكياس الرمل، وحول البيت الأبيض، الذى لم يعد أبيض، توارت صواريخ تنطلق

على أية طائرات انتحارية. وكان الرئيس ريجان قد طلع على الشعب منذ أيام بأن إيران قد دربت ألف إرهابى انتحارى.. وإنهم فى طريقهم إلى أمريكا..

ولكن هؤلاء الإرهابيين الانتحاريين بعد أن نسفوا القيادة الأمريكية فى بيروت اتجهوا إلى نسف السفارتين الأمريكية والفرنسية فى الكويت. واختاروا الكويت لزلزلة دول الخليج..

وقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن شعر عدد من الشبان الألمان بأن القوات النازية تتراجع على كل الجبهات، فقرروا تكوين وحدة انتحارية من أربعين شاباً. وعرضوا فكرتهم على القيادة العسكرية. وكان هدفهم أن يربكوا الحلفاء قبل غزوهم لأوروبا. وفى فبراير سنة ١٩٤٤ قابل هتلر فتاة طيارة اسمها هانا رايتش، من بين هؤلاء الانتحاريين، ومنحها «الصليب الحديدى». فكانت أول فتاة تحصل عليه. ولكن هتلر لم يوافق على هذه الفكرة لأنها تدل على روح اليأس والهزيمة. وهو حتى ذلك الوقت لم يعتقد أنه قد انهزم تماماً. وإن كان قد وافق على صواريخ انتحارية يوجهها الأفراد. ثم اخترع العالم الألمانى فرنر فون براون الصاروخ الصارخ «ف١» الذى وجهه إلى بريطانيا.. ولكن لم يفلح الألمان فى تطبيق التعديلات التى أدخلت على الصواريخ الانتحارية، فقد سبقهم الحلفاء وهبطوا فى نورمانديا يوم ٦ يونيو سنة ١٩٤٤.

وفى محاكمات نورمبرج أعلن هرمان جورنج ماريشال الطيران الألمانى أن هتلر رفض هذا الأسلوب الذى يجرح كرامة الألمان.. ولكنه لا يرفض أن يموت أى ألمانى من أجله!..

والآن إذا كانت أمريكا تخاف الصواريخ الروسية، فإن خوفها من أى شاب إيرانى انتحارى أشد وأعمق. أو إذا كانت لا تخاف الرؤوس النووية السوفييتية، فإنها تخاف الرؤوس الإيرانية العارية.. إيرانى واحد قرر أن يموت، لا تستطيع أمريكا كلها أن تعرف من هو ولا متى دخلها ولا من يكون هدفه ولا متى..

والشبان النازيون الذين قرروا الانتحار، هم أبناء الهزيمة.. أبناء اليأس وخيبة الأمل.. وليس أكثر من اليائسين وخائبى الأمل، فى الشرق الأوسط!..

وليس الذى يمسك قنبلة نووية، بأكثر أماناً من الذى يمسك سكيناً، عليها «كلمات عبرية» كما فعلت بنت السلطان فى «ألف ليلة وليلة». وليس الذى يحارب عن أرضه ودينه، بأحسن حالاً من الذى يدافع عن البترول.. وإذا كان الأمريكان يخافون من الأسلحة النووية، فإن أسلحة أخرى فى الشرق الأوسط قد اختفت تحت الجلد.. فى القلوب.. وهى الأخرى تنتظر.. تحتشد.. تتربص حتى أصبح صمتها دوياً، وانتظارها عدواناً، وسلامها خرافة!!

لقد سخر العالم كله من الأديب الفرنسى الرومانى الأصل يوجين يونسكو عندما أصر على الظهور فى مسرحية اسمها «المياه العذبة» للأديبة فرجينيا وولف. الرجل تجاوز السبعين. وهو أحد أعمدة مسرح العبث؛ أى مسرح اللامعنى واللامنطق واللاعقل واللافائدة واللالغة يتفاهم بها الناس.

ولما سئل عن هذا السلوك الشاذ كانت إجابته منطقية: لا معنى لدورى. لأنه لا معنى لشىء. وإننى أريد أن أؤكد ما سبق أن

قلته وكتبته: وهو أنه مادام العالم كله يستعد للموت بحرارة وحماسة وحيوية، ومادام العلماء والحكماء والفلاسفة أحذية فى أقدام الجهلاء من الساسة والأغنياء والقوادين والمغامرين والسماسرة. ومادام رجال الدين ينتهزون هذه الفرصة ويبشرون بالسلام على الأرض والمحبة بين الناس وهم كاذبون.. فلا معنى لشىء ولا أعرف ما الذى يقصده الناس، ولا حتى أنا، عندما أقول: إن السلام ضد الحرب، وإن الحياة ضد الموت، وإن المنطق ضد الفوضى.. فكل من تقع عليه عيناك كذاب قد مل الكذب، أو كذاب قد أدمن الكذب!..

وهو شيخ يترنح وحده ضمن فرقة مسرحية من عشرين ممثلاً لا يتفرج عليهم أحد.. ولكن هذه هى «الحقيقة» المنزوية المنطوية المشردة على المسارح الفارغة - حتى هذه «الحقيقة» لم أعد أعرف أنا الآخر لها معنى.. إنها إحدى القنابل المسيلة للدموع فى ترسانة الرئيس شهريار والرفيقة شهرزاد فى ملحمة «ألف سلام وسلام»؟!

# نجيب محفوظ:
# الإسلام ينهار فينا وحولنا ووقفنا نتفرج على ذلك؟!

لا يجرؤ كاتب أن يقول: لم يكد ينطلق مدفع الإفطار حتى مددت يدى إلى كوب من البيرة فشربتها!

ولكنه فى قصائده يستطيع أن يجعل النيل من الفضة والأهرام من الذهب، وأن يعتصر الخمر من شفاه الفتيات الجميلات.. وفى رواياته يستطيع أن يجعل أبطاله يعربدون ويفسقون ويكفرون بالله.

إنهم «الآخرون».. أحرار فى عالمهم يفعلون ما يشاءون..

فالحرية التى يفتقدها المؤلف، يمنحها لمخلوقاته: أبطال قصائده ومسرحياته ورواياته.. ويستطيع أن ينقل حياتهم إلى بعيد فى الزمان والمكان، ويرمز ويغمز إلى الواقع الذى لا يرضاه. ويتمنى لو يستطيع أن يغيره.

وعندما كنت أنشر «فى صالون العقاد» قال لى الأستاذان توفيق الحكيم وحسين مؤنس: ألا ترى كيف كانت

الحياة الأدبية والسياسية والفلسفية والدينية فى خمسينيات وستينيات هذا القرن؟

أى أننى حاولت أن أصور الذى كان فى مواجهة الذى لا وجود له الآن؛ من حيوية القلق والبحث الدائم عن الصيغة الفكرية والأدبية والدينية.. وعن تضارب الرؤوس الشامخة لأعلام الفكر والسياسة والدين فى ذلك الوقت.

ولكنى لم أصرح بذلك. وإنما تركته لفطنة القارئ والناقد والمؤرخ.

وعندما أصدر الأستاذ توفيق الحكيم كتابه «مصر بين عهدين». فقد أراد هذا المعنى أيضاً، فقد نقل إلينا ما كان يعانيه من حيرة وغيرة على مصر. ومن حرصه على أن يفعل شيئاً من أجل تنوير العقول والأقلام والمدارس والمسارح.. فذهب إلى بعيد فى العشرينيات والثلاثينيات، ليؤكد غضبه وسخطه وقرفه من الذى كان فى الستينيات ولاتزال آثاره فى السبعينيات والثمانينيات.

والأستاذ نجيب محفوظ أيضاً فى كتابه الجديد «رحلة ابن فطومة» قد انتقل إلى بعيد فى المكان والزمان، ليرى وطنه من هناك. وراح ينتقل بخياله إلى بلاد كثيرة، لعله يعود إلى وطنه بشىء مفيد..

وقبل ذلك بستة قرون كانت رحلة «ابن بطوطة» التى عرفت باسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

وابن فطومة هو قنديل محمد العنابى، تاجر ابن تاجر. تعلم فى بيته. فأبوه غنى، وأمه تخاف عليه من الناس ومن إخوته

السبعة الذين أطلقوا عليه ابن فطومة، أى ابن أمه، وليس ابن ابيهم.. أحب فتاة خطفها منه أحد موظفى قصر الوالى.. وفوجىء بأن رجلاً خطب منه أمه.. فى وقت واحد أضاع المحبوبة والأم. وكان ذلك سبباً كافياً لأن يترك بلاده حزيناً على نفسه وعلى أهله وعلى وطنه.

والذين ألفوا «ألف ليلة وليلة» قد جعلوا بدايتها حزينة: خيانة مزدوجة.. فالملك شاه زمان خانته زوجته فقتلها، وأخوه الملك شهريار خانته زوجته، فقرر أن يقتل فتاة كل ليلة، حتى استطاعت شهرزاد أن تشغله بقصصها عن قتلها هى وغيرها من الفتيات..

والشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى قام برحلته فى العالم الآخر، مرافقاً الفتاة بياترتيشه التى خانته وتزوجت غيره.. لقد أقام لها «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس».. لقد خلق لها «الآخرة» لكى تكون معه، مادامت الدنيا قد فرقت بينهما..

ففى البدء كانت الخيانة..

وقبل أن يقوم ابن فطومة برحلته أكد لنفسه أنه عاشق للقاهرة: لرائحة العطارين والمآذن والقباب والوجوه الجميلة والزقاق وبغلة الحاكم وأقدام الحفاة وأناشيد الدراويش والربابة والخيول وأشجار اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام. إنه يريد أن يعرف الدنيا ليرجع إلى وطنه بالدواء الشافى.

والأستاذ نجيب محفوظ هو الآخر يقول: أردت أن أرى وطنى من بعيد.. أراه على ضوء بقية البلاد لعلى استطيع أن أقول كلمة نافعة.

من أجل ذلك كانت الرحلة إلى بلاد لها أسماء رمزية: دار المشرق ودار الحيرة ودار الحلبة ودار الأمان ودار الغروب.. ثم يرى بعينيه دار الجبل التى لا وجود لها إلا فى خيال وأحلام المثاليين..

وكل هذه البلاد بلاد وثنية ولكنها آمنة.. إذن فمن الممكن أن يكون الوطن وثنياً ويحقق ما عجزت عنه دار الإسلام. لأن فى بلاد الإسلام مبادئ لا يطبقها أحد.. ولذلك استطاعت بلاد أخرى أن تفرض من المبادىء ما تستطيع أن تطبقه!؟

وهكذا بدأت رحلة ابن فطومة بشعور بالخيانة مضاعف: خانته الفتاة التى أحبها، وخانته أمه وخانه الدين - اللعنة على هذه الدنيا.. ثم رحل إلى «دار المشرق»..

وهى إلى الجنوب فى الصحراء. حارة. كل الناس عراة. ولا قيود على رغبات الناس. ولا عقود زواج. فالزواج لم يحل مشكلة السعادة. بل إن استمرار الزواج فى بلاد الإسلام، ليس سببه أنه علاقة ناجحة، ولكنه الصبر الذى يمسك الزوجين. أما فى هذه البلاد. فلا زواج. إنه علاقة مقبولة من الطرفين. والإسلام يدعو إلى الحب ولا نجده.. ويدعو إلى الأخوة ولا نجدها.. ثم إنهم يعبدون القمر. وفى الليالى القمرية يتحلل كل رجل من «زوجته» ويفعل كل منهما ما بدا له..

ويقول ابن فطومة لنفسه: ديننا عظيم وحياتنا وثنية!

وقد اعتاد على العلاقات وعلى الرباط المقدس. ولكن فى هذه البلاد كل العلاقات عابرة، لأن كل علاقة قيد. وكل قيد حجر يثقل على الرأس والقلب، وتصطدم به القدم. ويعوق التطور.

ويتخلف عن القافلة سنوات، ويترك «زوجته» واسمها عروسة مع أولادها.

ويرحل إلى «دار الحيرة». إنهم يعبدون الملك. فهو مالك كل شيء وخالق كل شيء، وتستعد البلاد للحرب فتستولى على «دار المشرق» ويسعده ذلك لأنه سوف يستعيد زوجته وأولادهما.. وليس من الضرورى أن تكون هناك أسباب معقولة لشن الحرب. وإنما هى أعذار يفتعلها الملك، وبعدها يموت الأبرياء من الجانبين دفاعاً عن الحرية.. تحرير العبيد فى البلاد الأخرى، وانتشارهم فى هذه البلاد.

وتساءل ابن فطومة وقلبه على وطنه: أيهما أسوأ؟.. من يدعى الألوهية عن جهل أم الذى يقوم بتطويع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟

وإذا شاء أن يضع عنواناً لكل الذى حوله اليوم وغداً وأمس، ففى كلمتين اثنتين: دماء وزغاريد.

ويلتقى بفيلسوف الحزب أو حكيم البلاد.. ويسمع منه عجباً. ويرى أن الحكيم قد وضع فلسفته تحت حذاء الملك.. ويرى ابن فطومة طوابير الأسرى وبينهم «عروسه» ويعرضونها للبيع. ويشتريها الحكيم لنفسه، ثم يضع ابن فطومة فى السجن عشرين عاماً. وفى السجن تموت كل أحلامه. ويصبح من آماله أن يفقد كل أمل، ومن أحلامه أن ينام فلا يصحو أو يصحو فلا ينام، وينقلب نظام الحكم ويخرج، ويدخل الحكيم خاطف زوجته. ويهتف ابن فطومة للحاكم الجديد الذى أطلق سراحه شيخاً محطماً..

ويرحل إلى «دار الحلبة». وفيها حرية العقيدة. كل الأديان معاً: البوذية واليهودية والمسيحية والإسلام والوثنية والإلحاد.

والدولة ليس لها دين رسمي. والحاكم وثني. ويلتقي بالمسلمين. ويرى إسلاماً عجيباً فيقول: لو يبعث الرسول عليه السلام لأنكر الإسلام هنا.

ويقال له: ولأنكر الإسلام عندكم أيضاً.

ويرد ابن فطومة: هذا صحيح!

ويقول للمسلمين هناك: لو كنتم تطبقون الشريعة؟

ويكون الرد عليه: لو كنتم تطبقونها أنتم!

ويقال له أيضاً: الإسلام يذوى على أيديكم وأنتم تنظرون.

ويقال له: الفرق بين إسلامنا وإسلامكم: إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد، وإسلامكم أقفله.. إسلام بلا اجتهاد، إسلام بلا عقل!

ويرحل ابن فطومة إلى «دار الأمان». وكل شيء فيها مضبوط دقيق حسب خطة موضوعة. الإنتاج. العمل. الطعام. الشراب. التعليم. ويرافقه فى نومه ودورة المياه أحد رجال الأمن - دفاعاً عن الغرباء ومن أجل سلامتهم؟! أما الحاكم فقد اختاروه. وأما المستشارون فقد اختارهم، ولكنه هو المطلق الذى هو القانون. والمساواة هى العدل. والعدل هو القاعدة: أما الحرية فلابد من إحكام الرقابة عليها حتى لا ينفلت أو ينحرف أحد أو يخرج عن الصف.

كل شيء قد تحقق، ولكن الوجوه حزينة واللمحات صارمة.

يقول ابن فطومة لنفسه: إنهم يحققون هنا كل أهدافهم.. أما فى دار الإسلام فيعلنون هدفاً ويحققون هدفاً آخر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسب. إن أهلى قد خانوا دينهم.

ويمضى إلى «دار الغروب». إلى الرموز والدروشة والهلوسة.. أعلى مراحل السمو واليأس معاً. استعداداً إلى «دار الجبل» التى يراها بالعين ولا يبلغها، ولم يبلغها أحد.. إنها دار الكمال الإنسانى ـ إن كان فى الإمكان أن يكون الكامل إنساناً، أو الإنسان كاملاً.

وكان لابد من أن يواصل رحلته وحده وعلى قدميه. أما الذين لا يستطيعون السير على أقدامهم فلابد من أن يعودوا مع القافلة..

«ولكن لم تهتز عزيمة أحد، وصممنا على المغامرة، وفكرت فى ذاتى وفيمن خلفت ورائى، وفيما قد يصادفنى من أسباب تحول دون عودتى، فكرت فى ذلك فخطر لى خاطر، وهو أن أعهد بدفتر رحلتى إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمى أو إلى أمين دار الحكمة، ففيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف، بل لمحات عن «دار الجبل» نفسها، تبدد بعض ما يخيم عليها من ظلمات، وتحرك الخيال لتصور ما لم يعرف منها بعد. ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفتراً خاصاً لدار الجبل إذا قيض لى زيارتها والرجوع منها إلى الوطن، وقبل الرجل القيام بالمهمة، فنفحته بمائة دينار، وقرأنا الفاتحة، تخففت بعد ذلك من وساوسى. وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر».

وفى هذه الرحلة كما فى كل مؤلفات كاتبنا الكبير نجيب محفوظ: الحكمة والجمال. ومثل كثير من كتب نجيب محفوظ: تزداد متعتك وفائدتك إذا عاودت قراءته. فهو فنان جاد وهو مفكر وطنى وهو صاحب رسالة إصلاحية.. أما قلبه فكبير الحزن على ما أصاب وطنه ودينه، وهو يدعوك إلى أن تفعل شيئاً نافعاً.. لعله ولعلنا..

# الدين : لله
# والوطن : أيضاً؟!

كل الحروب دينية، إلا الحروب الدينية!

فلكي يحمل إنسان السلاح ليقتل إنساناً آخر، فلابد من أن يكون لديه إيمان قوى بأن الله يقف إلى جواره، وأن الشيطان يقف على الجانب الآخر.

وهذا هو رأى الذين يقفون فى الناحية الأخرى أيضاً!..

فنحن جميعاً نحارب فى سبيل الله!..

وهكذا تكون «الحقيقة» هى أولى ضحايا الحرب..

وحقوق الإنسان هى أول طابور للأسرى..

والشيوخ هم الذين يعلنون الحرب، أما الشباب فهم الذين يمشون على الألغام إلى الجنة.. وكلما زاد عدد قتلى العدو، كان الثواب أعظم، وكلما هدموا بيوتاً كانت قصورهم يوم القيامة أفخم!

ولذلك ففى جميع الحروب تدوى على الجانبين عبارة: الله أكبر..

والشعوب تلجأ إلى الحرب، عندما تفشل فى حل مشاكلها بالذوق.. أو أنها عندما لا تستطيع أن تحل العقد بأسنانها، فإنها تقطعها بالسيف.

ولا أحد يعرف متى بدأت الحرب الشاملة. ولكن نعرف أن الحرب هى مثل الخلاف بين اثنين وقد انضرب فى مليون..

وهى تبدأ عادة بأن تنظر إلى الذى فى يد غيرك، وترى أنه لا يستحق كل ذلك. فالبداية الحقيقية للحرب كانت عندما نظر قابيل إلى ما فى يد أخيه هابيل.. ثم قتله. ولم يكن لهابيل أولاد، ولذلك فنحن جميعاً أولاد القاتل قابيل.. ومازلنا نحيى ذكراه الدموية فى كل مكان وزمان..

وإذا كانت الخناقة بين أخوين بسبب الطمع. فكل الحروب كذلك. لأنها نتيجة للطمع، ومقدمة لطمع جديد. أو أنها نتيجة للفساد العام، ومقدمة لفساد آخر - فلا نهاية لمقدمات الحروب، ولا نهاية لنتائجها المتجددة..

ويعض المؤرخين يرون أن الحروب الحديثة لم تعد دينية. فقد انتهت الحروب الدينية كلها سنة ١٦٤٨ بعد ثلاثين عاماً من القتال بين البروتستانت الألمان والكاثوليك.. ولكن الحروب التى جاءت بعد ذلك سياسية اقتصادية.

أما الحروب الدينية فلاتزال فى أرض الديانات التى هبطت من السماء كاليهودية والمسيحية والإسلام، أو التى خرجت من الأرض مثل الهندوكية والكونفوشيسية والتاوية والبهائية والزرادشتية - هنا فى الشرق الأوسط!

وهذا الرأى ليس صحيحاً تماماً. فالحروب الدينية فى أوروبا لم تنته بعد. فالنازية التى اجتاحت أوروبا كان لها مذاق دينى. فهتلر هبة السماء، والشعب الألمانى المتفوق على كل الشعوب الأخرى،

هو شعب اللّه المختار. ولذلك فالحرب مقدسة، والرسالة مقدسة. والهدف هو بقاء الشعوب الآرية سيدة على الشعوب الأخرى..

والشيوعيون الذين حاربوا النازية والفاشية، ليسوا مؤمنين. ولكن لديهم كل عناصر الدين إلا وجود اللّه.. فالشيوعية هدف ووسيلة. وكتاب «رأس المال» هو التوراة والإنجيل والقرآن. والكرملين هو الفاتيكان والكعبة. ولينين هو المسيح والرسول.. فهم أيضاً شعب اللّه المختار، ورسالتهم هى خلاص البشرية من أجل جنة العمال والفلاحين عندما ينتهى الصراع بين الطبقات فى نهاية العالم..

وكما تتحرك البراكين الخامدة، تفجرت أخيراً الحرب الدينية فى ولاية البنجاب الهندية. الأغلبية من السيخ. والأقلية من الهندوك. ولكن الهندوك هم الأغلبية الساحقة فى الهند كلها (٧٠٠ مليون نسمة). ولم تشتعل هذه الحرب لأن عود كبريت قد ألقى فى «المعبد الذهبى».. ولا لأن الزعيم الدينى قد قام مذعوراً، ومات من الخوف. ولكن الخلاف القديم. والتحفز طويل. وانتظار اللحظة المناسبة قد حان. والأيدى كلها على الزناد، والفتيل منزوع من كل الصدور. وقد حاول السيخ أن تكون لهم ولاية خاصة بهم. ولكن الحكومة البريطانية قد قضت على هذه الآمال الانفصالية.

والخلاف دينى فى المقام الأول. فديانة السيخ هى خليط من الإسلام والهندوكية.. فهم يؤمنون بإله واحد، والهندوكيون يؤمنون بعدد من الآلهة. والسيخ لا يقدسون الأصنام والتماثيل، بينما الهندوكيون يفعلون ذلك. وهم يتفقون مع الهندوكيين فى

إيمانهم بتناسخ الأرواح بعد الموت. فبعد أن يموت الإنسان تحل روحه فى أى جسم آخر: إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا.

وتحاول الروح فى هذه الأجسام المضيفة أن تحقق ذاتها من جديد، وتظل تنتقل من جسم إلى جسم حتى يتم تطهيرها بعد مئات الألوف من السنين..

ولذلك فالسيخ يغضبون المسلمين والهندوكيين معاً.

وهكذا حتى أصبح لدى السيخ شعور بأنهم أقلية الأقلية. وإنهم فى حالة دفاع مستمر عن النفس.

ولذلك فهم يكونون قوة كبيرة فى الجيش الهندى - أى إنهم يتدربون على القتال تحت عباءة الأغلبية، وتحفزاً لها..

حتى جاءت هذه الفرصة، وكان القتال عنيفاً وضحاياه بالألوف فى أيام قليلة..

ثم إن هناك سبباً اقتصادياً. فالسيخ أحسن من يزرع القمح فى الهند كلها. ولذلك تحقد عليهم الولايات المجاورة. وتمنع عنهم الماء. وتقوم الحكومة بتحويل الأنهار إلى حقول الهندوكيين لتجف حقول السيخ وتموت مزارعهم، وتخلو صوامعهم ويصرخوا من الجوع، ويمدوا أيديهم إلى الحكومة التى تنتهز هذه الفرصة العظيمة فلا تعطيهم شيئاً!

إنها حرب القمح المقدسة!.

وهذه حرب فى شعب واحد، وهى غير متكافئة. ولكن الحرب تجعل المقاتل ينسى مبادىء الحساب. وينسى معنى الحياة. وكل

ما يذكره هو أنه، حتى لو كان أقلية، فسوف يبقى مادام اللّه معه، وينسى أن من الجائز أن يموت، ويتذكر أن عدوه لابد أن يموت، وأن القمح إذا كان هو السبب، فإن اللّه هو الذى اختار له القمح، واختاره للقمح. فهو يدافع عن إرادة اللّه.

وفى الشرق الأوسط كل أنواع الحروب..

فالمسلمون فى إيران يحاربون المسلمين فى العراق.

وهم فى إيران أغلبية من الشيعة..

وفى العراق أغلبية من السنة..

عرب فى العراق، وفرس فى إيران..

وقد بدأت الحرب الدينية فى داخل إيران فى عهد رضا بهلوى، عندما حاول أن يقص أظافر ولحى وشوارب رجال الدين الذين يرفضون الحياة الأوربية، ونجح فى ذلك. واستأنف رجال الدين هذه الحرب مع ابنه محمد رضا بهلوى، وانتصروا عليه فى مظاهرات ومذابح سنة ١٩٧٨ حتى أسقطوه فى يناير سنة ١٩٧٩.

فالحرب كانت بين الفساد السياسى والإصلاح الدينى.. بين الحياة الغربية، بين كتاب «الثورة البيضاء» لشاه إيران وبين «القرآن الكريم»..

وقد تغير العالم الإسلامى بعد نجاح ثورة آية اللّه روح اللّه حجة الإسلام الإسماعيلى الاثنا عشرى الإمام الخومينى..

فقد اهتز العالم كله لهذه الغضبة الشيعية، وزلزلت كل المنابر الإسلامية. ولكن ثورة الخومينى، مثل كل الثورات، راحت تأكل

بنيها.. أكلت من رجال الدين أضعاف ما أكلته من السياسيين من مخلفات الشاه. وأكلت من الشعب الإيرانى أضعاف الذى قتلته من الشعب العراقى.

ولم يكن الخلاف بين إيران والعراق دينياً فى أساسه. إنما هو خلاف على المساحة التى تطمع فيها الدولتان من نهر شط العرب.. وقد كانت بينهما اتفاقية. وأعلن العراق من طرف واحد إلغاءها. فالخلاف إذن على الماء.. أو على الخط الذى يجب أن يكون فاصلاً بين العراق وإيران فى شط العرب. وانتقل هذا الخط من شط العرب إلى الحدود بين البلدين.. إلى الخليج العربى الفارسي.. ثم حول آبار البترول وفى المدن.. وتطاير شرر القتال بعيداً عنيفاً دموياً.. فكان الاعتداء على الكعبة الشريفة، وكان اغتيال أنور السادات..

ولاتزال الجامعات الدينية فى العالم العربى تستعد وتتحفز. وإذا نظرنا إلى أسماء الجماعات الدينية نجد أنها جميعاً ترفض المجتمع الذى تعيش فيه وتتربص به.. فهى جميعاً فى حالة انتظار مسلح..

وإلى جانب إيران وقف الأردن وسوريا وليبيا وأمريكا وإسرائيل..

وإلى جانب العراق وقفت بقية الدول العربية وروسيا وفرنسا..

وفى سوريا صراع بين الشيعة الحاكمة، وهى أقلية، والسنة المحكومة، وهى أغلبية.. وقد أدت ثورة الأغلبية إلى أن سحقتها الأقلية الحاكمة. فأبادت المدن وعشرات الألوف من المدنيين.

وفى لبنان كل أنواع الصراع الدينى: بين الموارنة المسيحيين والمسلمين من الشيعة والسنة.

وكل العرب يقفون منذ عشرات السنين ضد الشعوب اليهودية التى تسللت إلى فلسطين، وأقامت لنفسها بمساعدة أمريكا وروسيا دولة إسرائيل..

والحرب بين الشعوب اليهودية والعرب بعد أن أصبحت لهم دولة إسرائيل، هى من أجل أن تتوافر لها مياه سوريا ولبنان والأردن.. فهى حرب من أجل الماء أيضاً. وهى حرب على الأرض المقدسة. فإسرائيل قد استولت على مقدسات المسلمين والمسيحيين: المسجد الأقصى ومسجد عمر وكنيستى المهد والقيامة..

وقد قامت بين اليهود والعرب خمس حروب. ولم تتوقف هذه الحروب ولا الاستعداد لها. وما أشعله اليهود فى لبنان من حرب وحشية ضد الشعب الفلسطينى والشعب اللبنانى، يؤكد أن الحرب مستمرة بين العرب واليهود. وأن السلام الذى تحقق بين مصر وإسرائيل ليس إلا سلاماً جزئياً.. وهو وقف لإطلاق النار، لكن الحرب الكلامية والنفسية بين البلدين لم تتوقف.. فمصر لا تستطيع أن تنفصل عن العرب.. ولا عن المشاكل العربية. وليس ممكناً ذلك. رغم كل محاولات عزل مصر، وتخويف العرب من الديمقراطية المصرية، فإنها عربية.. وحتى إذا كانت بعض الدول العربية تدفع مالاً كثيراً فى مصر لتشجيع الانشقاق السياسى والدينى، فإنها تفعل ذلك لتغرق مصر فى مشاكلها الداخلية، فإذا جاءت مشاكل خارجية كانت مصر أضعف فى الداخل والخارج؛ ولذلك يتعاون بعض العرب والأمريكان والروس وإسرائيل على أن تصبح مصر هى الرجل المريض. ولأنه مريض فهم يخافون أن تنتقل عدواه السياسية والدينية إلى البلاد الأخرى.

وفى غير العالم العربى حروب دينية أخرى: فى قبرص بين اليونانيين المسيحيين والأتراك المسلمين..

وبين البروتستانت والكاثوليك فى شمال أيرلندا..

البروتستانت يخضعون لتأثير بريطانيا، والكاثوليك للكنيسة الأيرلندية، وهم لذلك يريدون أن يتحدوا بأيرلندا. والبروتستانت يريدون أن يتحدوا مع بريطانيا.. والكاثوليك الأقلية فى الشمال يعانون من التفرقة السياسية. ولذلك فعدد المتعطلين أكثر، وبيوتهم وطعامهم دون المستوى البروتستانتى. والمدارس نوعان.

فهذا التمييز الدينى، قد أدى إلى تفرقة سياسية واجتماعية.. وإلى تفاوت فى الدخول بين الأغنياء البروتستانت والفقراء الكاثوليك. ورغم وجود قوات بريطانية من سنة ١٩٦٩، فإن عدد الضحايا يتزايد عاماً بعد عام. ولا حل!

والصهيونية باعتبارها أحدث القوميات السياسية، هى نموذج لدين الأقلية المضطهدة المنبوذة الخائفة التى تتربص ببقية الشعوب. فاليهود عندما انهدم عليهم المعبد، وتفرقوا فى الأرض. كانت التوراة هى مسكنهم. هى بيتهم.. ويكفى أن ننظر إلى ما يفعله اليهود فى المعبد وما يفعله غيرهم من أبناء الديانات الأخرى. ففى المعبد اليهودى يلتقى الناس ويتناقشون فى البيع والشراء. فالصلاة لا تهم. وإنما التجمع واللقاء والشعور بالأمان هو الذى يهم. بينما المسلم يرى المسجد مكاناً مقدساً للصلاة. وكذلك المسيحى. فالمسلمون والمسيحيون ليست مشكلتهم الأولى

هى الالتقاء والتجمع. ولا ينقصهم الأمان. فالأمان أمام الباب، أما ما وراء الباب فهو الصلاة والاتجاه إلى الله.

ولايزال الماء والبحث عنه والقتال من أجله هو الهدف الخفى عند الشعوب اليهودية فى إسرائيل.. من النيل إلى الفرات..

ومنذ ألقى موسى عليه السلام فى الماء، ونجا من النيل، ثم نجا مرة أخرى من ماء البحر الأحمر.. فالماء هو كابوس فى الأحلام اليهودية وهو أيضاً أهم عناصر الحياة فى أرض المعاد الجافة الأنهار الملحة الآبار.

وإذا كان المسلمون فى الهند قد انفصلوا واستقلوا بدولة باكستان، فليس الآن سهلاً فى لبنان الذى حارب عليه المسلمون السوريون، أشقاءهم المسلمين الفلسطينيين، وحارب فيه المسيحيون الموارنة أشقاءهم المسيحيين الأرثوذكس، وحاربهم اليهود جميعاً..

وإذا كان الدستور اللبنانى قد نص صراحة على الوجود الطائفى للجميع، فإن الطوائف اللبنانية عندما التقت فى سويسرا، دخلت متفرقة، وخرجت ممزقة. ويبقى كل شىء فى لبنان على ما كان عليه وأسوأ.. وسوف يزداد عنفاً عندما تستولى سوريا على البقاع، وإسرائيل على جنوب لبنان. وقد ساعدت الدول الأوربية المسيحية على تقسيم لبنان، وعلى الوقوف وراء المسيحيين.. تماماً كما فعلت ذلك فى إقليم «بيافرا» المسيحى فى نيجيريا المسلمة.. وكما تفعل ذلك الآن فى جنوب السودان، فهى تشجع على انتشار المسيحية وبقاء الوثنية واستدراجهم إلى

الهجرة خارج السودان لكى تتولد مشاكل أمنية واقتصادية وسياسية مع الدول المحيطة بالسودان.

والذى يفعله الرئيس القذافى هو خليط من الدين والإلحاد والإرهاب والعزلة، والمقاومة فى الداخل والخارج.

وإذا كانت الشعوب النامية ترى أن الدين هو الوطن. فإن الشعوب الحديثة ترى أن الوطن هو الدين. وأن الوطنية هى الدين. ولذلك كان الملك أو الإمبراطور هو الدولة التى هى الدين. فالملك هو رأس الدولة ورأس الكنيسة - كما كان فى التاريخ الإسلامى هو الخليفة وهو أمير المؤمنين.. وهو آية الله روح اللّه الأقدس حجة الإسلام الخومينى!

والمسلمون فى أفغانستان هم وحدهم فى العالم الذين يحاربون الروس الملحدين.. فهى حرب مقدسة تماماً عند الأفغان. ومن المؤكد أن شعوب روسيا القيصرية الحمراء، يدافعون عن مقدساتهم أيضاً، لأنهم يعتقدون أن روسيا هى دولة قد اختارها التاريخ، لنشر الماركسية وإقامة العدل العنيف بالتسوية الدموية بين الناس، ويجىء المهدى المنتظر الذى تختاره اللجنة المركزية للحزب، فيملأ الأرض عدلاً شيوعياً، بعد أن امتلأت ظلماً رأسمالياً.

ولا تزال آلة الحرب فى حاجة إلى نار، هذه النار هى الدين..

فالحروب مهما كانت سياسية، فهناك دين يدفعها ويحميها ويقدس ضحاياها.. والحروب مهما كانت دينية، فهناك مصالح مادية.

فالذين يتحدثون عن اليمين واليسار، ينسون أن هناك «فوق وتحت»..

والذين لا يعرفون إلا ما هو فوق وما هو تحت، يندفعون إلى أن يكون لهم يمين ويسار..

وتبقى الحرب هى أكثر سلوكيات الشعوب عنفاً وشمولاً واستمراراً. وقد سجل المفكر الأمريكى ول ديوارنت سنوات الحرب فى تاريخ الإنسانية فوجدها ٣٤٢١عاماً.. بينما السلام ووقف إطلاق النار لم يستغرق سوى ٢٦٨عاماً..

وسوف تبقى الحرب لأن أسباب اشتعالها بين الشعوب هى نفسها أسباب الخلاف بين الأفراد: الطمع والغيرة والغرور والطعام والأرض والموارد الطبيعية والطاقة والسيطرة.

أما الدول فتضع القوانين لمنع الفرد من تحقيق رغباته بالقوة.

ولكن الفرد لا يستطيع أن يضع مثل هذه القوانين للدولة، حتى لا تندفع إلى تحقيق أطماعها بالقوة.. وما دامت الدولة هى الأقوى، والفرد هو الأضعف، فسوف تبقى الحروب لأنها الأسلوب الوحيد عند الشعوب فى حل مشاكلها الحيوية. وتحقيق رسالتها التاريخية، وتلك مشيئة اللّه لأن «اللّه» القديم هو «الدولة» الحديثة؟!!

# الاغتراب الاجتماعى!
# الاغتراب السياسى!
# الاغتراب الدينى!

لأول مرة من ثلاثين عاماً تجيء كلمة «الاغتراب» فى خطاب لرئيس الجمهورية. فقد التفت الرئيس حسنى مبارك إلى ظاهرة نفسية اجتماعية سياسية دينية خطيرة هى اللامبالاة.. وهذه اللامبالاة سببها أن الشباب فى مصر عنده شعور بالاغتراب.. بالغربة.. بالغرابة.. أى أنه غريب فى بلاد غريبة.. كأنه ليس مصرياً.. كأنه ليس شباباً.. كأنه أسقط بالبراشوت فى مكان غير مكانه، وزمان غير زمانه.. كأنه من أهل الكهف.. كأنه جاء من الكواكب الأخرى بلا خريطة.. بلا لغة.. بلا مبرر..

وكان من الضرورى أن تظهر هذه الكلمة سنة ١٩٥٤ عندما أطلق واحد من الإخوان المسلمين رصاصة على الرئيس جمال عبدالناصر فى الإسكندرية. فالرصاص قد انطلق على البطل جمال عبدالناصر.. والذى أطلقه شاب أراد أن ينتقم لما فعله الرئيس عبدالناصر بالإخوان المسلمين والمسلمين والإسلام.. إذن

فلقد عكفت جماعة من الشبان على مفهوم البطولة ومعناها ودورها فى التاريخ المصرى والعربى، فوجدوا أن حياته تساوى وفاته تماماً.. وأن الذى أنجزه لمصر لا يساوى ما أوقعه من ظلم وعذاب بالذين يخالفونه فى السياسة. أى أن دوره انتهى. ورسالته يجب اختصارها. وإنه يجب أن يختفى.

والرصاص الذى انطلق على جمال عبدالناصر ظل يلف ويدور حتى أصاب السادات بعد ذلك بسبعة وعشرين عاماً.. ولكن الرصاص الذى لم يقتل عبدالناصر، قد قتل معانى الرياسة والزعامة والبطولة.. لقد قضى على عشرات من الكلمات عظيمة الاحترام عند الناس.. إن الرصاص لم يقتل بطلاً، إنما هذا الرصاص كان مثل مدفع الإفطار.. فبعده أفطر الناس على الكذب وسوء الظن والريبة.. واللامبالاة.. والكفر السياسى والاجتماعى.. وبعد سنة ١٩٥٤ عرفت مصر كل أنواع الكذب.. وكل أنواع الشك. وكل أنواع الضيق بالبطل والبطولة والزعيم والزعامة.

ففى سنة ١٩٥٦ تحول موقف جمال عبدالناصر الخطابى إلى انتصار على العدوان الثلاثى.. فبريطانيا وفرنسا وإسرائيل لم تعتد على مصر، إنما مصر قد انتصرت عليها قبل أن تعتدى علينا.. ونحن أخرجناهم قبل أن ينزلوا.. أو نحن استدرجناهم إلى الهبوط فى بورسعيد من أجل القضاء عليهم.. تماماً كما استدرجنا إسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧ من أجل «الضربة الثانية».. فنحن قد خططنا للهزيمة ولم نخطط للنصر.. فكانت الهزيمة بناء على خطة موضوعة.. أما النصر فقد كان أسهل لولا

تدخل الدول العظمى ولولا خيانة أمريكا.. ولولا خيانة روسيا.. ولولا خيانة العرب كل ذلك قيل. أما الضحية فنحن. ومع ذلك فقد قيل لنا إننا لم نكن ضحية. إنما نحن وقعنا باختيارنا، ونزف دمنا بقرار منا!

وبعد ذلك جاء من يقول إن نصر سنة ١٩٧٣ العسكرى والنفسى كان هزيمة. وأننا لن نأخذ سيناء كلها، إنما فقط قناة السويس.. حتى قناة السويس لم يستردها جيشنا العظيم، إنما كانت الخطة موضوعة قبل ذلك بسنوات.. وكل ما فعله الجيش أيام السادات، هو تنفيذ الخطة التى وضعت أيام عبدالناصر؟!

ولما استرد الجيش سيناء كلها جاء من يقول إنها خيانة عظمى. فقد استرد المصريون أرضهم، وتركوا الجولان والضفة الغربية والقطاع والقدس والصحراء المغربية والأوجادين الصومالية وجزيرتى طمبا الصغرى والكبرى فى الخليج..

والآن أرجوك أن تضع كل هذه المعلومات على ورقة أمام شاب دون العشرين وأن تتركه بعض الوقت. ثم عد إليه واسأله: ما الذى فهمت من تاريخ مصر؟ من الذى انكسر ومن الذى انتصر؟ من هو القائد الوطنى، ولماذا هو يسرق المليون جنيه؟. ومن هو الزعيم الوطنى ولماذا قتلناه؟.. وما هذا الجيش الذى ينهزم ويموت منه الألوف.. ومن هؤلاء الذين يقتلون من شباب مصر المسلمين فى كل الحروب دون أن يعرفوا أنهم انتصروا فى سنة ١٩٦٧ وانهزموا فى سنة ١٩٧٣.. وهم لا انهزموا ولا انتصروا فى سنة ١٩٥٦، إنما الذى انتصر وحده لا شريك له هو الزعيم الخالد جمال عبدالناصر!

وإذا وجدت هذا الشاب قد ألقى بنفسه من النافذة، فلا تندهش. فهو لم يفهم. وهو عندما فهم أدرك أنه لا أمل له فى هذه الحياة التى امتلأت بالكذب والخداع والتضليل.. وأنه لا يستطيع أن يحترم أباه أو المدرس أو الكاتب أو الحاكم.. فالكل يكذب عليه. والكل يتوهمون أنه بلا عقل وبلا إرادة..

وإذا لم يلق هذا الشاب بنفسه من النافذة واكتفى بإلقاء الورقة.. فمعنى ذلك أنه لم يحتقر شأنها وشأننا، إنما هو أراد أن يجعلها منشوراً ثورياً.. ألقاها لعل أحداً يلتقطها، ويجمع الشباب حوله ليقوموا بمظاهرة احتقار لكل ما يرون وما يسمعون.. وإذا لم يكلف الشاب خاطره بإلقاء هذه الورقة من النافذة أو تمزيقها، فإنه سوف يتخذ قراراً فردياً بألا يقرأ كلمة واحدة مكتوبة.. وألا يسمع ما يقال وما يذاع.. فلم يعد يثق بالكلمة.. باللغة.. واللغة هى وسيلة المواصلات الوحيدة بيننا.. هى الكوبرى بينى وبينك.. وبيننا وبين المجتمع.. والدنيا من حولنا..

تصور أنك لا تثق بالسلالم. فلا تنزل عليها.. ولا تثق بالمشى فى الطريق فلا تخرج من البيت.. ولا تثق بالسيارة والطيارة.. والتليفونات.. والإذاعة. وأنت فى نفس الوقت لابد من أن تخرج ولابد من أن تسمع ولابد من أن تعمل وأن تتعلم. إذاً أنت تفعل كل ذلك خائفاً متردداً.. أو تفعل كل ذلك وأنت لا تدرى به.. كأنك نائم.. أو فى غيبوبة.. هذه الغيبوبة، أى عدم الوعى بنفسك أو بغيرك، هى اللامبالاة.. هى أنك تريد ولا تريد.. تعمل وكأنك لا تعمل. تقول وكأنك تسمع.. تعيش وكأنك انتقلت إلى العالم

الآخر.. إذًا أنت غريب فى بيتك.. فى مكتبك.. فى معملك.. فى بلدك.. وأكثر من ذلك: إنه لا يهمك شىءً.. مما يحدث لك.. وما يحدث لغيرك.. ثم إنك شخصياً بلا دور.. بلا معنى بلا هدف..

وأرى أن هذا الشاب – وملايين غيره – معذور مجنى عليه.. ضحية.

ولكن أحداً لم يلتفت إليه..

فلما وجدنا ملايين الشبان يقفون معاً بعيداً عنا.. وفى مواجهتنا وضدنا، هنا فقط قد تنبهنا ولأننا أيضاً قد أصابتنا هذه اللامبالاة، لأننا أيضاً نحمل وزر هؤلاء الشبان.. إنهم ضحايانا، فنحن الجناة.. نحن القتلة.. فقد توارينا خجلاً أو يأساً من مواجهتهم. وتركناهم يتكدسون معاً، ويعكفون معاً على فهم شىء، وتدبير شىء.. كانت لهم اتجاهاتهم الإيمانية الخاصة بعيداً عنا، وفى غياب منا وفى غربة..

وأصبحنا نقول: هم.. ونحن.. رأيهم ورأينا.. إيمانهم الخاطىء، وإيماننا الصحيح.. ولكننا لا نسمعهم وهم يقولون: هم.. ونحن.. رأيهم الخاطىء ورأينا الصحيح.. هم الكثرة الذين دفعونا إلى الهجرة من مصر.. إلى ما تحت أرض مصر.. إلى كهوف مصر.

فقط عندما اتخذ الشبان المهزومون المقهورون قراراً بأن يكونوا قوة سياسية، فزعنا نحن الأكبر سناً..

فزعنا عندما انطلق الرصاص على البطل جمال عبدالناصر..

ولم نتنبه إلى ملايين الرصاص الذى أطلقه هو على ملايين الشبان والآمال والأحلام.. لم نتنبه إلى مذبحة الفكر المصرى والروح المصرية التى توالت مشانقها معركة بعد معركة.

ويوم أطلق شاب فى حلوان صاروخاً وصفته الصحف المصرية بأنه أسرع من الضوء، لم يدرك أحد خطورة أن تحتفل الصحف بهذه الحادثة فاضحة الجهل.. فالصواريخ اليوم سرعتها لاتزيد على ٢٨ ألف كيلومتر فى الساعة - أعظم صواريخ أمريكا وروسيا - أما سرعة الضوء فهى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية؟!!

ولم يعلق أحد من أساتذة كليات العلوم والهندسة فى مصر على هذه الفضيحة العلمية.. ولم ينتبه الذى كتب الخبر والذى نشره والذى هو مسئول عنه بعد النشر إلى هذه الغلطة الفظيعة - وكان هذا الصمت، أو التراخى فى التصحيح، قمة اللامبالاة الجماعية..

ويكفى أن نقارن بين هذا الخبر والذى حدث فى أمريكا يوم أطلق الروس «اسبوتنيك» وهو أول قمر صناعى سنة ١٩٥٧ - يزن ١٨٥ رطلاً، ليدور حول الأرض. لقد زلزلت أمريكا كلها: حكومة وهيئات علمية وسياسية ودينية..

ولم تمض سوى شهور حتى أطلقت أمريكا أول قمر لها..

مازالت أمريكا تطلق سفناً إلى الفضاء حتى أطلقت أخيراً المكوك الفضائى كولومبيا وهو يزن ٦٥ ألف رطل أى أكبر من أول قمر روسى بمقدار ٣٥٣ مرة.. وأطلقت تسعمائة رائد فضائى أقاموا حول الأرض ما يعادل سبع سنوات.. وعشرات الألوف من الأجسام تدور حول الأرض. فقد تأزمت أمريكا وتقزمت، أى شعرت بالأزمة وأحست بأنها قزم إذا ما قورنت بروسيا سنة ١٩٥٧.. ولكن القزم تعملق، حتى تقدمت أمريكا فى كل علوم وفنون الفضاء والسفر إلى الكواكب الأخرى..

وتساقطت عشرات العمارات في مصر - أي ضحى المهندسون بالذي تعلموه في الهندسة وفي علوم الأخلاق، من أجل فلوس المقاولين - فكانت أزمة علمية أخلاقية..

ولكن انهيار العمارات في مصر لم يؤد إلى فزع أخلاقي أو قلق علمي في معاهد مصر..

فما الذي فعله اليابانيون عندما عثر أحد مفتشي الأسواق على كاميرا حاول فتحها فلم تنفتح.. وتقدم منه البائع قائلاً: إن هذه هي ثالث كاميرا نحاول معها ذلك ولكنها لا تستجيب..

وسافر المفتش الياباني إلى طوكيو. وقرر المصنع إقفال أبوابه يومين. التقى جميع المهندسين والمخترعين والمصممين والمديرين لمواجهة هذه الكارثة: كاميرا لا تستجيب لأصابع الزبون.. كاميرا اتخذت قراراً فردياً هو إساءة سمعة الصناعة اليابانية.. كاميرا لسبب غير واضح قررت تدمير اليابان كلها بأقسى وأعنف مما فعلته قنابل هيروشيما..

واكتشف الأطباء اليابانيون أن الخطأ جاء من أن أحد العمال الذي يقوم بربط أجزاء هذه الكاميرا مصاب بالنقرس وتصلب في أصابع يده اليسرى.. وإن هذا التصلب يجعله أبطأ ويجعله غير قادر على ربط أجزائها بإحكام.. إنه عامل من تسعين ألف عامل!..

وقرروا الاستغناء عن جانب كبير من العمل اليدوي في هذه المرحلة من تركيب الكاميرا. وأقفل المصنع أبوابه ليقوم جميع العاملين بفتح الكاميرات، واحدة واحدة قبل تصديرها.. وكذلك فعل مئات المفتشين الذين سارعوا بالسفر إلى جميع عواصم العالم!.

ثم بلغت اللامبالاة فى مصر أقصى وأقسى درجاتها، فامتنع ثمانية ملايين ناخب عن الإدلاء بأصواتهم..

أى كانت عندهم فرصة لأن يكون لهم رأى وموقف، فلم يفعلوا شيئاً..

أى أتيحت لهم فرصة رسم خريطة مصر، ووضع جدول أعمال مصر، وتشكيل مجلس إدارة مستقبل مصر، فلم يهتم أحد من هذه الملايين بشىء من ذلك.

لاذهبوا، ولا أعلنوا امتناعهم عن التصويت..

أى لا ذهبوا فقالوا: لا..

ولا ذهبوا فقالوا: نعم..

وإنما كان الصمت هو «لعم» ـ أى لا ونعم معاً..

وهى قمة اللامبالاة السياسية والاجتماعية..

واللامبالاة هى نتيجة هذا الشعور بالغربة والاغتراب..

والاغتراب أنواع: الاغتراب الروحى.. أى يلجأ الإنسان إلى بيت فكرى يقيمه لنفسه.. فهو هارب من الواقع إلى مخيمات فلسفية أو سياسية أو أدبية.. يعيش فيها، ويستقر بعيداً عن الواقع المصرى.. لأنه غير راض عنه. ولأنه غير قادر على التكيف معه.. وعاجز عن تغييره، ليكون مناسباً له..

ومثل هؤلاء المغتربين كثير من الرومانسيين فى القرن السابع عشر والثامن عشر. وأنا أرى شخصياً أن أكثر الأدباء المصريين رومانسيون، حالمون بعالم أفضل وليس لديهم

برنامج واضح لذلك. ولذلك انتشر الرمز، والإيحاء والهمز والهمس واللمز واللمس فى الرواية والمسرحية والقصيدة..

وهناك «الاغتراب الاجتماعى»، فيحس الشاب أنه حائر بين طبقات المجتمع.. فهو قفز من الطبقة الدنيا، ويحلم بالطبقة العليا، وعاجز عن الوصول إلى الطبقة الوسطى الأكثر عدداً والأكثر مالاً.. فهو بالواقع عاجز، وهو بأحلامه شقى.. وهو لا يعرف ما فائدة العلم والدراسة. إذا كان الذى يتخرج فى كلية الهندسة يكسب أقل من السمكرى والنقاش والسباك.. وإذا كان المهندس الزراعى يكسب أقل من الفلاح.. والطبيب أقل من السائق.. والعسكرى أقل من اللص.. وفى نفس الوقت نحاكم الناجحين على أنهم غشاشون.. ويجىء الظلم سريعاً ويجىء العدل بطيئاً.. فكم من أبرياء خرجوا موتى بعد أن أهلكتهم الفضيحة والعار، بينما اللصوص والمهربون دخلوا وخرجوا، بين صفين من كبار المحامين.. فما هو العدل؟ وما ثمن النجاح؟ وما جدوى الشرف والأمانة؟..

و«الاغتراب السياسى» معناه: إنهم لا هم مواطنين ولا هم رعايا.. لا هم محكومين ولا هم حكامًا.. لأنهم لا يمارسون أى نوع من إدارة العلاقات الشعبية. لا فى الكلية ولا فى الجامعة ولا فى الأحزاب السياسية.. إنهم يقرءون أسماءهم وصفاتهم فى خطب الأساتذة والعمداء والوزراء.. وتجىء أسماؤهم كأنها تأبين لهم. ولذلك فهم لا يجدون أنفسهم فى أية صيغة سياسية..

وأخيراً «الاغتراب الدينى» عندما يشعر الشبان بأن المجتمع

فاسد، أخلاقياته وسياساته.. وأن الإسلام قد انحرف به الكبار.. وأنه لم يعد إسلاماً إنما هو استسلام للطاغوت ـ أى للشيطان والظلم.. وإنهم لذلك كافرون بهذا الإسلام المزور.. أو أن الناس جميعاً هم الكافرون، وأن الإسلام الصحيح هو الذى درسوه وحفظوه.. ولذلك فهم يهاجرون بدينهم بعيداً عن هذا المجتمع الكافر، الذى لا يحكم بما أنزل الله على الرسول عليه السلام..

فكانت عقيدتهم «تكفير» المجتمع و«الهجرة» بعيداً عنه..

وهم لذلك لا يشاركون ولا يساهمون بشىء فى بناء هذا المجتمع.. إنهم يتفرجون عليه ويتوقعون انهياره، وهم يرون أنه انهار.. وهم فى ابتعادهم يتربصون وينتظرون ويستعدون، وهم لا يرون أنهم فقط غرباء، إنما المجتمع هو الغريب عنهم..

فهم الغرباء بين الغرباء، وهم الغرباء فى الأرض الغريبة. ولكنهم لا يرفضون مصر، وإنما «إدارة» مصر.. وهم لا ينكرون مصر، ولكن يستنكرون حالها الأخلاقى والاجتماعى والسياسى..

فما الحل؟ أى: ما علاج ظاهرة أو مرض اللامبالاة فى مصر؟..

العلاج هو أن يبالى الناس بأنفسهم ومجتمعهم وبلادهم. حاضرهم ومستقبلهم. أى أن يكون لهم دور.. موقف إيجابى. كيف؟..

لقد كتبت هنا كثيراً عن هذا المرض.. وكان مقالى الأول فى العدد الأول من هذه المجلة عن «دوخة» الشباب بين الذى نقوله لهم والذى يرونه فى الواقع.. وسقوطهم فى الهوة الواسعة بين

الصدق والكذب.. ثم عشرات المرات فى مقالى «مواقف» اليومى فى «الأهرام»..

كما أننى نشرت فى هذا المكان فى العام الماضى أن الرئيس مبارك عكف على قراءة كتاب عنوانه «أمة فى خطر» - وهو التقرير الذى كتبته أكبر هيئة علمية فى أمريكا بتكليف من الرئيس الأمريكى..

وقد تولى شرحه ونقله والرد عليه د. مصطفى كمال حلمى فى عدة مقالات، نشرت فى هذه المجلة. أما التقرير فهو مهتم بظاهرة السطحية والتفاهة التى انتشرت فى المدارس والمعاهد والجامعات الأمريكية. وكان من نتائج ذلك أن تقدمت اليابان وألمانيا وبريطانيا على أمريكا فى كل مجالات العلوم والصناعة والبحث والإبداع. إنها كارثة كبرى لأكبر وأغنى دولة صناعية فى العالم!..

فما الحل الذى وجدوه؟..

الحل هو «الجدية». أى الروح الجادة بين التلاميذ. الضبط والربط واستخدام العصا فى بعض المدارس. إصلاح حال المدرسين ورفع مستواهم، وأن يكون للآباء دور إيجابى فى تربية الأولاد فى البيت وفى المدرسة..

وهو نفس الرأى الذى اقتنع به الرئيس مبارك فى خطابه الأخير إلى مجلسى الشعب والشورى، وفى خطابات سابقة أيضاً: إننا فى مصر فى حاجة إلى مزيد من الإنتاج، أى العمل الإيجابى، وهذا العمل الإيجابى هو الشفاء من اللامبالاة والعزوف عن الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية.. أى بالكف عن الشعور بالغربة والغرابة.. أى باسترجاع الشعور

بالقرب والقرابة.. أى بالمشاركة العملية، لا بالفرجة الخيالية على ما يحدث فى مصر..

ولذلك كان لابد من الاهتمام بالتعليم الفنى.. أى تأهيل الطالب وهو يدرس إلى أن تكون له حياة.. فهو يتعلم ليعمل.. فالمدرسة يجب أن تكون المدخل النظرى إلى الحياة العملية.. ولذلك لابد من تغيير برامج التعليم، وتغيير السياسة التعليمية والتربوية لمصر.. لكى تملأ العقول الفارغة، وتشغل الأيدى العاطلة، وتدعم العلاقات الهزيلة بين الشباب..

ولا خوف عليهم أو منهم بعد ذلك..

ولن يتحقق كل ذلك فى عام أو خمسة أعوام.. فتغيير الناس يحتاج إلى وقت طويل.. أما أمريكا فى تقريرها الخطير هذا فقد صممت على أن تظل اللجنة التى كتبت هذا التقرير منعقدة إلى نهاية القرن.. أى أن تظل أمريكا فى حالة طوارئ روحية عشرين عاماً أخرى حتى تنتهى اللامبالاة والتفاهة ومجتمع الكافتيريا.. أى المجتمع الذى يجلس فيه الطلبة يأكلون السندوتش ويمضغون اللبان ويضحكون بعيداً عن الفصول والمدرجات دون أن يعاتبهم أحد، ودون أن يعاقبهم أحد، ودون أن يتنبهوا إلى خطورة الوقت الضائع على بلادهم فى هذه المقاهى والمطاعم المنتشرة فى الجامعات وحولها..

فهم فى أمريكا قرروا لأنفسهم عشرين عاماً، يتمكنون خلالها من تعديل مسار التربية المنحرفة والتعليم النظرى قبل أن تسبقهم اليابان إلى كل شىء فى الصناعة، وقبل أن تغرقهم بالبضائع الأفضل والأرخص!..

وإذا لم يجلس عدد كبير من العلماء والخبراء فى مصر لمدة عشرين عاماً، لبحث أسباب وعلاج هذه اللامبالاة أو هذا الاغتراب، فمعنى ذلك أن المرض قد استشرى فينا صغاراً وكباراً.. وأن الكبار لا يحق لهم بعد اليوم أن ينصحوا الصغار.. فعليهم أن يبدءوا بأنفسهم، قبل أن يتجهوا إلى الشباب..

وعندى أمل فى مجلس الشعب.. فهذه الانتخابات الأخيرة، وإن لم تسعد كل الأحزاب فهى قد أراحت الناس. فسوف نسمع ونرى وجوهاً جديدة. ولهجة جديدة. ونبرة مفيدة. وسوف يطلق كل الناخبين أصواتهم وبالونات أحلامهم وآمالهم..

ولكن عيبنا، نحن المصريين، أننا لا نصبر على حال واحدة.. وإذا صبرنا على حال واحدة بعض الوقت فسوف نشعر بالملل والقرف، وندعو إلى التغيير، ويجيء التغيير، ولكننا لا نرضى عنه عادة ونتطلع إلى تغيير آخر.. لمجرد الرغبة فى التغيير دون أن يؤدى إلى تعديل لمسيرة الأشياء أوتصحيح للعلاقات الاجتماعية والسياسية..

ولكن سوف يكون لما يدور فى مجلس الشعب صدى فى الصحف المصرية والعربية ويكون له صدى فى وسائل الإعلام وفى الحياة الاجتماعية.. وسوف يحرك الحياة الراكدة فى مصر..

ولن يكون له أثر كبير.. فالحياة الراكدة أقوى من مجلسى الشعب والشورى.. وأقوى من الحكومة.. وهى فى حاجة إلى قوة أكبر، ودفع أعظم. ولن تتحقق الحركة والحيوية والإيجابية إلا فى وقت طويل.. وكذلك الاغتراب الروحى والاجتماعى والسياسى والدينى.. وهذه اللامبالاة.

ومن أهم عاهاتنا الأخلاقية فى مصر: العجز عن الاستمرار. ولذلك فنحن نسرف فى استخدام هذا التعبير: المرحلة القادمة..

ما من خطاب لأى مسئول فى أية مناسبة إلاجاء فيه: وفى المرحلة القادمة نحن نحتاج إلى كذا وكذا..

ويكون الفارق بين المرحلة الماضية والمرحلة القادمة: يوماً أو ساعة.. مثلاً لو قام رئيس وزراء بتشكيل وزارة جديدة لجاء فى خطابه: «أما المرحلة القادمة».. مع أن المرحلة السابقة قد كانت قبل ذلك بساعة أو ساعتين. فنحن نتوهم أننا «نبدأ» شيئاً جديداً والحقيقة أننا لا نبدأ، إنما نحن نستمر فى القديم..

وإذا اتخذنا شيئاً جديداً، فنحن لا نصبر عليه.. لا نستمر. فكم من ألوف المشروعات بدأناها ولم نكملها، إذن فمشكلتنا ليست أن نبدأ، إنما مشكلتنا أن نستمر.. أن نثابر.. أن نمضى.. ألا نتوقف..

وفى حياتنا العادية نقول: سوف أتوقف عن التدخين أول الشهر.. سوف أبدأ المذاكرة يوم السبت، أول الأسبوع.. ابتداء من العام القادم سوف أعامل الناس جميعاً بشكل آخر.. هكذا نبدأ مع بداية الأسبوع أو الشهر أو السنة.. نحب ذلك، ونتوهم ذلك. ولكننا لسنا جادين فى البداية أو الاستمرار - هذا هو مرض الأمراض المصرية النفسية والاجتماعية والأخلاقية. ومن هنا يبدأ القضاء على جرثومة اللامبالاة، وميكروب الاغتراب، ووباء الفرجة على مصر دون أن نمد لها يداً، أو نطلق لها خيالاً، أو نحقق لها إبداعاً..

وقد جاءت عبارة «الاغتراب» ضمن خطاب الرئيس مبارك، قصيرة خاطفة ولكنها لامعة بارقة صاعقة. وهى المفتاح الصغير لأكبر خزائن الأوجاع المصرية..

والمفتاح فى أيدينا جميعاً..

# أيها الشاب: صوتك مهم.. وأنت أيضًا

فى الخمسينيات من هذا القرن جاءت هذه العبارة فى إحدى مسرحيات الأديب الفرنسى يونسكو: لا أحد.. إنه والدى يموت! واهتز المسرح والصالة والمجلات الأدبية لهذه العبارة التى قالها رجل لم يهتز. مع أن الذى يصرخ من الألم رجل يموت.. وهذا الرجل أبوه حبيبه الذى ترك له مليون جنيه، وترك له لقباً وزوجة حسناء..

وتلفت الناس على المسرح، وتلفت المتفرجون فى الصالة، وتبادل النقاد أقلامهم وهم يندهشون لهذا البرود والبلادة والجمود واللامبالاة التى جاءت فى هذه العبارة دليلاً على الذى أصاب الوجدان الفرنسى خصوصاً والأوروبى عموماً، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية..

ثم استراح الناس فى أوربا إلى عنوان مسرحية الكاتب الإيرلندى توماس بيكت: فى انتظار جودو. ولكن جودو لا يجىء، فكل شىء فى المسرحية يتعلق على مجىء جودو.. وتنتهى المسرحية، وجودو هذا الغامض القادر على حل كل شىء، لا يجىء. ويبدو أنه لم يحضر حتى الآن..

وجاء عنوان هذه المسرحية ومعناه ومعناها دليلاً على أن الناس بدءوا يؤجلون الحسم واتخاذ القرار، انتظاراً لهذا الغائب الذى لن يجىء.. أو بعبارة أخرى كان معنى المسرحية: إذا جاء جودو انحلت هذه المشكلة.. إذا حضر جودو، أصبح لكل شىء ثمن ولكل طريق هدف، ولكل بداية نهاية.. ولكن جودو لم ولن يجىء.. ولذلك فسوف يبقى كل شىء معلقاً بين القول والعمل، بين السماء والأرض، بين البداية والنهاية، بين الأمل والإرادة..

ورأى المفكرون والمؤرخون أن مثل هذه الأفكار تدل على مرض الروح الأوربية.. لأنها غير قادرة على الانفعال.. غير قادرة على الحزن.. على الفرح.. على الأمل.. وأن هذا العجز هو الذى جعلها هكذا بليدة.. أو هكذا لامبالية بشىء مما فيها، أو مما حولها..

ولذلك يجب أن يذهب أناس كثيرون لمشاهدة هذا النوع من المسرحيات التى تصور الأعماق الخاوية للإنسان.. والتى تجعله يشعر بالخجل من نفسه، فيفعل شيئاً. فليست هذه المسرحية إلا صوراً قبيحة لا يحب أن يراها..

وذهب الناس فى أوروبا إلى هذه المسارح سنوات، ثم انصرفوا عنها. لأنهم قد فهموا المعنى الذى قصده المؤلفون.. ثم إنهم تجاوزوها.. أى انتقلوا من اللامبالاة إلى المبالاة، من الرغبة إلى تحقيقها، ومن الاهتزاز بين طرفين إلى الحسم..

ورأينا فى القاهرة بعد هذه المسرحيات.. وعرفنا منها معنى التفاهة واللامعنى.. وفقدان الإرادة.. وأقبلنا على هذه المسرحيات، وشاركنا فى كتابة مثلها، ونقدها والنفور منها..

وأحسسنا كأنها غريبة علينا.. فهل تتحدث عن إفلاس العقل الأوربى - أو أن الإفلاس غريب عنا، أو أنه قديم فينا؟. ولذلك أثارت اهتمامنا ولم تثر همومنا.. فكما جاءت أو ذهبت ولم تترك أثراً.. إنما هى «موضة» فنية تفرجنا عليها، وتحدثنا عنها، واختفت فقاعة فى ماء، أو دخاناً لسيجارة..

فهل هى لم تترك أثراً، لأننا كنا أسبق منها شعوراً باللامبالاة؟ هل هى تحدثنا عن التفاهة العارضة، بينما التفاهة عندنا مستقرة؟. هل «مسرح العبث» الذى استضفناه فى مصر، لم يكن جديداً إلا فى الشكل فقط. أى أن العبث قديم فينا، ولكن أن يكون عملاً مسرحياً فهذا هو الجديد؟. أما الأوربيون فقد استطاعوا أن يحددوا متى ظهر الإنسان الخاوى الفارغ الأجوف، متى ظهرت الكلمات التى هى مثل علب من ورق.. قشر بيض.. غطيان زجاجات.

قالوا امتلأ الإنسان فراغاً بعد الحرب الأولى وقالوا بعد الثانية.. وقالوا بل قبل ذلك بعد الحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا - أى بعد الحروب الكبرى ظهرت الهزات العنيفة التى تبدد الأحلام العظمى، ولا تترك للإنسان إلا «نشارة» أفكاره ورماد أحلامه ورفات الأيديولوجيات السياسية..

شىء من مثل ذلك أصابنا نحن أيضاً.. ومنذ وقت طويل.. والنتيجة هى هذه اللامبالاة.. التى اتخذت أشكالاً مختلفة من الانتظار الطويل لشىء يجىء ثم لا يجىء.. فنحن كنا ننتظر خروج القوات البريطانية لنحقق المعجزة بعدها مباشرة..

وننتظر خروج القوات الإسرائيلية.. وكل قوات الاحتلال خرجت.. ولكن استقرت قوات اللامبالاة.. واحتلت البلاد، وتغطت النفوس بالكسل، والعيون بضمادات سوداء.. لماذا؟..

لأن من الأسهل ألا نفعل شيئاً. ومن الأصعب أن نفكر ونقرر، وبعد ذلك أن نمضى نفعل ونختار.. ونقرر ونلتزم وندافع عن القرار.

وأيسر من ذلك أن نستريح إلى أن القرار ليس فى أيدينا، إنه فى أيدى الإنجليز والأمريكان والروس واليهود.. وفى أيدى العرب - فى أيدى كل الناس إلا فى أيدينا. ثم نحلم بأن يجىء ذلك اليوم الذى تطول فيه أيدينا وتقصر أيدى هؤلاء الغرباء الغزاة الطامعين.. فإذا انقطعت أيدى الغرباء، كان أمرنا بيدنا، وقرارنا بإرادتنا، ومستقبلنا خادماً لحاضرنا.. وعلى الأرض السلام!

ولأننا لا نريد ذلك اليوم أن يجىء، لنظل هكذا مقهورين مظلومين معذورين، فإننا نتوهم قوات تمنعنا من اتخاذ القرار.. تمنعنا من أن نقول لا أو نعم.. أو إذا تحمسنا وخرجنا من هذه اللامبالاة، فلكى نخطو خطوة واحدة.. فنقول: لا.. لأى شىء.. لأ.. لأى رأى.. لأى قرار.. أى نرفض ما لا نعرف وما لا نفهم وما لا نرى..

فقط كما تقول المسرحية: إن الذى يموت فى الداخل ليس أحداً.. إنه والدى..

مع أن المعقول أن يقول الإنسان: إنه أحد يتألم لا أعرف من هو..

ولكن المسرحية تقول: إنه والدى ورغم ذلك فلا يهمنى ما يعانيه من ألم أو ما ينتظره من موت!

هذه إجابتى المختصرة عن سؤال يتكرر بيننا هو: لماذا هذه اللامبالاة عند كثير من الشبان؟. لماذا لا يذهبون - عادة - إلى صناديق الانتخابات ويكون لهم رأى؟.. أى لابد أن يقرروا الذهاب.. وعند الصندوق يقررون أن يقولوا: لا.. أو نعم. ولكن المهم أن يكون هناك موقف.. ولا يهم بعد ذلك ما هى النتيجة. ولكن الذى نراه فى مصر هو أن عدداً هائلاً من المتعلمين والمثقفين الشبان لا يذهبون.. أى لا يبالون: إن كان هذا الذى يتألم ويصرخ هو أباهم، أو أى إنسان آخر.. إن كانت المشاركة فى اختيار من يمثلهم فى البرلمان أو فى الحكومة، شيئاً مهماً.. وإن كانت أداة الحكم والتنفيذ والتخطيط من اختيارهم.. أى إن كانت مصر المستقبل هى مصرهم ومصيرهم..

وهناك فرق بين الرفض واللامبالاة..

فالذى يرفض قد اتخذ قراراً ضد إدارة أو نظام أو نظرية.. ثم إن هذا الرفض قد اتخذ شكل الرفض الجماعى - أى محاولة أن تكون للرفض شعبية.. ولذلك فالرافض يدعو إلى رأيه ونظريته المخالفة، فى الشارع والنادى والصحف. وقد يكون الرافضون أضعف من الإدارة والمؤسسة ولكنهم يرفضون. وهم لا يكتفون بالرفض أى بقول: لا.. إنما لديهم برنامج إصلاحى. أى لديهم بديل..

وقد رأت أوربا أشكالاً وألواناً من الرفض بعد الحرب العالمية الثانية وبعد فشل العدوان على قناة السويس وبعد فشل أمريكا فى حرب فيتنام، ولا يهم أن هذا الرفض قد انحسر لتظهر أنواع أخرى من السلوك الشبابى فى كل الدنيا.. وقد يكون الرفض نوعاً من المخالفة فقط أو الوقوف ضد السلطة. ولكنه موقف إيجابى..

وهو لذلك أفضل كثيراً من الذى لا موقف له. أى لا قال لا ولا قال نعم. وعندما فتح فمه تثاءب.. أو ابتلع بعض المخدرات، ليغيب عن الواقع فلا يجد نفسه مضطراً إلى الرفض أو اللامبالاة..

وفى مسرحية للكاتب الإسبانى أرابال أن فلاحاً غنياً وقف بين أبقاره وأغنامه ودواجنه وأبناء القرية يقول: أعترف لكم أن هذه الأرض ليست ملكى.. ولا هذه الأبقار ولا الأغنام!.

ثم تلفت يميناً وشمالاً، وتولاه الرعب وهجم على دجاجة وهرب بها بعيداً عن القرية!.

المعنى: أن هذا الرجل لأنه أراد أن يسرق، فقد أعلن أن كل الذى يملكه لا يملكه.. ولذلك فليس هو صاحب الأرض، وهو غريب عن القرية.. ولذلك فلابد أن يسرق لأنه محتاج إلى كل ذلك!

تماماً كالذى يشعر أن هذه البلاد ليست بلاده.. وأنه ليس من هذا الشعب، وأن هذه الحكومة لا تمثله، وهذه الأحزاب لا تتحدث عنه.. أى أنه إنسان أجنبى عن هذه البلاد، وعلى ذلك فلا حق له فى أن يذهب إلى صناديق الانتخابات ويدلى بصوته!..

فهو الذى فرض على نفسه الغربة ليعيش أجنبياً.. فلا صوت له، ولا رأى له فى الانتخابات أو فى الإدارة أو السياسة..

هذه هى الغربة بالإكراه - هو الذى أكره نفسه على أن يكون غريباً.. حتى لا يكون له رأى، أو يطلب منه أحد ذلك!

وتسمع من الشبان مثل هذه المعانى أيضاً. فيقولون: نحن غرباء فى بلادنا..

حتى الجماعات الدينية المتطرفة استراحت إلى هذا المعنى..

فالجماعات المتطرفة ترى أن إيمانها هو الحق. وكل الناس كافرون. ولما كانت الجماعات الدينية أقلية، فهى أضعف من أن تفرض على الناس ما يؤمنون به. ولذلك فهم غرباء فى بلادهم، مهاجرون بإيمانهم. وماداموا أقلية ضعيفة، فلا حق لهم فى أن يجاهروا بدينهم الآن.. ولذلك فهم يتوارون بين الناس، وقد يدفعهم التخفى والكمون إلى الامتناع عن الصلاة، حتى لا يعرف الناس أمرهم. وهم فى ذلك يفعلون ما كان يفعله المسلمون فى مكة. فعندما كان المسلمون فى مكة منعهم الخوف من التظاهر بدينهم.. فالمسلمة تتزوج مشركاً ولا تنطق. والمسلم لا يصلى علناً ولا جماعة.. وقد يدفعه الخوف إلى شرب الخمر، حتى لا يعرف أحد أنه أسلم.. وقد يدفعه الخوف إلى السرقة، ليؤكد للمشركين فى مكة، أنه لم يؤمن بالدين الجديد.. وقد يتزوج دون عقد ودون شهود لأنه خائف على دينه.. ولذلك فهذه الجماعات المتطرفة ترى أنها فى حالة هجرة، إنها فى حالة غربة وسط هذا المجتمع الكافر ـ أى المجتمع الذين حكموا بتكفيره. فهم مهاجرون، أو أنهم قاموا «بتهجير» أنفسهم أو «بتغريب» أنفسهم.. ومعنى ذلك أنه لا يصح أن يشاركوا بشىء فى إدارة الدولة التى حولهم.. ولذلك فهم رافضون..

فكأنهم أعلنوا أن مصر دولة أجنبية.. وإنها هى الغريبة عنهم. وإنهم دولة «الطاغوت» أو الشيطان أو الظلم والظلام.. ولا يسعهم إلا أن يرفضوها كما رفضتهم.. وأن ينكروها كما أنكرتهم..

وفى مدينة القدس جماعة دينية يهودية متطرفة اسمها

«ناطورا كارتا» أى حراس المدينة. وهم يرون أن دولة إسرائيل دولة حرام. قامت على باطل، وأن اليهود الكفرة قد أقاموها قبل أن يجيء المسيح الذى سوف يخلص اليهود من عذابهم وويلاتهم. ولذلك فهذه الجماعة لا تتعامل مع إسرائيل ولا بالنقد الإسرائيلى، ولا تتكلم اللغة العبرية، وتحرم العلم فى دولة إسرائيل وفى جيشها الذى أقام الباطل ليدافع عنه، فإذا أرادوا أن يزوروا «حائط المبكى» الذى يرونه بأعينهم، فإنهم يطلبون من السلطات الأردنية أن تسمح لهم بدخول المدينة. لأنهم يرون أن الأردن هى الدولة التى تملك القدس وتدير شئونها، أما إسرائيل فقد اغتصبت ذلك.. و«حراس المدينة» لايزيد عددهم على بضعة آلاف. هذه الألوف أنكرت دولة إسرائيل وحكمت عليها بالطرد.. وبأنها غريبة عنهم، ولذلك فهم لا يعترفون بها. إنما يكفرونها. ولأنها قوية وهم ضعاف، فليس فى استطاعتهم تقويضها أو القضاء عليها، ولكنهم لم يفقدوا الأمل انتظاراً لمجيء مسيح الخلاص فى نهاية العالم!

إذن فهذا الشعور بالغربة والتباعد بين هذه الجماعات الشابة السياسية أو الثقافية أو الدينية.. والمجتمع الكبير، هو الذى أفقدهم «دلالة» الكلمات، والكلمات هى وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا.. ولما كانت الكلمات كثيرة ومتضاربة وأكثرها بلا معنى فلا توجد لغة مشتركة. ولا آمال مشتركة. ولا هدف مشترك، إنما شعور واحد هو: خيبة الأمل الذى ورثه الشباب عن آبائهم. فلم يكن سهلاً من الناحية النفسية والاجتماعية أن تنهار المثل العليا المصرية والعربية فى مدى عشر سنوات: أن نتهم الزعيم

جمال عبدالناصر بالسرقة وأن نتهم الزعيم الشجاع أنور السادات بالخيانة.. ولا أن تجيء الأحزاب القديمة التى قامت الثورة ضدها، فتجد لها صدى عند الشعب.. ويمشى الشعب وراءها، ويكون المعنى: أن هذه الأحزاب القديمة مازالت أفضل وأن الثورة إذا كانت قد حكمت عليها بالإعدام. فإن الشعب استأنف هذا الحكم ضد الثورة. وحكم لهذه الأحزاب ضد ثورتى يوليو ومايو، ضد كل إنجازاتهما فى الاستقلال والاستقرار والأمان الاجتماعى والانفتاح والدستور الدائم وشرعية المعارضة ودستورية الأحزاب والنصر والسلام مع إسرائيل - أى ضد استقلال القرار المصرى، أى ضد طرد كل القوى الأجنبية التى كانت تشل الإرادة المصرية، وكأن السير وراء الوفد وغيره من الأحزاب، هو عودة إلى ما كانت عليه مصر قبل الثورة..

وفى مواجهة هذا الطوفان من الأفكار المتضاربة والآراء المتشابكة يضيع جيل بأكمله. أما رجال السياسة القدامى، فقد تدربوا طويلاً على المشى فى الضباب، والسباحة ضد التيار ومعه. فلا خوف عليهم. إنما هو الخوف يتولانا ونحن ننظر إلى الضحايا النبلاء من الشباب. فلاتزال أفكارهم خضراء، وأحلامهم وردية، وحقهم فى الحياة مقدساً، وواجبهم يدعوهم إلى أن يفعلوا ما هو أفضل..

وفى مناقشات طويلة فى الأسبوعين الماضيين، تمزق قلبى حزناً وأسفاً على ما أصاب جيلاً كاملاً. فلا شيء واضحاً عندهم: لا الكلمات ولا معانيها، ولا النظريات وتطبيقاتها، ولا الأحزاب

وبرامجها، ولا قول: نعم ولا قول لا ولا صناديق الانتخابات.. لماذا؟ لأن أحداً لم يقل لهم شيئاً. لأن أحداً لم يحدثهم بصدق وإخلاص. لأن أحداً لم ينظر إلى ما تحت قدميه وهو يدوس الرقاب والقلوب من أجل المقعد فى مجلس الشعب أو غيره من مجالس الإدارة والسلطة.. لأن كل الأجهزة تنظر إلى هؤلاء الشبان على أنهم «أطفال» وأن دورهم سوف يجيء ولذلك فلا يصح أن يتعجلوا طريقهم إلى إدارة شئون مصر..

قلت لأحد الشبان: سوف تعطى صوتك.

أجاب: ما جدوى صوت واحد؟

قلت: ولماذا واحد؟.. أنتم بالملايين..

قال: ولكنى لم أسمع عن واحد سوف يعطى صوته.. فما قيمة صوت واحد هو صوتى؟!

قلت: ولكن صوتك ولو كان واحداً له قيمة.. لأن لك قيمة.. المهم أن تشعر أنك أنت لك قيمة. وأن صوتك قيمة. إن مليماً واحداً له قيمة.. ولكن إذا قورن بالملايين فقيمته صغيرة.. ولكنها قيمة.. فلماذا لا تدعو زملاءك إلى أن يكون لهم صوت؟.. إن مليون صوت ليس صوتاً.. إنه دوى.. عاصفة.. زئير.. ولا أمل لمصر، إذا كان شبابها لا يرى أن له قيمة.. فإذا كان «الآخرون» يعتقدون أنه لا قيمة لكم.. فهذه فرصتكم لكى تؤكدوا أنكم أنتم القيمة.. ولم يحدث إصلاح أو تطوير أو تعجيل بالتطوير بغير هذا الرأى وهذا القرار..

قال: العكس هو الصحيح تماماً.. فعندما أشعر أننى أقف وحدى فى المقدمة وليس ورائى أحد، فلم أعد مقدمة.. ولا أنا

طابور.. ولا أنا مظاهرة.. ولا أنا دوى.. إننى أنظر ورائى فى خوف وأمامى فى يأس.. وكذلك ملايين الشبان..

قلت: ليكن لكم حزب.. ليكن تجمع.. تكتل.. أى اسم. ومادام لكم رأى وتؤمنون به، فمن الضرورى أن تدعوا إليه.. كل الأحزاب والهيئات والمنظمات والجمعيات الأدبية والخيرية كانت هكذا.. ولكن إذا كنت أو كنتم لا تؤمنون بأنفسكم، فالآخرون معذورون إذا رأوكم أطفالاً عابثين..

ـ .. ولا أظن أن أحدنا أقنع الآخر.. ورأيت يده تنقبض وتنبسط، كأن بها تذكرة انتخابية قد التصقت بها، وحرص على أن يلقيها على الأرض قبل أن يبرح القاعة.. ومن ورائه تسلل عشرات الشبان.. إذن فقد أغضبتهم، وفى نفس الوقت خسرتهم وخسرتهم مصر أيضاً.

وسألنى شاب متجهم جداً: وما فائدة أن نذهب جميعاً لندلى بأصوات ليس لها صدى؟

قلت: لا أفهم.

قال: إن أكثر الأصوات تضيع فى الصناديق إلا إذا كانت لصالح مرشح الحكومة..

قلت: وأنت لا تعطى صوتك للحكومة؟

قال: طبعاً لا..

قلت: ولماذا طبعاً لا؟..

قال: هذا موقف.. رأى لا يتغير.. أنا ضد أى حكومة..

قلت: ضد هذه الحكومة؟.. وأى حكومة؟..

ولصالح من؟

قال: لصالح التغيير.. أى تغيير.. ثم إن الأرقام التى تعلنها الحكومات عادة عن الأصوات التى حصلت عليها وتصل إلى ٩٩٪ لا يمكن أن تشجع أحداً على أن يقول: لا.. وإذا قال: لا.. فالدولة حريصة على أن تجعله يشعر بتفاهته.. أى أنه ١٪ فقط.. وأنه مسحوق.. أو رأى مسحوق.. أى أن «فتافيت» الرأى العام.. أو ذرات من المعارضة.. وهذا ما يضايقنى..

قلت: يضايقك وحدك.. ولكن إذا كان الذين قرروا أن يقولوا: لا.. أو نعم كثيرين.. ملايين.. فلا يمكن أن تكونوا بعد ذلك ١٪.

قال: لم أعد أثق فى أحد.. لا أنت ولا غيرك.. ولا أى أب ولا أم ولا مدرس ولا شيخ ولا قسيس ولا حاخام ولا وزير.. ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا صحافة.. كله كذب فى كذب..

قلت: ولا عندك أمل فى أن يكون هناك رأى عام من الشباب؟..

قال: شباب؟ ومن هم الشباب؟ الذين تراهم الآن.. إنهم يلعبون الكرة ويعاكسون البنات ويدخنون ويحششون.. لا أقصد سجائر الحشيش.. ولكن هناك أنواع أخرى من الآراء والمعتقدات أعمق وأقوى من الحشيش.

قالت طالبة شديدة التحجب: أنا سوف أختار الوفد.. سأذهب إلى صناديق الانتخابات وأعطى صوتى.

قلت: هذا حقك.. وواجبك أن يكون لك صوت..

قالت: ولكنى لا أجد هذا الوفد شجاعاً بدرجة كافية.. ربما ظهرت شجاعته بعد الانتخابات.. لماذا لا يدين ثورة يوليو؟.. لماذا لا يطالب بعودة الملكية؟.. أى ملك من مصر.. أى طفل يختارونه من أحد الملاجئ ويجعلونه ملكاً على مصر.. أنت

حدثتنا عن عادات التبت، فهم يختارون أى طفل ويجعلونه إلهاً يعبدونه.. أى يختارون قمة الكهنوت الروحى فى البلاد.. أسبانيا أعادت الملكية، بل أعادها الرئيس فرانكو وهو مايزال حياً.. لماذا لا يطالبون بعودة العلم المصرى الأخضر ذى الهلال والنجوم بدلاً من هذا العلم الذى لا نعرف كيف نميزه عن أعلام سوريا وليبيا والعراق واليمن؟.. لماذا لا يغيرون اسم «جمهورية مصر العربية» إلى جمهورية مصر فقط؟ فكثير من الدول العربية لا تضع كلمة العربية فى اسمها.. لماذا الإصرار على «العروبة» التى يتنكر لها كل العرب، ومصر هى التى تدفع الفاتورة عادة من قوتها ومن دمها؟ ولكننى سوف أختار حزب الوفد لأنه معارض، ولأنه الحزب الذى يحمل على كتفيه أكبر التهم والفضائح فى تاريخ مصر. إنه الحزب الوحيد الذى له «قضية» وهذه القضية هى التى أقامت ثورة يوليو.. والعجيب أنه بعد مرور ٣٢ عاماً، فإن فى الشعب من يفضله على الثورة.. وإن الوفد بعيوبه أفضل من الثورة بمزاياها.. أليس هذا شيئاً «عجيباً» يغرى بأن يكون للإنسان موقف؟.. إننى أفضل الحزب الذى له لون، ولون الوفد هو لون الإقطاع وظلم الفلاحين وفساد الإدارة والسلطة.. وهو فى نفس الوقت يشعل حماستى كطالبة فى كلية الحقوق أن أتولى الدفاع عنه.. ومن كلية الحقوق هذه خرج كل السياسيين فى كل العصور. إلا عصر ما بعد الثورة! ألا ترى أننى على حق؟.. إننى أرى ذلك.. إننى بمنتهى الصراحة سوف أستأنف الحكم فى كل القضايا التى حكمت فيها الثورة وأدانت رجال السياسة ورجال الدين، إننى أنا وغيرى من الشبان سوف نكون مصدراً للحيوية

والشباب للمنابر المصرية.. إن الاستسلام والركود الذى ينعم فيه الشعب المصرى، لشىء يبعث على الحزن.. إننى لا أطيق هذه الصور المتوالية من الموت!

قلت: هذا رأى.. أحترمه. ولا أعرف إن كنت قد لقيت صدى لما تقولين.

قالت: إننى أحاول.. وقد انتهزت هذه الفرصة لكى أعرض رأيى على زملائى.. ولو اتسع وقتك لأخذنا الأصوات على ذلك.

قال آخر: أنا كما ترون شاب، عمرى ١٧ سنة. قرأت كثيراً. وفهمت وأحاول أن يكون لى رأى. وأنا أسأل زملائى.. لماذا نحاول أن نكسب قضايا خاسرة؟.. لماذا لا نفرح بما فى أيدينا؟.. لماذا لا نضيف شيئاً إلى الذى أضافه آباؤنا وإخوتنا؟.. إن ثورة يوليو كانت على الإقطاع وعلى الملك الفاسد وعلى الحاشية الأكثر فساداً.. ثم تراكمت فوقنا كل مآسى الأمة العربية.. لقد كنا أغنى الدول العربية، واليوم أكبرها وأفقرها.. وكل الذى أصابنا بسبب هذه العروبة وهذا الالتزام الأخلاقى والأدبى والسياسى والدينى.. إننى أشعر كأن والدى كان غنياً، ولكن لأسباب عائلية وعاطفية أنفق أمواله على ديون أخواته وخالاته وعماته.. ثم تنكروا له جميعاً.. فأبى أمام مشكلة إنسانية أخلاقية.. إن أبى ليس نبياً.. ولكنه إنسان عادى يحظى بالقلب وبالعقل. ولم يفقد الأمل.. وأبى هذا قد وفر لنا البيت والأرض وعلمنا فى المدارس. ومات وجاء أخوه من بعده يكشف لنا أنه كان من الأفضل ألا يعطى إخوته مالاً كثيراً، وألا يسكت عن انحرافهم.. وجاء هذا الأخ

وحقق لنا ثروة أكبر وحرية أكثر، ودخل هو الآخر فى مغامرات عائلية واجتماعية، وأودع لنا رصيداً هائلاً فى المجتمع الدولى، وعقد صلحاً مع كل خصومه، فلم يعد لدينا خوف على أرضنا وعرضنا.. أريد أن أقول إن الثورة الشعبية المصرية بزعامة عبدالناصر قد صنعت المعجزات لمصر وأضاف إليها السادات قرارات كنا نراها مستحيلة، فإذا كان لأحد أمل فليلتفت إلى ذلك.. فليطور ما لدينا إلى ما هو أفضل.. وحتى لا يسىء بى الظن أحد من الناس.. فلا أنا غنى ولا كنت غنياً ولا أمل عندى فى ذلك. فأنا ابن مدرس وسوف أكون مدرساً، وهى ثانية مهنة فى التاريخ.. المهنة الأولى هى الدعارة. ولم نسمع عن مدرس لغة عربية أصبح مليونيراً.. ولكنى أحاول أن أكون منطقياً.. وأن أكون إيجابياً وألا أرفض لمجرد الرفض.. وألا أهدم لمجرد الهدم.. إن لى أخاً قد ترك مصر منذ ثلاث سنوات.. ولم تجف دموع أمى ولا آهات أبى على فراقه.. ولكنه اتخذ قراراً مثل القرارات التى سمعتها من الإخوة والزملاء.. هذا القرار: إن مصر لم تعد موطناً للمصريين. أو أن مصر لم تعد للمصريين.. وأنا أريد أن أعرف معنى هذا الشعار؟.. إن كانت الأرقام فهى تقول إننا ٤٦ مليوناً مصريون يعيش بينهم بضع عشرات آلاف من الأجانب.. ولا أعرف إن كان من رأيه أننا لم نعد مصريين، لأننا لم نأخذ برأيه.. فهل هو الذى يمثل مصر وحدها، ونحن نمثل الرأى الآخر.. أو الأجانب؟ ولكنى أحترم رأى أخى، وشجاعته.. وإن لم يكن هذا القرار شجاعاً.. فهو لم يسلك طريقاً جديداً.. فسوف يجد فى الخارج أكثر من ثلاثة ملايين مصرى.. ولكنه قراره وهو حر.. وسوف يفعل مصريون

كثيرون ذلك. ولا عيب ولا خوف.. فكثير من الدول الأوربية قد أطلقت أبناءها فى القارات الخمس: اليونان وتركيا ويوغوسلافيا وسوريا ولبنان.. والمصريون فى الخارج يبعثون لمصر أموالاً تعادل ثلاثة أمثال عائدات قناة السويس.. ولولا أبناء المهجر ما كانت سوريا ولبنان واليونان والهند والصين والبرتغال.. وقد قرأت لأحد الكتاب ينقد بيت الشعر المشهور الذى يقول:

بلادى وإن جارت على عزيزة

وأهلــى وإن ضنوا على كرام!

هذا الكاتب يقول: بل إن بلادى إذا جارت على فهى جائرة، وأهلى إن ضنوا علىّ فهم بخلاء.. ولذلك يجب أن أهجر بلادى. وأنا لا أوافقه.. فما من واحد منا إلا ضربه أبوه وأمه، فهل تنكرنا للأب والأم بسبب ذلك؟.. إنهم أقدس أقداسنا.. والجنة تحت أقدام الوالدين.. ومصر هى الأم والأب!

وصفقت له وحدى..

وأيقنت أن الأحزاب السياسية فى مصر.. لم تتجه بدعواها إلى ملايين الشبان.. لا قالت لهم معنى الكلمات.. ولا دلالة البرامج.. ولا دورهم فى السياسة والدين.. ولا شرحت لهم معانى: الخواء والفراغ. ولا بددت عندهم الرغبة فى أن يظلوا هكذا نائمين تحت أغطية من الحرير اسمها: اللامبالاة..

إذن فليس غريباً أن يحتفظ هؤلاء الشبان بأيديهم فى جيوبهم، وأن يديروا رءوسهم وأحلامهم إلى ناحية أخرى..

# ومن الذى لا ينشر العنف ؟!

كان لابد أن ألتفت تماماً إلى هذه المجموعة من الشبان الذين جلسوا بالقرب منى.. فعلاً فرجة.. متعة.. كأن ألف كتاب قد انفتحت صفحاتها.. كأن ألف كاسيت قد انعكست على شاشة بالألوان.. إنهم يتكلمون بصوت مرتفع.. ويوضحون كلماتهم الصارخة بأيديهم وأذرعهم وسيقانهم.. وبالشتائم والألفاظ النابية.. إنهم يشتمون النادى الرياضى المنافس لهم.. أما المقاعد فإنهم يحركونها بأقدامهم.. ويتقاذفون الأكواب.. ويضربون العشب بالجزمة.. ويهجمون بعضهم على بعض.. ما هذا؟

إنها صورة لما يحدث فى أماكن كثيرة وفى مجالات مختلفة: صور من العنف.. فى الكلام والتفكير والسلوك الاجتماعى.. وصور من التفرقة العنصرية بين مدرسة ومدرسة وبين فريق رياضى وفريق آخر.. ومن الكراهية أيضاً..

ثم ما الذى قالوه بعضهم لبعض.. لا شىء إلا النكت والقفشات والشتائم الجارحة دون أن يكون وجود الفتيات معهم سبباً كافياً للاحتشام.. وحتى الفتيات لم يستنكرن ذلك.

ولم أجد فى أيديهم إلا صحيفة واحدة.. حتى هذه الصحيفة

يبدو أن أحداً لم يقرأها أو شرع ثم عدل.. لم يعلق أحد على شيء مما يقال بين الناس أو فى الإذاعة أو فى الصحف.. لم أسمع أحداً يجرى حواراً أو يبدأ حكاية أو يبدى رأياً.. لا شيء! وإنما ألفاظ من هنا وأصوات من هناك.. كأن الكلمات كرات ساخنة لا يكاد يطلقها أحدهم، حتى يهرب من لمسها آخر.. أو يعيدها آخر..

وعندما جاء الجرسون تحدثوا إليه فى وقت واحد.. ولما لم يفهم، راحوا يسخرون منه.. ويتهمونه بأنه لا يفهم لأنه يشجع النادى الآخر.. مثلاً يقولون: أنت لا تفهم إذن فأنت زملكاوى.. أنت اللى ستين أهلاوى.. طبعاً أنت لا تقدم إلا برسيماً.. هاها.. وهل الأهلوية يشربون الشاى فى دلو أو طشت.. هاها.. ولما ابتعد عنهم الجرسون راحوا يطلقون عليه ألفاظاً عارية.. فلما التفت إليهم ليرى من الذى شتمه كانوا قد اتجهوا إلى الناحية الأخرى حتى لا يراهم - فلا هى شجاعة ولا هى جرأة.. وإنما عنف وجبن معاً!

هذا هو المزاج العام لبعض الشباب: العنف فى الكلام والحركة والسلوك.. ولا ثقافة!

والأفلام السينمائية فى العالم كله تعرض العنف والعضلات.. أفلام الحرب والعصابات والسرقة والقتل. لماذا؟ لأن الشبان هم الذين يذهبون إلى السينما. يفضلونها على التليفزيون. لأن التليفزيون مفروض على الذين يشاهدونه - أما السينما فهى من اختيار الشبان.. يذهبون إليها أو لا يذهبون.. ويجدون فى الذهاب إليها والجلوس على المقاعد أو فوقها والزعيق والصراخ والتريقة مجالاً لممارسة العنف ونقد المجتمع، ولذلك فشباك

التذاكر يسجل أرقاماً قياسية للشباب الذى لا يهضم إلا العنف والدم والنار والانفجار.

فالسينما - إذن - تقدم للشبان بالضبط ما يريدون.

حتى الأفلام الدينية فيها كثير من العنف. أي كثير من استعراض العضلات. فالفيلم الدينى الذى يقدم للمتفرج قصة الصراع مع الشر، انتصاراً للفضيلة والخير والعدل والرحمة، يجعل الطريق إلى هذه المعانى النبيلة، شائكاً دموياً - صحيح أن العنف عندنا لا يصل إلى حد القتل وسفك الدماء.. وإنما هو العنف المتاح: تشنج الممثلين ونفور العروق فى رقابهم الغليظة وتشنج الحناجر أيضاً.. وتستطيع أن تستعيد كل المسلسلات الدينية فى رمضان.. فسوف تجد الناس جميعاً فى حالة من الهيستريا. وهم بدلاً من أن يضعوا السكاكين والسيوف والسهام فى أيديهم ليطلقوها على أعدائهم، يكتفون بتسديدها إلى السادة المشاهدين.

فهذا نوع من العنف العضلى أو العصبى - أى العنف المسموح به. ولكنه عنف أيضاً!

فليس هذا هو الإسلام، وإنما هو الإسلام «العضلى» أو العصبى.. أو الهستيرى - وهذا العنف يفسد على المتفرج أن يتبع مسار الحق، ومنطق العدل ومشوار الخير ودرب الرحمة، وساحة التسامح بين الناس. فلسنا فى حاجة إلى جرعة كراهية أو شربة تعصب.. وإنما نحن فى حاجة إلى من يقول لنا دائماً: الرحمة هى التى يجب أن تسود بين القوى والضعيف والغنى والفقير.. والتسامح هو الذى يجب أن يجمع بين المسلم والمسيحى.

واختلاف اللون أو الرأى أو العقيدة طبيعى.. ولا فضل للون على لون، أو دين على دين.. وليست الخلافات فى الدين هى قضيتنا اليوم، ويجب ألا تكون.. فعندنا عدو مشترك: هو الأرض البور.. والبطالة.. والديون.. واللامبالاة.. ليس عدونا هو هذه المعارك المفتعلة بين المسلم والمسيحى.. بين المسلم المتطرف والمسلم المعتدل. التعصب الذى يخلق التعصب.. فعندما أقول: نحن المسلمون.. فوراً نسمع من يقول: نحن المسيحيون.. نحن وهم.. إما نحن وإما هم.. غلط! بل نحن وهم.. بل نحن جميعاً على أرضنا وعلى خير بلدنا ومن أجل سلامنا ورفاهيتنا وتقدمنا.. يجب إبادة هذه «الواو» فى كل عبارة فنقول: نحن «و» هم.. بل نحن هم.. هم نحن.. نحن فقط.

فإذا لم يكن هذا هو المعنى من كل المسلسلات الدينية، فهى ضارة بنا، وتتنافى مع الرحمة والتسامح فى كل الأديان. إن بعض رجال الدين ينشرون التعصب دون أن يدروا.. يكفى أن يقول الواحد منهم: ونحن المسلمون - لا داعى لأن يكمل العبارة. فقد أقام حداً فاصلاً بيننا وبين غيرنا. غلط. خطر. كارثة على البلاد. مصيبة تتجدد كل يوم دون أن ينتبه سيادته ما هذا الذى ينشره ويبذره، وفداحة ما سوف يتحقق بعد ذلك!

وليس مصادفة أن تتجه كل شعوب العالم إلى إعادة النظر فى برامج التعليم. كل الدول التى أشعلت نار الحرب العالمية الثانية أو شاركت فى وقف أضرارها، قد أصابها هى الأخرى الكثير من الشر والضرر.. جميعاً يغيرون برامج التعليم. لماذا؟

لقد انهارت القيم الأخلاقية والدينية فى العالم كله.. والأخلاق

أوسع دلالة من الدين. لأن الدين هو أحد المناهج من أجل تحقيق الأخلاقيات العامة: الخير والحق والعدل والرحمة والتسامح والسلام بين الناس.

فقد انشغلت الدول الصناعية الكبرى بتعليم الأطفال مبادئ الجبر والهندسة والكمبيوتر. وقد نجحت فى ذلك كثيراً، واستدركت الدول العظمى ما فاتها فى هذا السباق الجنونى نحو الكسب التجارى والسيطرة الاقتصادية على الأسواق - أمريكا واليابان قد بدأتا حرباً اقتصادية عنيفة. فالتقدم الصناعى الزائد لليابان أدى إلى بوار المنتجات الأمريكية. وكان لابد من أن تحمى أمريكا منتجاتها، ففرضت الحماية الجمركية فصرخت اليابان. ولكن أمريكا سجلت احتجاجها وتحذيرها وأنها تستطيع عند الضرورة أن توقف النمو الجنونى لكل ما هو يابانى.. وسوف تستأنف المعارك ضد اليابان فى السوق الأوربية المشتركة، وفى أسوق العالم الثالث.

وهذه هى النتيجة الطبيعية للتفوق الصناعى والتكنولوجى فى الدول المتطورة جدًا.

أما فى أمريكا فهناك هيئات علمية وتربوية كبرى تبحث عن الخلل الذى أصاب الشباب فى أمريكا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وفى أعقاب الحرب مع فيتنام.. وفى ألمانيا وفى اليابان وفى فرنسا أيضاً.

وأول ما اهتدى إليه العلماء هو أن المدارس والمعاهد لم تعد بها «روح» - أى أن الطلبة يتوجهون إليها، وكأنهم فى حالة نوم مغناطيسى.. فالعلاقات الإنسانية بينهم هزيلة، وبين المدرسين

والطلبة شكلية.. وكل الذى يربط الجميع هو الجلوس معاً فى الكافتيريا والتزاحم على حمامات السباحة وملاعب الكرة. أما الذى يقولونه أو يفكرون فيه أو يشغلهم، فلا يختلف كثيراً عن مجموعة الشبان التى بدأت بها هذا المقال.. كلام وزعيق.. تضارب بالأيدى والأرجل والكلمات.. وهاها.. وهىء هىء.. وانتهى اليوم وإلى اللقاء غداً فى يوم ليس جديداً. وإنما هى أيام متكررة الهلوسة والهذيان.. وفى كل العالم..!

والكافتيريا والسندوتشات قد سيطرت على عقول الشباب.. ففى الكافتيريا لقاء صاخب هرباً من المحاضرات والمعامل.. وفى الكافتيريا كل شىء سريع خاطف.. القهوة والشاى والسجائر أو المخدرات.. والسندوتش هو قليل من الخبز مع قليل من اللحم أو الفول.. فهو طعام خاطف.. ووجبة سريعة.. مثل خطف الشاى وخطف السندوتش والسجائر: خطف المعلومات أيضاً.. فلا هم يأكلون ويشربون على مهل، ولا هم يحصّلون العلم كذلك.. فكل ما لديهم لقمة من هنا ولقمة من هناك.. ومعلومة من هنا، ومعلومة لا هى هنا ولا هى هناك.. وتنتهى الأيام والأعوام، وقد تخلف الشعب كله فى كل مجالات البحث والعلم.

وكل الدول حريصة على أن تعلم الشباب: حرفة.. مهنة.. يعيش منها. صناعة يدوية.. تشغيل العقول الإلكترونية، ولكن شعوب العالم لا تعلم الشباب كيف يكون صادقاً، كيف يكون فاضلاً.. لا أحد يعلم أحداً أن يفكر وأن يتأمل وأن يتذوق ما فى الحياة من قيم وجمال.. وإنما كل شىء خاطف ومخطوف.. وأن المهم هو أن

تصل أسرع قبل غيرك وعلى جثته. وسوف تجد عند خط النهاية من يصفق لك لأنك وصلت.. ولا يسألك كيف؟.. ولذلك فالطالب يغش لكى ينجح. المهم أن ينجح. والتاجر يسرق من أجل أن يكون غنيًا. المهم هو الفلوس.. والأفلام والمسلسلات تختار للفتاة المتعلمة غنيًا جاهلاً لا فقيراً متعلماً مكافحاً.. ومعنى ذلك أن العلم لا يهم، الفلوس هى التى تهم، والفلوس من أى طريق وبأى شكل. والغنى السجين هو إنسان سيىء الحظ.. سيىء الحظ لأنهم ضبطوه.. وليس إنساناً سافلاً حقيراً يجب التحذير منه..

ونحن مبهورون بالتقدم العلمى.. وهو بالفعل تقدم باهر ولكننا لا نلتفت إلى التخلف الأخلاقى. فالحضارة ليست تطور الأدوات ووسائل الإنتاج والمواصلات ولكن الحضارة هى توظيف هذه الأدوات فى تعميق القيم الإنسانية، أى القيم التى تجعل الإنسان متحضراً. فالقاتل بالسكين كالقاتل بالقنبلة الذرية، كلاهما مجرم.. ولا يقال عن القاتل الذرى أنه مجرم متحضر، والقاتل بالسكين مجرم بدائى. لأن الحضارة ليست هى القنبلة، وإنما الحضارة هى تحويل القنبلة لصالح الحياة ولاستمرار الحياة وبقاء القيم ونشر السلام.

وفى استراليا لايزال يعيش مئات الألوف من السكان الأصليين.. والدولة حريصة على أن تجعلهم يحتفظون بالأسلوب الذى يرونه لسعادتهم، وهى تحميهم وتحمى بقية المواطنين.. ورغم أن هؤلاء البدائيين يستخدمون السيارة والطيارة والتليفون فلا يمكن أن يوصفوا بأنهم متحضرون.. وإنما هم فقط يستخدمون أدوات التقدم

العلمى.. ولكن الحضارة هى أن يكتشفوا ما فى العقل من كنوز باهرة تنشر أشكال الحياة الهادئة الهانئة من أجل رفع مستوى الذوق واستطعام التأمل - ارتفاعاً بالإنسان عن رغباته الغريزية التى تساويه بالحيوان، والإنسان لا يكون متحضراً وإنما يصير متحضراً.. أى أن الحضارة ليست صفة وإنما الحضارة «فعل». أنت إذاً ارتديت (بدلة) وركبت سيارة وجلست أمام عجلة قيادتها فهذا لا يدل على أنك متحضر.. وإنما يدل على ذلك أن تحترم الناس والعلاقات الإنسانية والقانون وألا تعتدى على غيرك وعلى حقه وحريته وكرامته.. وألا تكون قد سرقت السيارة و(البدلة)..

***

ففى مواجهة العنف الذى تراه يجب ألا تقف عند استنكاره فقط فهذا لا يكفى. وإنما يجب أن نفكر أفراداً وشعباً فى استئصال جذوره من النفس ومن البيت ومن المدرسة ومن وسائل الإعلام.. ولا نكتفى بأن نقلب صفحة أخرى فى كل صحيفة عندما نقرأ لمن يدعو إلى التفرقة بين ألوان الناس وأديانهم، بل ألا نقرأ هذه الصحيفة.. وألا نكتفى بالانتقال إلى قناة أخرى اعتراضاً على الأحاديث الدينية التى تغرس الكراهية والحقد والتعصب بل أن نمنع هذا الذى يشعل الفتنة بين الطوائف لأنه لا يساوى هذا الضرر الفادح الذى يلحقه بالأمة..

معاً وبين كل الناس يجب أن ننشر الرحمة والتسامح والمحبة بين الشباب حتى لا تكبر معهم كل عناصر الدمار لهم ولبلدهم.. ولمستقبلنا جميعاً..

# تعالوا : نعلم مصر أفضل ونربيها أعمق ونطـــــورها أســـــرع !

البيت يربيك..

المدرسة: تعلمك..

المجتمع: يهذبك..

الدولة تفتح وترصف وتضىء الطرق لمستقبلك..

الدين: أوكسجين لهذه الأجواء..

فما الذى ينقصنا فى مصر؟

لن أمل من تكرار ما حدث فى السنوات الأخيرة فى الدول الصناعية الكبرى. واختار أمريكا: كبرى وعظمى وتاج على رءوس الدول الصناعية والديمقراطية فى العالم. فقد اهتز المجتمع الأمريكى بعنف مرتين فى هذا القرن: المرة الأولى يوم أطلق السوفيت أول قمر صناعى حول الأرض.

والمرة الثانية: دخولها وفشلها فى حرب فيتنام ثم خروجها من هذه الحرب لتجد الشعب الأمريكى قد انهزم، والذى هزمه وخيب أمله وخسف به الأرض: الشباب الأمريكى!

وأمام الرئيس ريجان، وأمام الرئيس مبارك أشهر تقرير عن إصلاح التعليم فى أمريكا. التقرير عنوانه، أمة فى خطر، وكنت أول من كتب عن هذا التقرير فى مجلة «أكتوبر» وعرضه ولخصه وعلق عليه د. مصطفى كمال حلمى نائب رئيس الوزراء. وقارن بين ما طالب به التقرير، وبين انجازات التربية والتعليم فى مصر.. وقد اعدت قراءة هذا التقرير وأشرت إليه. وأخذت عنه، وشددت رموش العيون لتراه أوضح وأعمق. واختلفنا. لقد نظر الناس إلى ما نظرت، ولكنهم لم يروا ما رأيت، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا ولا قرأنا ولا كتبنا، بينما انعقدت لجنة على أرفع المستويات الأمريكية فى التعليم والعلم والتربية وقررت أن تظل منعقدة إلى نهاية القرن. فلن ترفع جلساتها إلا إذا ارتفع مستوى التعليم والتربية فى أمريكا.

وأمام الرئيس ريجان تقرير ثان أغرب وأعجب عن «الصور العارية فى الملصقات والمجلات» وعلى الرغم من أن أمريكا هى بلد السينما، فلم يعترض أحد على الأفلام العارية «ملط» ولكن الاعتراض على صورها التى يراها الطفل والفتاة، والتى تفقأ عين الفضيلة ـ والتى تفرض نفسها على الناس.. أى تغتصب الناس. بينما الأفلام العارية يذهب إليها الناس باختيارهم، ولكن الإعلان عنها يهتك حرمات الناس!

فهذا التقرير أيضاً يعترض على إفساد الذوق العام والتربية الأخلاقية..

وبداية البحث عن برامج التعليم الأمريكية بدأ بصدمة. أى

دقات على الأبواب التى نام وراءها العلماء الأمريكان. فجأة انطلق الروس إلى الفضاء الخارجي.. قمر صناعى.. الكلبة لايكا.. ثم رائد الفضاء جاجارين سنة ١٩٦١.. وفرض السوفييت على الأمريكان أن يتفرجوا على التفوق العلمى السوفييتى - أى يترك العلماء الأمريكان ما فى أيديهم من مشاريع لتطوير صناعة الطائرات والسيارات والثلاجات والساعات والكاسيتات ويلطموا خدودهم: كيف استطاع الروس أن يرفعوا كل هذه الأجهزة لتدور حول الأرض!

وأطلق الأمريكان نكتة على جاجارين، قالوا: إن أحد الروس لم يكد يرى جاجارين حول الأرض حتى قال: يا بخته إنه يعيش بمفرده!

من باب السخرية بأزمة الإسكان فى روسيا. وكانت النكتة الروسية المضادة: إن جاجارين يقول للأمريكان لأنه وجد سكناً أخيراً استطاع أن يرتفع إلى السماء بينما الكلاب الأمريكية تسكن وحدها من مئات السنين.. ولم يجد جاجارين حول الأرض لا الكلاب ولا أصحابها!

هنا فقط أحس الأمريكان أن «شيئاً ما» دفع الروس إلى السماء.. فما هو الشيء ما.. اجتهد العلماء. قالوا: لا يمكن أن تكون الحرية سبباً فى تخلف الأمريكان والطغيان سبباً فى تقدم الروس.. ولا هو الثراء ولا هو الدين..

آخر ما اهتدى إليه الأمريكان هو: برامج التعليم السوفييتية جادة أكثر.. فالطفل الروسى يدرس الهندسة والجبر وحساب

المثلثات والهندسة الفراغية، وهو طفل صغير. صحيح أن الروس قد أفرغوا السماء من الألوهية وكل مظاهر التقديس، ولكنهم ملأوا عيون الأطفال وخيالهم بإمكانية السفر والإقامة فى الكواكب الأخرى.. فاتجهت عيون الأطفال إلى فوق.. والمطلوب من الطفل الأمريكى أن يرفع رأسه يرفعها عندما يحلم!

إذن لابد من مضاعفة الحصص العلمية والرياضية. ولابد أن ينشغل الطفل أكثر. وأن يكون جاداً مهموماً بقضايا بلده وأن هذا ليس عبء الدولة، بل هو عبء على كتف الأب والأم - إن وجدا - وعلى الخادمات فهن الموجودات معظم الوقت!

فأكثر العلماء السوفييت شبان صغار. أى أنهم أطفال المعجزة فى دولة تنكر المعجزة - باعتبارها خرافة دينية. ولكنهم يرون أنهم قادرون على صنع الدين وكتبه المقدسة ورهبانه وباباواته. كل ذلك موجود وبوضوح ومنطقى فى المذهب الشيوعى!

اهتزت أمريكا. وانخلعت المقاعد تحت علمائها، وتصدعت آذانهم، من دقات الرأى العام يريد أن يعرف: ما الذى ينقصكم؟ الفلوس أعطيناها لكم بألوف الملايين! الوقت الراحة.. الاستقرار.. الحرية.. الكرامة.. ماذا ينقصنا؟

والأبحاث التى أجريت والتحليلات التى انتشرت والاستفتاءات تملأ أسماؤها هذه الصفحة وزيادة. لقد اجتاحت أمريكا عاصفة من العار القومى.. فقد وضعهم الروس صفراً على الشمال.. لقد أحرق الروس مقدسات الغرب فى لحظة واحدة ارتفعت فيها الكلبة لايكا إلى الفضاء.. فثارت عليها جمعيات الرفق بالحيوان.

ولم يحتج الروس أن يردوا على ذلك، لأن فى أمريكا وفى أوريا كما فى روسيا: مئات الألوف من القطط والكلاب والخيول والضفادع والفئران تموت فى المعامل من أجل الإنسان.. وليست الكلبة لايكا إلا أشهر هذه الحيوانات.. ثم أن الكلبة لايكا أشهر حى وأشهر ميت ارتفع إلى السماء. فسفينة الفضاء التى ارتفعت بها هى أغرب نعش فى التاريخ: إنه النعش الذى يدور حول المشيعين ـ الواقفين على سطح الأرض ـ فلم يرتفع حيوان من قبل إلى هذا المستوى. إنه ارتفع بالعلم ومن أجل العلم.. عاش ومات من أجل سلامة الإنسان.. فلولا الكلبة لايكا وما جربه العلماء فيها ما عاش مئات من رواد الفضاء بعد ذلك!

أذكر أننى فى المعرض الدولى فى بروكسل سنة ١٩٥٧ تزاحم الناس على الجناح السوفييتى يرون الكلاب التى وقفت ومعها مدربوها ـ أكثرهم من الفتيات. والناس مبهورون والروس فى ذهول لسذاجة العالم الغربى كله. فلايكا ماتت.. ولكن الناس نسوا ذلك. ورحنا نلتقط صوراً مع الكلاب!

بيب.. بيب.. بيب ـ هذا صوت القمر الصناعى السوفييتى فى كل جوانب المعرض!

ولما دخل الأمريكان حرب فيتنام تصدع المجتمع من أوله لآخره.. الشباب اعترض على الحرب ـ لأنه يكره الحرب ويريد أن يعيش فى سلام. وأن تبقى أمريكا المثل الأعلى للقوة والثروة وعسكرى مرور الشعوب إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن من أجل السلام فى كل مكان وأن تظل مأوى المعذبين فى الأرض. فالمهاجرون من الاضطهاد الأوربى هم الذين أقاموا أمريكا منذ اكتشفها كولمبوس سنة ١٤٩٢..

ولذلك هرب الشباب من الجندية.. وهرب من كل سلطة: الأب والأم والمدرسة والكنيسة والمؤسسة والشركة والجيش..

وفى هروب الشبان داسوا القوانين والعادات والتقاليد والدستور.. واستقلوا بساط الريح ليطوفوا بعيداً عن أمريكا.. وكان بساط الريح من دخان الحشيش والأفيون والهيرويين والمسكالين و. ل. س. د. والإلحاد والمذاهب الدينية الجديدة.. هذه المذاهب اخترعها ودعا لها نصابون من الصين ومن الفلبين ومن الهند - أى أن الشعوب الصفراء المضطهدة أفلحت فى أن توفر من يستعبد الشباب الأمريكى ويسحقه فى المواخير والكهوف والغابات والانتحار الجماعى.. إنه انتقام الشعوب الفقيرة من أعنف الشعوب، إنه انتقام الخرافة من العلم، إنه انتقام العالم الثالث من العالم الأول.. إنه تجنيد جيوش من الهاربين من الجندية الأمريكية لا ليحاربوا فيتنام ولكن ليحاربوا أمريكا.. وإن لم يحاربوها، فهم محذوفون من قوتها!

إذن، ليست أمريكا هى حلم الإنسانية كلها.. بل إن الشعب الأمريكى أحس أن فيتنام هى «الخطيئة» الأولى لأمريكا، كما أخطأ أبونا آدم حين أكل من الشجرة المحرمة، وكما وجب على آدم أن يهبط إلى الأرض.. فقد رأى الأمريكان أن يهربوا من الجنة.. إلى كهوف الحشيش واصطبلات المورفين، وغابات الأمازون يرفضون الحياة بالموت، وكان موتهم إهانة لجنة الإنسان على الأرض: أمريكا!

فما العمل؟

هذه هى البداية. لم يجلس العلماء يتبادلون اللطم على الخدود. ولا يستعيرون المزيد من المناديل لتجفيف دموعهم.. ولا أداروا ظهورهم للحاضر واستنكروه. ولا هم حاولوا أن يجعلوا ماضيهم هو مستقبلهم. فيظل البكاء والندم والعار هى الخيوط التى نسجوا منها «أوراق التوت» ليستروا عورتهم التاريخية - كما فعلنا نحن ولا نزال بعد نكسة يونيو سنة ١٩٦٧..

واكتشف العلماء ظاهرة أخطر بدأت فى الخمسينيات من هذا القرن: وهى أن الإبداع قد حمل عصاه ورحل واستقر فى طوكيو. فاليابان هى سيدة الإبداع فى العالم كله.. أما الطوب الذى يتلقاه الشعب اليابانى من لندن وباريس وبون.. فعلى كل طوبة مكتوبة هذه العبارة «أنتم لصوص»!

أى أن اليابان لم تخترع شيئاً، وإنما هى تقتبس وتطور بأسعار زهيدة.. وتصدر سلعها إلى الدول التى سبقت واخترعت، فتزاحم المنتجات الأوربية والأمريكية وتخرب بيوتها وتقفل مصانعها!

فمن الطوب والحجارة التى ألقيت على الشعب اليابانى، أقاموا صروحاً للاختراع والإبداع!

فالمطلوب من الأمريكان: لا أن يعملوا فهم يعملون ولا أن ينتجوا فهم بلاد الوفرة والرخاء.. ولكن أن يبدعوا - أى أن يكون لهم إنتاج متفوق إنتاج يشبه «مصدات الرياح» أو «حائط كسر الأمواج» - لوقف الطوفان والأعاصير اليابانية التى ترتاد أمريكا وتجتاحها وتزلزل قصورها وبنوكها وتزعزع مدنها الصناعية.. وأخطر من كل ذلك أنها تجرد العالم الأمريكى والاقتصادى

والسياسى من ثقته بنفسه وشعبه ودولة العقيدة الغربية فى الإبداع والتسويق والمنافسة وفى المستقبل!

فما الحل؟

قبل أن يكون حل لابد من معرفة ما المشكلة؟

من أجل ذلك اجتمع مائتان وخمسون من عظماء التعليم والتربية فى أمريكا.. ووصفوا تقريرهم البديع البسيط وعنوانه: أمة فى خطر!

أين يبدأ الخطر: فى البيت والمدرسة.

أما البيت الأمريكى فليس هو المثل الأعلى للمكان الذى يتلقى فيه الطفل مبادئ الحياة الاجتماعية والاستقلال الفكرى والتذوق الفنى والالتزام والانضباط ـ فالأبوان غائبان. يعملان وفى اللحظات السعيدة يتناقشان فى عدد الأطفال التى يحتاجانها فى المستقبل. وتجىء الأطفال لتكون فى حماية ورعاية الخادمات.. فالخادمة هى أم المجتمع الأمريكى. فكأن المرأة الأمريكية وزوجها قد تعلما وتثقفا لا من أجل الأسرة، ولكن من أجل المطاعم والأندية الرياضية.. ويتولى صناعة المستقبل أقل الناس علماً وثقافة وتربية: الخادمات!

صفة أخرى للمواطن الأمريكى: إنه طفل يتيم ـ لم يمت أبواه، ولكن كأنهما: ليس الطفل الأمريكى لقيطاً، ولكن كأنه!

والمطلوب من الطفل الأمريكى الذى عاش محروماً من البيت ومن الأبوين ومن البذور العميقة فى جسمه ونفسه، أن يكون داعية للدفء والمحبة والاخلاص والتفوق.

إذن لابد من إصلاح الأسرة الأمريكية. وقبل إصلاح الأسرة الأمريكية، من الضرورة إصلاح المدرسة التى تعوض الطفل عن فقدان البيت وغياب الأبوين وانعدام الروابط، ولابد من تعميق الشعور بالتسامح - فالطفل الذى يتربى فى أحضان الخادمات الملونات لن يشعر بالأمان لها.. بل سيكره البديلات عن الأم. هنا وفى هذه اللحظة تتولد: التفرقة العنصرية.. التفرقة اللونية.. والمذهبية.. والدينية.. ويتردى إلى التعصب الذى هو ضيق الأفق والاختناق فى النفس - أن يختنق قلبك وعقلك.. وأن ينحشر جسمك فى القيم الأخلاقية والاجتماعية.. هذه القيم تشبه المصاعد التى تتكدس فيها الناس.. ولذلك يكرهون الصعود بها.. ويكرهون الصعود أيضاً!

مثلاً: لاحظ العلماء أن الطالب الأمريكى يقضى معظم وقته فى الكافتيريا. وفى الكافتيريا يأكل السندوتش.. وهو هارب من الدروس ومن المحاضرات إلى ملاعب الكرة!

فما معنى هذه العبارة: معناها أنه لا يحب الدروس لا يحب مادتها ولا يحب أسلوب الدرس ولا المدرس.. ويفضل الكافتيريا حيث يلتقى الشبان يضحكون ويتاجرون بلا ذوق ولا أدب وحيث لا يفكرون.. وإنما هم قد انسحبوا من العلم ومن الانضباط ومن الالتزام ومن أداء واجب الخدمة العلمية لبلدهم.. وفى الكافتيريا حيث العلاقات عارضة.. سطحية.. وحيث المخدرات والحشيش وأهم ما فى الكافتيريا هو السندوتش: قليل من اللحم المصنوع من الفول والموستردة وهذا السندوتش هو وجبة الطعام الحديثة.

فما خطورة السندوتش؟

إنه أخطر ما يتعاطاه الأمريكان. وأخطر الأطعمة أثراً على عقول الشباب وسلوكهم. فهو أسهل وهم يتناولونه أسرع.. واقفين وجالسين على الأرض وفى السيارة وفى الماء.. فهم ليسوا فى حاجة إلى أن يغسلوا أيديهم.. ولا أن يجلسوا إلى مائدة، ولا ملعقة وشوكة وطبق.. أى إلى علاقات أسرية.. أو جماعية.. ودون مراعاة للذوق والإحساس بالجمال.. ولا الإحساس بالطعام ولا تذوقه.. وإنما هم يخطفون السندوتش، يخطفون الطعام، ولأنهم اعتادوا على خطف الطعام، والأكل بأى شكل وفى أى وقت، فهم يخطفون المعلومات أيضاً: نظرة إلى كل الصحف، ولحظة مع الإذاعة.. ومعلوماتهم كلها مثل السندوتش: قليلة سهلة خاطفة مخطوفة، ولذلك فهم لا يعرفون معنى الأكل المتأنى والمضغ البطىء والهضم الصحيح.. لا يعرفون الارتباط بالآخرين عند الأكل والشرب والحديث معاً..

فالثقافة الأمريكية هى ثقافة الهامبورجر!

أين هذا مما يفعله اليابانيون: إنك تنظر إلى الطفل اليابانى وهو يأكل يخيل إليك أنه عصفور «ينقر» الطعام.. ينقله فتافيت إلى فمه.. ويخيل إليك أنه ليس عنده أى شىء يعمله إلا أن يأكل.. ثم تجده ينهض وينحنى يشكر والديه على هذا الطعام الشهى.. مع أن الطعام ليس أكثر من شرائح اللحم المسلوقة فى البصل.. فعنده وقت ليأكل ويمضغ ويتذوق ويشكر ويستأنف الطعام.. والذى يفعله أثناء الطعام ومع الطعام وبعد الطعام وقبله، يفعله أيضاً فى القراءة والدراسة والبحث والاختراع!

وقبل كل ذلك يجب النظر إلى المدرس الأمريكى، إنه اتعس الجميع، ولم يكن أحد يعرف ذلك. فبعض المدرسين غير مؤهلين. والمؤهلون مرتباتهم ضئيلة. والأساتذة الكبار ليست عندهم أموال لمواصلة البحث. فقبل إصلاح التلميذ، يجب إصلاح حال المدرس الذى سوف يتولى إصلاح حال الطالب والدروس، والذى سوف يجعل التلميذ والطالب والباحث، يحب ما يعمل. ويحب بلاده. وتفوق بلاده.

فأنت لا تطلب من القاضى أن يكون عادلاً وهو مظلوم، ولا من رجل الشرطة أن يكون ساهراً وهو مغبون، ولا من الطبيب أن يكون نظيفاً، وأنت تعطيه أدوات مسمومة.. فالبداية هى المدرس، وبرامج التعليم. والأسلوب الجذاب الذى تتخذه الكتب، والأجهزة المتقدمة التى يستعملها العلماء.. والدولة الأمريكية التى لا تتردد لحظة واحدة فى رصد ألوف الملايين لأبحاث الفضاء، لابد أن تنفق مثل هذه الألوف على مصانع تفريخ العلماء، المدارس والمعاهد والجامعات والمعامل الملحقة بالهيئات والمصانع.

ومن أهم ما اكتشفه العلماء فى التعليم والتربية أن المواطن الأمريكى ضيق الأفق.. وسبب هذا الضيق أحساسه بالعظمة - عظمة بلاده وعظمته هو، بما يجعله ليستعلى ويستغنى عن الشعوب الأخرى. ويكتفى بأخبار بلاده. ويكتفى بلغته هو فلا يعرف غير الإنجليزية، وغير الأدب الأمريكى والفن الأمريكى، غلط! لابد أن ينفتح دماغه فيسع لكل ما ليس أمريكياً أيضاً، أى لما هو أوربى وإفريقى وآسيوى.. للقديم والجديد.. للعلوم

والأساطير.. ويجب على الأمريكان ألا يستسلموا إلى ذلك الشعور القديم بأنهم هاربون من أوربا ولاجئون إلى أمريكا فهم يختبئون لا يريدون أن يعثر عليهم أحد!

ويجب أيضاً ألا يتوهموا أن أمريكا مهمتها أن تذهب إلى أوربا لإنقاذها من ويلات الحرب.. إن أمريكا تدافع عن مصالحها أيضاً.. فهى لا تفعل ذلك للّه، وإنما للدولارات والاستقرار والسيطرة العالمية.. وفى مواجهة وضد وخوفاً وصداً ورداً للشيوعية!

ولست فى حاجة إلى أن أقول لك ما تعرفه عن حالنا. كلنا يعرف. وكلنا يقرف وكلنا لسان واحد يقول: وبعدين؟!

نحن الآن «بعدين» ـ بعد نكسة يونيو وبعد العنف الدينى ـ أو العنف الاجتماعى الذى ارتدى الجلباب واللحية وأشهر كتاب اللّه فى وجه من يقول له: لا.. فيرد عليه بسرعة: لا إله إلا اللّه.

آمنت باللّه وكتبه ورسله، وأحب مصر وشعبها ومستقبلها ودورها التاريخى. وبعدين؟

سلبيون نحن؟ نعم.

لا مبالون؟ نعم.

يأساً من الحل ومن القادرين على الحل؟ نعم.

تعددت الكتب فى أيدينا، والأبطال فى عيوننا، وتبدلت قواعد اللعبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ نعم.. دون أخطار سابق؟ نعم.. أليس هذا يذكرنا بما يحدث فى أواسط إفريقيا عندما يغير الإنسان اسمه ولقبه كل يوم.. فالذى كان يسمى نفسه

بالأمس: حبة.. أصبح يسمى نفسه اليوم: قبة.. فإذا ناديته: يا حبة.. يا حبة.. فإنه لا يرد. لماذا لأنه غير اسمه دون أن يخطر بذلك!

فهو إذن قد أصبح إنساناً آخر - وعليك أن تناديه بكل ما فى القاموس من كلمات حتى تكتشف اسمه الجديد فيرد. ولكن هذا الاكتشاف قصير العمر، لأنه سوف يصبح باطلاً غداً !

والسبب: تغيير الأسماء، وتبديل القبلة ورفع اللافتات من الشوارع السياسية والاقتصادية والاجتماعية يوماً بعد يوم.. حتى أصبحت الشوارع مسدودة.. وأصبحت المدينة المعروفة مجهولة من أبنائها..

وكذلك من هو مؤمن توضأ ويريد أن يصلى ولكنه لا يعرف القبلة. لقد تغيرت.. هذه هى الحيرة وهذه هى الدوخة.. فنحن ندور حول أنفسنا، ثم لا ندور بعد ذلك لأننا فقدنا أنفسنا!

بعض الذين زارونا من الأجانب ورأونا أوضح، لهم رأى، مثلاً كان الأديب الفرنسى كوكتو فى مصر عاد إلى بلاده وكتب يقول: إنها ثلاث كلمات تتحكم فى العلاقات الإنسانية فى مصر: مفيش.. بقشيش.. معلش..

ويبدو أن هذا الاكتشاف قد أعجبه فأضاف كلمة رابعة: حشيش!

وليس كوكتو بالرجل - ليس رجلاً - سليم الذوق والحس الذى نأخذ برأيه ولكنه رأى لا يخلو من الصدق.

مفيش: معناها ما فى شىء.. وهى كلمة للدلالة: على أنه لا يوجد شىء.. ولا يوجد قانون.. وأن المجتمع المصرى والروح خالية خاوية.. وأنه لا توجد أية وعود أو أمل فى ملئها..

ومعلش ومعناها: ما عليه شيء.. أي لا خطأ.. ولا داعي لمحاسبة أحد عن شيء.. والذي يخطئ: ما عليه شيء.. والذي يقتل ما عليه شيء.. والذي يظلم والذي يبطش والذي يقتل.. فما معنى القانون؟ ما معنى العقاب والثواب ما معنى التربية والردع ـ لا معنى!

والبقشيش: كلمة فارسية أو تركية ومعناه تعرفه. وهو ما يطلبه من قدم لك خدمة، قبل أن ينجز الخدمة وبعد أن قدمها.. وهي المكافأة والحافز والرشوة.. ولا أظن أننا ننفرد بهذه الظاهرة.. والذين سافروا إلى فرنسا بالذات يجدون ما هو أبشع من ذلك!

والحشيش لم يعد ظاهرة مصرية ولكن عالمية أيضاً !

تواكلية؟ ربما كان هذا هو المعنى !!

والذين سافروا إلى أوربا وأمريكا وعادوا تبهرهم الشوارع وعلاماتها وإشاراتها، وأكثر من كل ذلك: احترام الناس للقانون ليلاً ونهاراً ـ وقت غياب رجل المرور والأمن!

سمعت الممثل الكوميدي أمين الهنيدي، يرحمه الله، أنه كان في الخرطوم. في سيارته بعد منتصف الليل. فوجد السودانيين يقفون عند إشارات المرور رغم أنه لا يوجد مرور ولا رجال مرور.. أما الذين كسروا الإشارة وداسوا على العلامات البيضاء فهم المصريون!

أذكر أنني كنت في أوسلو عاصمة النرويج في سيارة يملكها مصري سويدي.. ووقفت السيارة على العلامات البيضاء

المخصصة للمشاة.. وإذا بأحد أبناء النرويج يصرخ قائلاً: هنا النرويج وليس السويد يا جاهل!

فأهل النرويج يرون أهل السويد أقل احتراماً للقانون - آه لو عرف أن صاحب السيارة مصرى!

ما الحل؟

لا حل إلا الذى اختارته أمريكا وفرنسا وألمانيا.. واليابان أيضاً! وهو التعليم والمعلم والبرامج والفلوس.. فالذى سوف يزرع ويتعلم ويبنى ويرصف ويضىء ويطير ويتفوق هو: «المواطن.. ولن يحدث ذلك إلا إذا تعلم لكى يتفوق»..

وإذا كان البيت غير قادر على إصلاح المدرسة، فالمدرسة تستطيع أن تصلح البيت.. ولكن إذا بدأنا بالاثنين معاً، فهذا هو المثل الأعلى.

متى؟

الآن.

ومن الذى يبدأ؟

كل الناس فى كل مكان. وفى كل وقت. ولا أحد يتفرج على أحد. ولا أحد يغنى ويرقص والشعب يتضور جوعاً إلى العلم والمعرفة والحياة.

هل نحن فى حاجة إلى أن نعمق الشعور بالقلق عند الناس؟ لا داعى. فعندنا ما يكفينا وما نصدره إلى الخارج أيضاً.

هل نحن فى حاجة إلى تعميق الشعور بالخطر؟ لدينا هذا

الشعور. ولدينا ما هو أخطر من ذلك: عدم الإحساس بالخطر. والبلادة التى هى توأم اللامبالاة بنت السطحية أم الانتهازية!

أستاذنا العظيم طه حسين له حكاية.. كان على ظهر الباخرة عندما سمع ان «مصر مريضة» وتشكك فى الخبر. ولكنه تأكد أن الكوليرا تجتاح مصر. وقد أطرق طه حسين ليعرف بالضبط ما الذى يشعر به: إنه الحزن والخزى.. الحزن على ما أصاب مصر وأهل مصر، وأصاب الذين كافحوا من أجل سعادتها واستقرارها والخزى لأنه كان يتصور أن مصر قد تحضرت، وأنه من المستحيل أن يصيبها مرض يزيد على الجهل.. والخزى من مظاهر الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن - ولكن كل ذلك قد انهار.

ولما عاد إلى مصر وجد أن الناس لهم ألسنة طويلة وعقول قصيرة وقلوب حجارة. وأن هناك أناساً لم يغيروا حياتهم وملذاتهم مشاركة للمرضى والفقراء فى تعاستهم الوبائية. يقول طه حسين:

ولم أملك إلا أن أردد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

ويقول طه حسين: وعلى الناس إما أن يمضوا فى حياتهم السعيدة اللذيذة، لا يعبئون بما أصاب مصر، لهذه هى الكارثة الساحقة الماحقة، وإما أن يتضافروا من أجل حياة جديدة.

ولكن يعصم طه حسين من اليأس قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

والذى أحزن طه حسين على مصر هو أنها أصيبت بالكوليرا - فقط وباء الكوليرا.. وهذه الكوليرا فلقت الشعب نصفين: أناس كانوا لم يسمعوا عن الكوليرا: سعداء فى حياتهم، وأناس سحقتهم الكوليرا..

ولكن الذى أصاب مصر على أيامنا، ما هو أكثر من الكوليرا أو أسوأ.. فى أجسام الناس وفى نفوسهم وفى عقولهم وفى علاقاتهم الإنسانية والسماوية.. بل أصابنا ما لا يعرف طه حسين نوع من «الإيدز» أى انهيار أجهزة المناعة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية ولكن ليس هو «الإيدز» فنحن نعرف العلاج والعلاج فى أيدينا وممكن.. فكما أن عندنا ملايين الأفدنة البور، فكذلك ملايين المواطنين.. وكما أننا طورنا الزراعة رأسياً، فكذلك التعليم والتربية..

وكما أن فى التوراة آية تقول: فى البدء كانت الكلمة..

وفى القرآن: اقرأ..

فهى البداية الحقة لكل ثورة ولكل خلق جديد: كلمة اقرأ يقولها مدرس ليس مظلوماً ولا مغبوناً، لتلميذ يحبه ويحترمه ويضحى من أجل العلم والعمل والإنتاج ثم الإبداع..

إن الأمر جاد وخطير وهو يبعث على «الحزن والخزى» إن وقفنا نتفرج على أنفسنا ولكن لا يدعو إلى اليأس - اقرأ المقال من أوله أرجوك!

# الديك الفصيح
# فى البيضة يصيح أو لا يصيح

انظر إلى الحقول تجد أعواد القمح ليست في طول واحد ولا فى اخضرار من نفس الدرجة.. وإنما تجد عوداً أطول من الجميع.. أو تجد واحداً أكثر اخضراراً من كل إخوته..

أذكر أننى اضطررت إلى أن أبيت فى إحدى الغابات فوق جبل بالقرب من مدينة انسبروك فى النمسا.. وعندما طلع النهار وجدت الأشجار التى على حافة نهر السالزاخ ملتوية. وأدهشنى هذا الالتواء وحاولت أن أفهم.. ورأيت نفس المنظر عندما كنت فى مدينة ترافند رووم فى ولاية كيرالا فى جنوب الهند. وعرفت أن سبب الالتواء أن هذه الأشجار تحاول أن تنمو تحت ضغط المطر والرطوبة وأن تتجه بكل عصارتها إلى أعلى.. إلى الشمس.. ولكن تعترضها أشجار أخرى، فتلتوى أغصانها، فتعترضها أشجار أقوى فتلتوى مرة ثانية، وتظل تحاول وتلتوى وتدور لكى تحصل على نصيبها من أشعة الشمس.. بينما أشجار لم يعترضها شيء، فنمت واستقامت وطالت وارتفعت أسرع من غيرها..

ولكن أعواد القمح لا يعترضها شيء. ومع ذلك لا تستقيم ولا تعتدل ولا تنمو إلا ببطء شديد.. لماذا؟

وكذلك أطفال الحيوان والإنسان. لماذا؟ لا نعرف بوضوح.

ولكن الذى نعرفه بوضوح وعن يقين. أن كل كائن حى، وغير حى، هو كائن «مبرمج» .. فالله قد أودع برنامجاً لكل الكائنات وللكون كله. ونحن لا نعرف هذا البرنامج.. فكل شىء فى هذا الكون مكتوب عليه: تاريخ الصنع وتاريخ الصلاحية ورقم التشغيل، وكل شىء له عمر حقيقى وعمر افتراضى. له بداية ووسط ونهاية. وهناك كائنات تنمو بسرعة وغيرها ببطء.. وهناك نباتات وكائنات تزهو وتنضج بسرعة، وغيرها ببطء.. وهناك أطفال يولدون عباقرة، ثم يموتون عاديين، وهناك أناس يولدون كائنات عادية، وفجأة تنفجر العبقرية.. فى سن صغيرة.. ونحن لا نعرف البرنامج السرى الذى أودعه الله هذه الكائنات.. والتاريخ ملىء بالأمثلة!

وعندنا مثل يقول: الديك الفصيح فى البيضة يصيح..

أى أن الديك الفصيح، تظهر عليه الفصاحة وهو لا يزال فى البيضة أو بعد الخروج منها بقليل.. أى إذا كان هناك نبوغ عند أى إنسان، فلابد من أن يظهر فى سن مبكرة. ولكن ليس ذلك صحيحاً دائماً..

فالمسيح عليه السلام تكلم فى المهد صبياً..

والرسول عليه السلام بدأت رسالته وهو فى الأربعينيات.

ونوح بنى السفينة التى سينجو بها وعمره ٦٠٠ سنة.

والشيعة يعتقدون اليوم أن الإمام الغائب، وعمره الآن ١١٥٠ سنة، سوف يظل على قيد الحياة.. مئات الألوف، أو ربما ملايين السنين، حتى يملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً..

والطيور لها طفولة قصيرة.. فلا يكاد الصغير يخرج من البيضة حتى يبدأ حياته العادية بعد ساعات «وكأنه تدرب عليها فى البيضة.. والحيوانات تبدأ حياتها بعد أيام أو بعد أسابيع»..

بينما الإنسان صاحب أطول طفولة بين الحيوانات.. لا تكفيه سنة ولا عشر سنوات.. بل يظل يستعد لأن يكون عضواً قادراً على المساهمة فى الحياة عشرين أو ثلاثين عاماً. فالذى يحتاج إليه الإنسان أكثر بكثير جداً من غرائزه. والغريزة هى برنامج عمل توارثه الإنسان مئات ألوف السنين. والغريزة هى برنامج مغروس فى أعماق الإنسان: الأكل والشرب والخوف وحب الحياة وحب المعرفة...... إلخ.

ولكن الإنسان الطفل يحتاج إلى سنوات طويلة من التجارب - تجارب العقل لكى يعرف ويفهم ويحلل ويختار..

وبعض الأطفال يجتازون هذه السنوات بسرعة بل يتجاوزونها إلى ما هو أعظم وأروع.. إلى الإبداع العبقرى..

ولكنا لا نعرف كيف يظهر هذا الطفل العبقرى؟ ولا حتى ما هى هذه العبقرية.. ولا علاقتها بالظروف الاجتماعية أو المادية أو السياسية.. أو لماذا يكون طفل عبقرياً فى ظروف لا تسمح بذلك، فلا أبوه ولا أمه..

والشاعر القديم يقول:

فموسى الذى رباه فرعون مرسل..

وموسى الذى رباه جبريل كافر؟

إذن ليس صحيحاً أن الديك الفصيح فى البيضة يصيح، بل هناك ديوك فصيحة جداً تصيح بعد ذلك بعشرات السنين.. بل إن ديوكاً عظيمة الشأن لا تصيح ولكن نفاجأ بأنها فى قمة العبقرية دون أن ندرى أو يتوقع لها ذلك..

ففى السادسة: كان الفيلسوف الفرنسى مونتنى يقرأ ويكتب باللغة اللاتينية..

وكذلك الفيلسوف الفرنسى مونتسكيو والموسيقار الفريد ـ فى نوعه ـ موتسارت كان يجول بين العواصم الأوروبية مع أخته يقيمان الحفلات الموسيقية.

وفى السابعة: كان الموسيقار شومان قد نشر أول أعماله الموسيقية ثم دخل بعد ذلك الكونسرفتوار وهو فى الحادية عشرة..

وفى الثامنة: هرب الأديب الروسى جوركى من المدرسة وقرر أن يعمل بيديه. ولم يصدر عمله الأدبى العظيم «الحضيض» إلا بعد ذلك بثلاثين عاماً.

وفى التاسعة: قام الفتى جنكيزخان يجمع شتات القبائل بعد أن مات أبوه مسموماً وظل يستعد حتى بلغ الأربعين من عمره. وظل ينظم قواته حتى استولى على العاصمة بكين وهو فى الخمسين من عمره.

وكذلك الرسام الفرنسى تيسيان عرض لوحاته الرائعة. وأدرك الناس أن موهبة عظيمة قد ولدت.

والموسيقار باخ مات أبوه ومن بعده ماتت أمه. فبدأ يدرس. صحيح أنه موهبة عظيمة ولكنه ليس عبقرية. ثم ترك المدرسة

فى سن ١٧ سنة وعمل عازفاً للناى فى سن ١٨.. وعرف الناس الموهبة الصاعدة..

وأصيب أديب فرنسا مارسل بروست بأول أزمة ريو وانفصل عن الحياة. واعتقد الناس أنه يتهيأ للموت، تماماً كالحيوانات إذا مرضت انعزلت.. والحقيقة أنه كان يتهيأ للإبداع..

ومارلين مونرو دخلت أحد الملاجئ سنة ١٩٣٥ بعد أن ألحقوا أمها بمستشفى الأمراض العقلية.. وقالت مارلين: سأكون أعظم من كل النساء. ولا أعرف كيف!!!.

والمطربة الإنجليزية جولى أندروز اكتشفت أسرتها فى سنة ١٩٤٤ أثناء الغارات الجوية أن لها صوتاً رائعاً..

وفى العاشرة: نشر جان بياجيه أحد عظماء علم النفس أول دراسة نفسية له سنة ١٩٠٦ عن عصفور له ساق مكسورة. وحصل على الدكتوراه مع التفوق وهو فى التاسعة من عمره!

وفى سن الحادية عشرة: بدأ والد الموسيقار العظيم بيتهوفن يدربه على العزف والتأليف. أراد أن يجعل منه موتسارت آخر. ولكن المسافة بين الاثنين هائلة. فموتسارت عبقرى بكل معانى هذه الكلمة. ولكن بيتهوفن موهوب. ولم تنفجر عبقريته إلا فى الثلاثين من عمره.

والموسيقار «ليست» أقام أول حفلة موسيقية فى فيينا سنة١٨٢٢.

تحطمت أسرة الأديب الإنجليزى تشارلز دكنز: أبوه دخل السجن وكان لابد أن يعمل فترك المدرسة. أما عمله فهو لصق

العلامات على الزجاجات فى أحد مصانع الورنيش. وبدأت موهبته الأدبية تتفجر فى يديه..

وأديبة الرعب الإنجليزية «أجاثا كريستى»، كان أبوها يلعب القمار فأضاع أموال الأسرة، فكان عليها أن تعمل شيئاً وبدأت تحكى للأطفال الصغار قصصاً مرعبة من صنعها.. وبدأت تكتب.

وفى الثالثة عشرة: ذهب الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يعمل فى صناعة التماثيل سنة ١٧٢٥. وكان شعوره بضرورة الكتابة مفاجأة له.

وفى هذه السن بدأ الفنان العظيم ميكلو نجلو يتدرب على الرسم سنة ١٤٨٨.

وكذلك الرسام رينوار سنة ١٨٥٤.. والرسام تولور لوتريك سنة ١٨٧٨.

أما أديب لبنان خليل جبران فبدأ كتابة «النبى» ولم يكمله إلا فى الأربعين من عمره ـ ١٩٢٣.

وفى الخامسة عشرة: كان الأديب الإنجليزى الساخر برنارد شو يعمل فى مصلحة الأراضى.. وكان فاشلاً فى الدراسة. ويكره الكتب المدرسية والمدرسين والألعاب الرياضية والمدارس. وبدأ يسخر من الجميع..

وفى السادسة عشرة: أصبح العالم الرياضى باسكال شهيراً وصار عالمياً فى العشرين. وهو الأب الحقيقى لكل الآلات الحاسبة وأول من قدم نظرية الاحتمالات فى الرياضة والفيزياء والفلسفة..

وفى هذه السن.. بدأ عبقرى الرسم والنحت والموسيقى والشعر واختراع عشرات من الأجهزة: دافنشي، تدرب عند أحد الرسامين. وكان يقول عن نفسه: إننى ابن غير شرعى. ولكن سوف يكون الفنانون فى الألف سنة القادمة أبنائى الشرعيين!

صحيح كل إنسان يختار أن يكون ناجحاً أو فاشلاً. كل ذلك فى يديك، رغم الظروف، أو بسبب الظروف.

ولكن ليس فى يدك، أن تكون موهوباً.. ولا فى يدك ولا الظروف ولا كل قوى الكون أن تصير عبقرياً..

فالنجاح من صنعك، والعبقرية من صنع اللّه..

ومن الصعب أن تكون ناجحاً بلا تعب.. ومن الصعب أن تكون موهوباً بلا صعوبة فى حياتك وظروفك.. وكل صاحب موهبة فيه قسوة.. هو يقسو على نفسه لكى يواصل النجاح.. والظروف فيها قوة عليه، لأنه يريد أن يكون عادياً.. أن يكون مثل الناس.. ألا يتقدمهم بخطوة، وألا يعلو عليهم بشبر، وألا يلمع أكثر منهم بشمعة.. ولذلك اخترع الإنسان القانون، ليتساوى أمامه الناس.. وصنع السقف ليكون أعلى من كل الناس، ونهاية لرؤوسهم أيضاً.

ثم تولدت التقاليد.. أى أسوار وسلاسل وحدود، حتى لا يخرج أحد عن أحد.. ولكن العبقرية تخرم السقف، وتزيل الحدود، وتزيح السدود. ويقاومها الناس. ويرفضونها ويكفرونها لأنها خرجت عليهم وعنهم.. وقد اتهموا موتسارت بأن «عليه» عفريتاً.. حبسوه فى غرفة ليؤلف أمام أعينهم ثم اقتحموا الباب ليروا بأنفسهم العفاريت وهى تملى عليه موسيقاه العظيمة.. ولم يجدوا

العفاريت.. وإنما وجدوا العبقرية الفذة تبكى من الخوف.. فهو لايزال طفلاً، ولكن له رأس مليون رجل!..

وكل الأطفال على درجة عالية من الذكاء.. ثم يخفت هذا الذكاء.. أو يتوارى كما تتوارى المياه الجوفية، لتظهر بعد ذلك على شكل آبار أو أنهار.. وقد تتوارى المياه الجوفية ألوف الأميال أو عشرات السنين، ثم تنفجر. لماذا؟ إن برنامج هذه العبقرية ليس عندنا.. إنه هناك.. ولا نعرف ماذا يتضمن ولا متى يظهر ولا متى يبدأ ولا كيف ينتهى.. ولكنه هناك..

كان العالم العظيم دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٧٢) تلميذاً بليداً. لا أمل فيه. دخل الجامعات وخرج منها. أبوه قال: بصراحة يا ابنى أنت حمار. لا يهمك أى شىء. ولذلك لن تكون شيئاً فى المستقبل. فكل ما يهمك أن تطارد الأرانب والفئران!

وسافر على ظهر باخرة. وأصبحت هذه الرحلة تاريخية. فقد وضع دارون قواعد تطور الكائنات كلها.. وكانت دراساته ثورة فى تاريخ الحيوان والإنسان..

والمخترع العظيم أديسون (١٨٤٧–١٩٣١) كان يبيع الصحف فى القطارات. عنده حب للاستطلاع. ولم يلفت نظر أحد. طردوه من المدرسة لفشله. قال له ناظر المدرسة: هات والدك فقد يئسنا منك! هذا التلميذ قدم لنا ألف اختراع. فى مقدمتها: المصباح الكهربى والفونوغراف الذى هو أبو البيك ـ أب والريكوردر وهو أبو الراديو والتليفزيون أيضاً.

وعالم الفيزياء العظيم أينشتين (١٨٧٩–١٩٥٥) كان تلميذاً

بليداً.. ولم يعرف كيف ينطق إلا فى التاسعة من عمره. نظرا إليه والداه على أن لديه تخلفاً عقلياً. وكان فاشلاً فى جميع مراحل التعليم. وفى كل المواد إلا الرياضيات ـ ثم تفجرت عبقريته فجأة فوضع الكون فى نظرية واحدة. وفى سطر واحد عرفنا قواعد انفجار القنبلة الذرية. السطر هو: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء!

وهنرى فورد (١٨٦٣–١٩٤٧) مخترع السيارة الأمريكية لا يحب القراءة والكتابة. ولكن يهتم فقط بفك الأجهزة وتركيبها. وكان يصلح أدوات الحقل التى يستخدمها أبوه.. وفى سن متأخرة اخترع السيارة.

والشاعر الألمانى هينى (١٧٩٧–١٨٥٦) لم يكن يحسن النطق بل كان يتهته مثل: البحترى وأحمد شوقى وإبراهيم ناجى وتوفيق الحكيم. وكان أبوه يقول له: ما لم تعرف كيف تنطق.. أو تنهق كأى حمار، فلا مستقبل لك.. ولكنه كان من أروع شعراء اللغة الألمانية. وتفجرت موهبته فى الأربعين!

أما أعظم العقول التى خلقها اللّٰه حتى اليوم فهو نيوتن (١٦٤٢–١٧٢٧) فلم يكن طفلاً لامعاً ولا شاباً ذكياً.. قرر أبوه أن يدخله المدرسة بعد أن فشل تماماً فى إدارة المزرعة وكان مشاكساً تعرض لأحد الشبان فضربه علقة. فعكف نيوتن على ضربه دون أن يراه. فراح يفكر.. فاخترع أسلحة عديدة. وعن طريق التفكير فى الانتقام اكتشف النجوم والأفلاك والشمس والقمر والجاذبية. وجاءت نظرياته فى الرياضيات والفيزياء ثورة كبرى.. فانقلبت كل قوانين العلوم حتى يومنا هذا.

والفنان الفرنسى بيكاسو (١٨٨١-١٩٧٣) دخل المدرسة متأخراً جداً.. طردوه من كل المدارس لأنه يرسم على الجدران. أخرجه أبوه من المدرسة فى سن العاشرة. وأتى له بمدرسين ليعلموه فى البيت. فشلوا جميعاً. غضب أحد المدرسين لأن بيكاسو رسم لوحة لفتاة عارية على ظهر جاكته. ولما دخل مدرسة الفنون هرب منها. فقد كره المدرسين.. ثم تسلل إلى باريس. وكافح طويلاً قبل أن يلفت الدنيا إليه.. والمخترع الإنجليزى جيمس وات (١٧٣٦-١٨١٩) كان مصاباً بصداع نصفى مدى الحياة. خرج من المدرسة لأنه غير قادر على سماع صوت المدرس.. وغير قادر على سماع ضوضاء التلامذة.. ولكن كان لديه استعداد عميق لدراسة الهندسة. درسها فى البيت. انطلق خياله. قام بتطوير الآلة البخارية. وطلع بها على الدنيا.. فكانت هذه هى البداية الحقيقية للثورة الصناعية فى التاريخ!

إحدى الأساطير الألمانية تقول إن هناك كهفاً اسمه: العبقرية.. ومن حق كل إنسان أن يفكر فى الذهاب إليه وفى دخوله. بشرط أن يدفع الثمن. وكل واحد يدفع ثمناً مختلفاً. لماذا؟ لا يحق لإنسان أن يسأل. لأن أحداً لا يعرف من الذى وضع قائمة أسعار العبقرية. ولكن عندما يدخل الإنسان، يجد أنه دون أن يشعر قد دفع الثمن، ذراعه اليمنى وهو رسام، عينه أو أذنه أو أنفه.. أو صحته.. أو نومه.. أو سعادته.. أو نصف عمره أو أكثر من النصف. هذا هو الشرط. فالعبقرية لها ثمن، يدفعه العبقرى ويدفعه الناس من حوله أيضاً. وقد صور أديب الأطفال أندرسون هذا المعنى فى قصة كتبها وهو فى الثالثة والسبعين من عمره.

القصة اسمها: الصحوة.. وموضوعها أن رساماً كبيراً في السن قد التقى بالفتاة الجميلة التى كان قد اتخذها نموذجاً للوحاته الفنية.. وعندما التقى بها في شيخوخته، اكتشف كم هي جميلة، وكيف أنه انشغل عنها تماماً. وكان في استطاعته أن يحبها. ولكنه خاف أن يؤدى هذا الحب إلى القضاء على فنه.. فلا شيء يقتل الحب إلا الواقع، ولا شيء يقتل جذوة الشوق إلا الجنس. فقرر أن يظل مشتعلاً يتوهج في لوحاته الفنية، على أن يطفىء كل هذه المعانى الجميلة في أحضانها.

لقد أحب فنه أكثر..

ولكن قرر الاثنان أن يحاولا من جديد. وأن يصعدا الجبل، وأن يعيشا معاً في إحدى القلاع فوق الجبل، حيث تشرق الشمس بينما كانت زوجته في أحضان عشيق لها تتأوه وتصرخ من اللذة.. فقد اكتشفت في سن مبكرة أن الحياة مع العبقرى هي التعاسة المؤكدة، فلم تضع وقتها!

ويتساءل أندرسون في نهاية القصة: كم عدد الناس الذين ضاعوا وأضاعوا الحياة، بسبب إخلاصهم؟

كثيرون جداً. وهم على استعداد دائم لأن يفعلوا ذلك.. فالعباقرة لا سلطان لهم على أنفسهم.. لم يخلقوا أنفسهم ولا الظروف، ولكنهم يعيشون ويبدعون ويموتون. تبعاً لبرنامج لا نعرفه قد أودعه اللّه في خلية من خلاياهم..

فما الذى نفعله نحن؟

فقط نفتح الأبواب والنوافذ ليدخل الهواء وأشعة الشمس..

لا أكثر ولا أقل.. وننتظر العقول الإلكترونية فى كل إنسان.. أن تنشط وأن نعمل وأن ننفذ ما جاء فى برنامجها حتى تبلغ عمرها الافتراضى والحقيقى..

المهم أن نقوم بحضانة المواهب، وألا ننشغل بصاحبها مبكراً أو متأخراً.. فسوف تصيح على أى حال!

وليس صحيحاً أن الديك الفصيح فى البيضة يصيح.. ولا هو صحيح أنه فى الشيخوخة يصيح.. ولكن من المؤكد أن صاحب الموهبة سوف يصيح.. وأن الله لم يخلقه عبثاً.. وإنما لوقت ولفائدة ولحكمة بليغة!

# الفهـــرس

# مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

## أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

١ - فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ - عاشوا فى حياتي.
٣ - إلا قليلاً.
٤ - طلع البدر علينا.
٥ - البقية فى حياتي.
٦ - نحن أولاد الغجر.
٧ - من نفسي.
٨ - حتى أنت يا أنا.
٩ - أضواء وضوضاء.
١٠- كل شيء نسبي.
١١- لأول مرة.
١٢- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣- الحائط والدموع.
١٤- وجع فى قلب إسرائيل.
١٥- الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
١٦- عبد الناصر - المفترَى عليه والمفترِي علينا.
١٧- فى السياسة (٣ أجزاء).
١٨- الدين والديناميت.
١٩- لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
٢٠- السيدة الأولى.
٢١- التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣- على رقاب العباد.
٢٤- ديانات أخرى.
٢٥- وكانت الصحة هى الثمن.
٢٦- الغرباء.
٢٧- الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨- عزيزى فلان.
٢٩- هى وغيرها.
٣٠- بقايا كل شيء.
٣١- يا من كنت حبيبي.
٣٢- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريدريش ديرنمات:

٣٣- رومولوس العظيم.
٣٤- زيارة السيدة العجوز.
٣٥- زواج السيد مسيسبي.
٣٦- الشهاب.
٣٧- هى وعشاقها.

** للأديب السويسرى ماكس فريش:

٣٨- أمير الأراضى البور.
٣٩- مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسى جان جيرودو:

٤٠- من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:

٤١- بعد السقوط.

** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:

٤٢- فوق الكهف.

** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:

٤٣- الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

٤٤- تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسى أداموف:

٤٥- الباب والشباك.

** للأديب الأسبانى أرابال:

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.
٤٨- من أول نظرة.
٤٩- طريق العذاب.
٥٠- ألوان من الحب.
٥١- شباب.. شباب.
٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.
٥٤- جسمك لا يكذب.
٥٥- الذين هاجروا.
٥٦- غرباء في كل عصر.
٥٧- أظافرها الطويلة.
٥٨- هموم هذا الزمان.
٥٩- زمن الهموم الكبيرة.
٦٠- الحب الذي بيننا.
٦١- عذاب كل يوم.
٦٢- كيمياء الفضيحة.
٦٣- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.
٦٥- الذين عادوا إلى السماء.
٦٦- القوى الخفية.
٦٧- أرواح وأشباح.
٦٨- لعنة الفراعنة.
٦٩- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.
٧١- وداعًا أيها الملل.
٧٢- كرسي على الشمال.
٧٣- ساعات بلا عقارب.
٧٤- مع الآخرين.
٧٥- شيء من الفكر.
٧٦- لو كنت أيوب.
٧٧- يعيش.. يعيش.
٧٨- الوجودية.
٧٩- طريق العذاب.
٨٠- وحدي.. مع الآخرين.
٨١- ما لا تعلمون.
٨٢- لحظات مسروقة.
٨٣- كتاب عن كتب.
٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦- أوراق على شجر.
٨٧- في تلك السنة.
٨٨- دراسات في الأدب الأمريكي.
٨٩- دراسات في الأدب الألماني.
٩٠- دراسات في الأدب الإيطالي.
٩١- فلاسفة وجوديون.
٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم في ٢٠٠ يوم.
٩٤- بلاد الله خلق الله.
٩٥- غريب في بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتي من موسكو.
٩٩- أعجب الرحلات في التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢- من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٣- مدرسة الحب.
١٠٤- حلمك يا شيخ علام.
١٠٥- مين قتل مين.
١٠٦- جمعية كل واشكر.
١٠٧- الأحياء المجاورة.
١٠٨- سلطان زمانه.
١٠٩- العبقري.
١١٠- كلام لك يا جارة.
١١١- فوق الركبة.
١١٢- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٣- يوم بيوم.
١١٤- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥- إلا فاطمة.
١١٦- القلب أبدًا يدق.

(ي) المسلسلات التليفزيونية:

١١٧- حقنة بينج.
١١٨- اتنين.. اتنين.
١١٩- عريس فاطمة.
١٢٠- من الذي لا يحب فاطمة؟
١٢١- غاضبون وغاضبات.
١٢٢- هي وغيرها.
١٢٣- هي وعشاقها.
١٢٤- العبقري.
١٢٥- القلب أبدًا يدق.



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

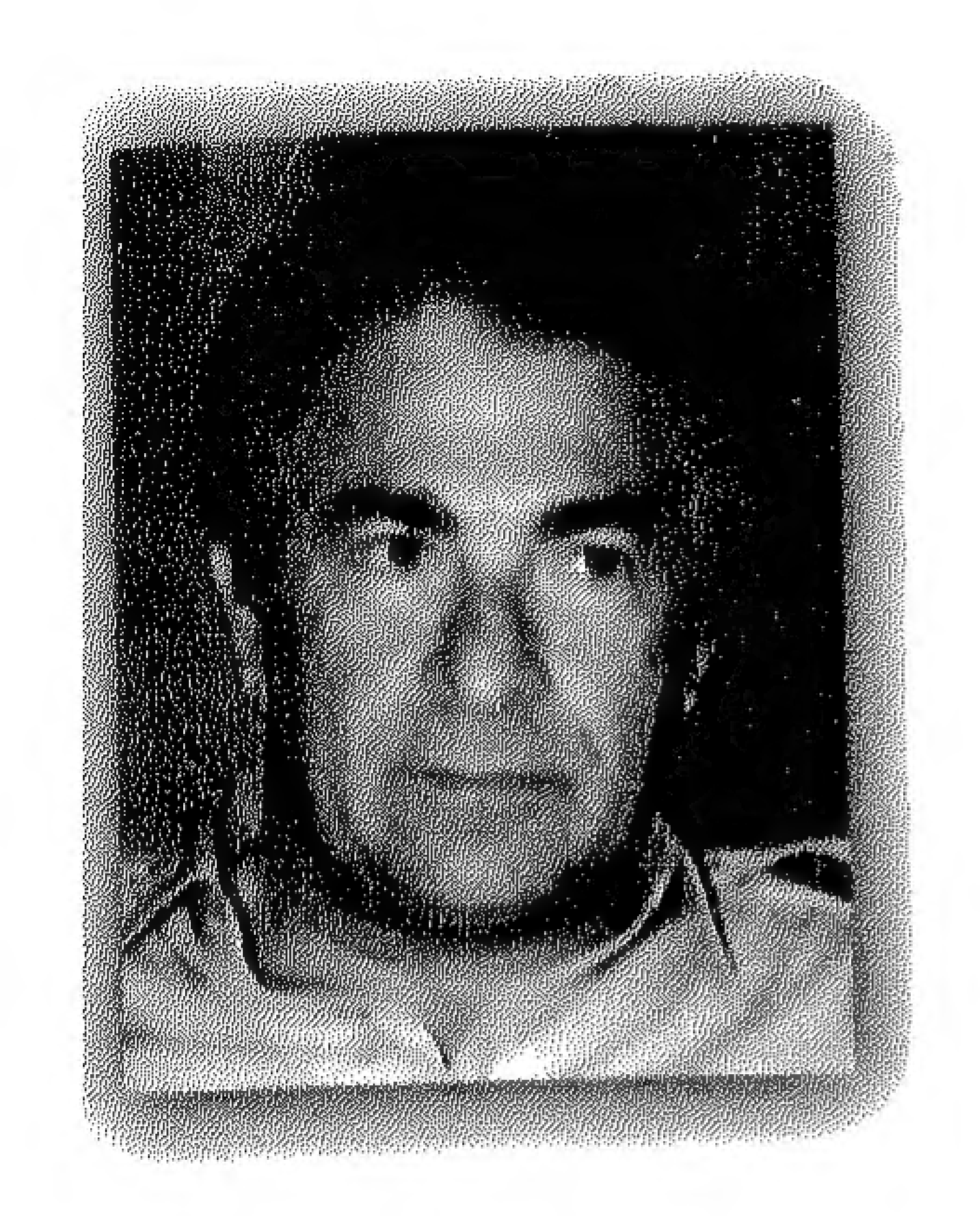


ترتدى أجمل ملابسك، وتسوى شعرك، وتملأ جيوبك بالفلوس، وتقف على عتبة الباب. ثم لا تجد مكانًا تذهب إليه...

كل شاب لديه مثل هذا الشعور.. عنده الوقت والأمل والإرادة.. ولكن الطرق أمامه ليست واضحة.. لا الطريق ولا العلامات ولا وسيلة المواصلات.

كل شاب يريد أن يكون عظيمًا غنيًا صاحب فيلا وزوجة جميلة وأولاد . ولكن لا يستطيع كل ذلك أو بعض ذلك!

هذه هى المشكلة: فالمسافة كبيرة جدًا بين الذى يحلم به. وبين الذى يريد.. بين قدرته وبين إرادته.. وفى هذه المسافة تتوالد كل مشاكل الفرد والمجتمع، وكل مشاكل الدولة والحضارة الإنسانية.. ويكون الغضب وتكون الثورة - التى هى الغضب النبيل!



ولا يملك الشاب إلا أن يكون حيًا حيويًا، وإلا أن يكون طموحًا، وإلا أن يكون الغاضب الساخط المتمرد الثائر..

* اقرأ ما كتبه م... الشباب الأ... أنيس م... فى ... ... أربع... كاتب ال... والحاص... (جائزة م...




الناشر

